الدكتور علي عبد الواحد وافي



الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

Wafi, Ali Abd al-Wahid

الأسفار المقدسة

فى الأديان السابقة للإسلام

al-Asfār al-muqaddasah fī al-adyān al-sābiqah lil-Islām

تأليف

الدكتور على عبد الواحد وافى

دكتور فى الآداب من جامعة باريس

عضو "المجمع الدولى لعلم الاجتماع"

رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بجامعة القاهرة سابقا

الطبعة الأولى

١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م

Egypt

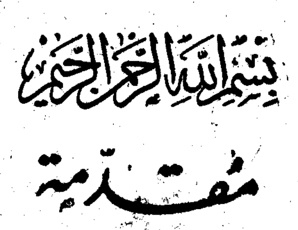
1964

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقى

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٧ شارع الاسماعيلى بالمالية
ت ٢٧٠٧٩



مقدمة

ترجع أهم الديانات السابقة للإسلام التي وصلت إلينا أسفارها المقدسة كاملة أو غير كاملة إلى أربع ديانات ، وهي اليهودية والنصرانية والزرادشتية الفارسية والبرهمية الهندية .

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة اليهودية اسم « العهد القديم » Ancien Testament . ومن أهم أسفار هذا العهد مجموعة تسمى كتب موسى أو الأسفار الخمسة أو التوراة .

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة النصرانية اسم « العهد الجديد » Nouveau Testament . ومن أهم أسفار هذا العهد مجموعة تسمى الأناجيل .

ويراد بكلمة « العهد » في هاتين التسميتين ما يرادف معنى الميثاق ؛ أي إن كلتا الطائفتين من الأسفار تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس : فأولاهما تمثل ميثاقا قديماً يرجع إلى عصر موسى ؛ والأخرى تمثل ميثاقاً جديداً بدأ بظهور عيسى .

وجرت العادة أن يجمع أسفار العهدين معاً في كتاب واحد يطلق عليه اسم « الكتاب المقدس » La Bible .

وقد تألف من بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم في شئون عقائدهم وشرائعهم وتاريخهم مجموعة أسفار أطلق عليها اسم « التلمود » (أي التعاليم) واعتبرت شارحة ومبينة ومفصلة لما ورد في أسفار « العهد القديم » ، وأنزلها معظم فرق اليهود منزلة لا تقل كثيراً عن منزلة « العهد القديم » نفسه .

ويطلق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية الفارسية اسم « الأبستاق » وهو تعريب لكلمة « الأفستا » Avesta (ومعناها الأصل أو الأساس).

وأما الأسفار المقدسة للديانة البرهمية الهندية فيطلق عليها اسم « الفيدا » Veda (ومعناها المعرفة أو العلم).

ومن أسفار « الفيدا » استمدت «قوانين مانو» Lois de Manou التى تنسب لمشرع هندى قديم اسمه « مانو » أو « ماناڤا » وهى تفصيل وشرح و بيان لما اشتملت عليه أسفار « الفيدا » من عقائد وعبادات ومعاملات ونظم اجتماعية وتاريخ . وينزل البرهميون هذه القوانين منزلة التقديس كذلك ، حتى اعتقدوا أن مؤلفها أحد الآلهة المنبثقين عن الإلاه الخالق وهو براهما .

فلدينا إذن ست مجموعات من أسفار هذه الديانات الأربع : منها مجموعتان للديانة اليهودية وهما أسفار « العهد القديم » وأسفار « التلمود » ؛ ومجموعتان كذلك للديانة البرهمية وهما أسفار « الفيدا » و « قوانين مانو » ؛ ومجموعة للديانة المسيحية وهى أسفار « العهد الجديد » ؛ ومجموعة للديانة الزرادشتية وهى أسفار « الأبستاق » .

وسنقف على أسفار كل ديانة من هذه الديانات الأربع فصلا مستقلا نعرض فى بعض فقراته لبيان الأسفار نفسها وفى بعضها الآخر لتحقيقات تتعلق بتصنيفها وجمعها واللغات التى ألفت بها والتى ترجمت إليها وما تشتمل عليه من عقيدة وشريعة وقصص والشعوب التى اختصت بها وموقف الإسلام منها وما يتصل بهذه الأمور .

والله نسأل أن يكتب لنا التوفيق والسداد ويهيىء لنا من أمرنا رشدا ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

الفصل الأول

أسفار الديانة اليهودية

سنمهد لموضوع هذا الفصل بفقرتين : نلقى فى أولاهما نظرة مجملة على تاريخ بنى إسرائيل ، لأنهم هم الذين تنسب إليهم هذه الديانة وهم الذين اختصوا بأسفارها ؛ ونذكر فى الفقرة الأخرى كلمة موجزة عن اللغات العبرية والآرامية واليونانية ، لأنها اللغات التى استخدمت فى تأليف هذه الأسفار وشرحها وترجمتها[1] .

ثم نقف الفقرات التالية على التعريف بأسفار العهد القديم وأسفار التلمود ، وهما المجموعتان اللتان تتألف منهما أسفار الديانة اليهودية ، مع تحقيقات تتعلق بتأليف هذه الأسفار ، وتاريخ تأليفها ، واللغات التى ألفت بها والتى ترجمت إليها ، وما تشتمل عليه من عقيدة وشريعة وقصص ، والأسفار الأخرى غير المعتمدة عند اليهود ، والأسفار التى تعمد أحبارهم إخفاءها ، والفرق اليهودية وما بينها من خلاف فى العقائد والشرائع وصلة ذلك بالأسفار ، وموقف الإسلام من هذه الأمور .

---

(١) ستفيدنا الفقرة الأخيرة كذلك عند الكلام على أسفار العهد الجديد (أسفار الديانة المسيحية) فى الفصل الثانى من هذا الكتاب : لأن هذه اللغات نفسها هى التى استخدمت فى أسفار هذا العهد .

— ١ —

نظرة مجملة فى تاريخ بنى إسرائيل

هاجر يعقوب (الملقب بإسرائيل) هو وأولاده من بلاد كنعان (فلسطين وما إليها) إلى مصر على أثر ما حاق بموطنهم القديم من مجاعة وما أصاب مراعيها من جفاف [١]. وكان الوزير الأول بمصر هو يوسف عليه السلام أحد أبناء يعقوب نفسه. فأكرم مثوى أبيه وأخوته ، وعطّف عليهم قلب فرعون ملك مصر ، وأقطعهم بأمره أرضاً فى أخصب البقاع [٢] . وظلت سلالات بنى إسرائيل بمصر حينا من الدهر تنعم بكرم المصريين ورعايتهم وتقديرهم لجهودهم وكفاياتهم ، حتى لقد وصل كثير منهم إلى أعلى الدرجات والمناصب [٣] . ثم تغير موقف المصريين منهم فيما بعد إلى نقيض ما كان عليه ، لخشيتهم من تكاثر عددهم الذى زاد على عدد المصريين أنفسهم ومن استفحال نفوذهم فى البلاد [٤] ، فأصبحوا موضع مقتهم واضطهادهم يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، ويتخذون منهم خدماً وعبيدا ، ويسخرونهم فى أشق الأعمال [٥] . وبقى بنو إسرائيل أمداً طويلا يرزحون تحت نير هذا الاستعباد ، وتنوشهم معاول هذه الإبادة ، حتى أرسل الله إليهم وإلى فرعون وقومه رسولين إسرائيليين من نسل لاوى (ليفى Lévi) أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون عليهما السلام ، يبلغانهم رسالة التوحيد ، ويدعوانهم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما هم عليه من عبادة الأوثان

---

(١) سفر التكوين ، إصحاح ٤٧ فقرة ٤ .

(٢) سفر التكوين ، إصحاح ٤٧ فقرة ١١ .

(٣) انظر فى هجرة يعقوب وأولاده إلى مصر سورة يوسف من القرآن الكريم ، وسفر التكوين من إصحاح ٤٦ إلى آخر السفر .

(٤) سفر الخروج ، الإصحاح الأول ، فقرة ٩ .

(٥) انظر فى ذلك القرآن الكريم ، سورة البقرة آية ٤٩ ، والإصحاح الأول من سفر الخروج .

والكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبات ، ويقدمان لهم شريعة سماوية سمحة ، هي الديانة اليهودية ، تفصل ما ينبغي أن يكونوا عليه في شئون دينهم ودنياهم، فآمن بهما بنو إسرائيل، وكذب بهما فرعون وقومه إلا قليلا منهم. وظل موسى وهرون وقومهما بنو إسرائيل بعد ذلك في مشادات مع فرعون وقومه حتى أتيح لهم الخروج من مصر إلى صحراء سينا في قصة مشهورة ذكرت وقائعها في كثير من سور القرآن الكريم ، وتحدث عنها بتفصيل « سفر الخروج » وهو أحد أسفار العهد القديم .

وقد استحال بنو إسرائيل في أثناء الفترة التالية لخروجهم من مصر حتى استقرارهم في أرض كنعان ، وتبلغ حوالى أربعين سنة ، إلى قبائل من البدو الرحل ، يضربون في صحراء سينا والمناطق المتاخمة لها ، متنقلين في أرجائها ، « تائهين » حسب تعبير القرآن الكريم في دروبها وفيافيها [١] . وكان موسى قد طلب إليهم دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ، وهي أرض فلسطين ، وقتال أهلها ، ووعدهم بالنصر ، فتقاعسوا عن ذلك جبنا وخورا ، فكتب الله عليهم هذا التيه ، حتى يفنى هذا الجيل الجبان ، وينشأ جيل آخر ربي على التخشن وتمرس بشئون القتال [٢] .

وفي أثناء هذه الفترة توفي هارون ثم موسى عليهما السلام ، ولكن بعد أن أكمل الله لبني إسرائيل دينهم وأتم عليهم نعمته ، وبعد أن تلقى موسى من ربه التوراة « فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء» [٣]. وقد استوعبت جميع

---

(١) انظر آية ٢٦ من سورة المائدة : « قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض » .

(٢) انظر التصوير الرائع للحوار الذي جرى بين موسى وقومه إذ يستحثهم على دخول الأرض المقدسة ، وهي أرض فلسطين ، وهم يتقاعسون عنها خوفا من أهلها ، في آيات ٢٠ — ٢٦ من سورة المائدة .

(٣) آية ٤٤ من سورة المائده : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ... الآية »

تفاصيل هذه الديانة عقائدها وشرائعها وأخلاقها وقصصها : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء »[١] .

وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة يوشع Josué خليفة موسى بعد وفاته على بلاد كنعان (فلسطين وما إليها وهي الأرض المقدسة التي وعدهم الله بها) واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات ، بعد أن أبادوا معظم أهلها واستعبدوا من أبقوا عليه منهم . فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل ، وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار ، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التي ورثوها عن الكنعانيين . وأخذت مزاولتهم لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانيهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم؛ وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب وهم رهط موسى وهارون . أما رؤساؤهم السياسيون فكانوا في صدر هذه المدة من القضاة Juges ؛ ثم لما اتسع نفوذ بني إسرائيل أصبح رؤساؤهم السياسيون ملوكا ذوى سلطان كبير ، ومنهم داود وسليمان عليهما السلام .

وفي سنتي ٥٩٦ و ٥٨٧ قبل الميلاد أغار بختنصر Nabuchonosor ملك بابل على فلسطين ، فأزال ملك بني إسرائيل ، وأسر منهم عددا كبيرا أجلاهم إلى بابل (ومن ثم اشتهر ذلك في التاريخ باسم نفي بابل) حيث ظلوا في الأسر زهاء خمسين سنة حتى تغلب كورش Cyrus ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ قبل الميلاد ، فأطلق سراح اليهود ، ورجع كثير منهم إلى فلسطين ، واستعادوا بعض أوضاع حياتهم الأولى ، ولكنهم فقدوا استقلالهم ، ولم ينعموا به بعد ذلك إلا فترات قصيرة . فوقعوا أولا تحت سيطرة الفرس ،وظلوا كذلك زهاء قرنين كاملين، ثم وقعوا تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الاسكندر الأكبر ، ثم تحت سيطرة الرومان .

---

(١) آية ١٤٥ من سورة الأعراف .

وفى سنة ١٣٥ بعد الميلاد أخمد الرومان فى عهد الأمبراطور هادريان Hadrien ثورة قام بها اليهود (من ١٣٠ إلى ١٣٥) واستخدموا فى إخمادها أعنف وسائل البطش ، فدمروا بلادهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، فأصبحوا مشتتين هائمين على وجوهم فى مختلف بقاع الأرض حتى يومنا هذا، على الرغم من إنشاء دولتهم المزعومة ومن هجرة شرذمة من آفاقهم إلى بلادها .

و إلى إجلاء بنى إسرائيل من بلادهم فى هاتين المرتين يشير القرآن الكريم إذ يقول : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيرا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال و بنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة (أى وعد المرة الآخرة وهو الجلاء الثانى) ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوا تتبيرا » (١) .

وقد تنكب بنو إسرائيل الصراط المستقيم ، وخرجوا على تعاليم دينهم وعقائده عدة مرات فى عهد موسى نفسه ومن بعده ، حتى لقد عبدوا العجل وهرون بين ظهرانيهم وموسى يتلقى الألواح من ربه . و بعث الله فيهم من بعد موسى وهرون عدة رسل وأنبياء يهدونهم سواء السبيل ، و يحاولون إنقاذهم مما انحدروا إليه من كفر وضلال ، فما كانوا يلاقون منهم إلا الإعراض والتكذيب ، بل كانوا يلاقون منهم أحياناً التعذيب والتقتيل . وفى هذا يخاطبهم القرآن الكريم إذ يقول : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ؛ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم

(١) آيات ٢ — ٥ من سورة الإسراء .

استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟ ! » ؛ و يقول مبينا تكذيبهم للقرآن ولأسفارهم نفسها وتمردهم على موسى والأنبياء من بعده : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا و يكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذو ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ؛ قل بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين »[1] .

— ٢ —

نظرة مجملة فى اللغات العبرية والآرامية واليونانية

استخدم فى تأليف أسفار الديانة اليهودية وفى شرحها وترجمتها الأولى ثلاث لغات ، وهى العبرية والآرامية واليونانية . ولذلك رأينا التمهيد لدراسة هذه الأسفار بكلمة مجملة عن هذه اللغات الثلاث . وسنفيد من هذا التمهيد فى دراسة العهد الجديد الذى سنتحدث عنه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، لأن أسفار هذا العهد كذلك قد استخدم فى تأليفها وترجمتها الأولى لغتان من هذه اللغات الثلاث وهما الآرامية واليونانية .

اللغة العبرية :

تطلق اللغة العبرية على لغة فرع واحد من العبريين، وهو فرع بنى إسرائيل. وذلك أن الأمم العبرية تتألف من بنى إسرائيل وشعوب أخرى كآل أدوم وآل مؤاب وآل عمون . ولكن لا يطلق اسم اللغة العبرية إلا على لغة بنى إسرائيل وحدهم.

وقد اجتازت هذه اللغة مراحل كثيرة تأثرت فى كل مرحلة منها ، فى مفرداتها وقواعدها وأساليبها ، بعدة مؤثرات أهمها الشئون السياسية وما طرأ على

---

(١) آيات ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٣ من سورة البقرة .

وحدة بنى إسرائيل واستقلالهم وعلاقتهم بالشعوب الأخرى واحتكاك لغتهم وثقافتهم بلغاتهم وثقافاتهم . فاللغة مرآة ينعكس فيها ما يكتنف الناطقين بها فى حياتهم الاجتماعية والعقلية من ظروف ومؤثرات . وترجع أهم مراحل هذه اللغة إلى عصرين رئيسيين :

العصر الأول من نشأة هذه اللغة (حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد) إلى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، أى طوال المدة التى كانت العبرية فى أثنائها لغة حية يتكلم بها بنو إسرائيل . وفى المرحلة الأولى من هذا العصر ، وهى المرحلة السابقة لنفى بابل (أى السابقة لسنة ٥٨٧ قبل الميلاد) كانت العبرية فصيحة خالصة من الشوائب ؛ بينما أخذت بوادر التأثر باللغة الآرامية تنفذ إليها فى أثناء المرحلة الأخيرة ، وهى اللاحقة لهذا النفى . وتسمى العبرية فى هذا العصر بمرحلتيه « العبرية القديمة » أو « عبرية العهد القديم » ، لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها فى هذا العصر بمرحلتيه هى أسفار « العهد القديم » .

والعصر الثانى يبدأ من العهد الذى انقرضت فيه اللغة العبرية من التخاطب لدى بنى إسرائيل ، وحلت محلها فى ألسنتهم اللغة الآرامية ، واقتصر استخدام العبرية على الكتابة وشئون الدين ، أى من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد . وتمتاز العبرية فى هذا العصر بشدة تأثرها باللغة الآرامية و ببعض اللغات الهندية الأوروبية التى احتك اليهود بأهلها احتكاكا سياسيا أو ثقافيا وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية . وتسمى العبرية فى أثناء المرحلة الأولى من هذا العصر ، وهى المرحلة التى تنتهى بالقرن السادس الميلادى . « العبرية الربّانية » أو « التلمودية » ؛ لأن أهم ما وصل إلينا من آثارها فى هذه المرحلة يتمثل فى بحوث « الربّانيين » فى أسفار « المشناة » من « التلمود » كما سيأتى بيان ذلك[1] .

---

(١) انظر فى تفاصيل اللغة العبرية وأدوارها وخصائصها ورسمها كتابنا « فقه اللغة » ، الطبعة الخامسة ، صفحات ٤١ — ٥١ .

اللغة الآرامية :

أصبحت اللغة الآرامية بعد تغلبها على اللغة العبرية فى فلسطين وما إليها وعلى اللغة الأكادية (أو البابلية الأشورية) فى مناطق العراق ، أى منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، اللغة السائدة فى التخاطب والكتابة فى جميع بلاد العراق من جهة وفى سوريا وفلسطين وما إليهما من جهة أخرى .

و باللغة الآرامية كتب من أول الأمر بعض فصول وفقرات فى بعض أسفار العهد القديم (بعض فصول من سفرى عزرا ودانيال وفقرة واحدة من سفر أرمياء)؛ وكتب بها من أول الأمر كذلك إنجيل متى فى العهد الجديد .

و باللغة الآرامية شرحت أسفار « المشناة » اليهودية ، وسمى شرحها هذا « الجمارا » (وتألف من المتن العبرى وهو « المشنـــاة » والشرح الآرامى وهو « الجمارا » ما يسمى « التلمود ») .

و إلى اللغة الآرامية ترجمت أسفار العهد القديم من أصلها العبرى أحيانا ومن ترجمتها اليونانية أحيانا ، وترجم إليها كذلك أسفار العهد الجديد من أصلها اليونانى [1] .

اللغة اليونانية :

كانت اللغة اليونانية لغة الحديث والكتابة فى جميع البلاد اليونانية الأصل وفى جميع مستعمرات اليونان بأندونيسيا وأفريقيا ، كما كانت لغة الآداب والثقافة والعلوم فى كثير من البلدان غير اليونانية اللسان ، وخاصة فى بلاد العراق والشام وفلسطين وشمال أفريقيا ، بل فى مصر نفسها ؛ فقد كان المصريون فى عهد البطالسة إلى الفتح العربى يستخدمون المصرية القديمة فى تخاطبهم وحديثهم العادى ، بينما كانوا يستخدمون اليونانية فى شئون الكتابة والثقافة والآداب والعلوم .

(١) انظر فى تفاصيل اللغة الآرامية وأدوارها وفروعها كتابنا « فقه اللغــة » ، الطبعة الخامسة ، صفحات ٥٢ — ٦٧ .

و باللغة اليونانية ألفت جميع أسفار العهد الجديد ما عدا إنجيل متى ، فالراجح أنه ألف بالآرامية ثم ترجم إلى اليونانيـــة ، وإن كان الأصل الآرامى لم يصل إلينا .

و إلى اللغة اليونانية تمت أقدم ترجمة لأسفار العهد القديم من أصلها العبرى. وهى الترجمة السبعينية (وهى التى تمت فى سنتى ٢٨٢ و ٢٨٣ على يد اثنين وسبعين حبراً من يهود مصر بأمر بطليموس فيلادلف ، ومراعاة لعدد من قام بها سميت الترجمة السبعينية Version de Septante) . و إلى اللغة اليونانيـة تمت كذلك أقدم ترجمة لإنجيل متى فى العهد الجديد من أصله الآرامى .

ومن اللغة اليونانية ترجمت أسفار العهدين القديم والجديد إلى اللغة اللاتينية. وعن اليونانية واللاتينية ترجمت هذه الأسفار إلى معظم لغات العالم قديمها وحديثها[١] .

— ٣ —

العهد القديم

اعتمد اليهود فى أسفارهم تسعة وثلاثين سفراً أطلق عليها فى العصور المسيحية اسم «العهد القديم» Ancien Testament للتفرقة بينها و بين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التى أطلقوا عليها اسم «العهد الجديد» Nouveau Testament . — واعتبروا هذه الأسفار التسعة والثلاثين أسفاراً مقدسة أى موحى بها .

و يراد بكلمة «العهد» فى هاتين التسميتين — كما ذكرنا ذلك فى مقدمه هذا الكتاب — ما يرادف معنى الميثاق ، أى إن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس وارتبطوا به معه alliance : فأولاهما تمثل ميثاقاً قديماً من عهد موسى ؛ والأخرى تمثل ميثاقاً جديداً من عهد عيسى .

(١) انظر فى تفاصيل اللغة اليونانية وفروعها وآدابها كتابنا « علم اللغة » ، الطبعة الخامسة ص ١٨١ ، وكتابنا « الأدب اليونانى القديم ودلالته على عقائد اليونان و نظامهم الاجتماعى » .

وتنقسم أسفار العهد القديم أربعة أقسام :

(القسم الأول) كتب موسى أو الأسفار الخمسة أو « البانتاتيك » .

(Pentatenque : du grec « Penta » — cinq, et « teukhos » — livre)

وهى سفر التكوين وسفر الخروج وسفر التثنية وسفر اللاويين وسفر العدد وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة فى نظر اليهود .

أما سفر التكوين (Génèse) فيقص تاريخ العالم من تكوين السماوات والأرض (ومن ثم سمى سفر « التكوين ») إلى استقرار أولاد يعقوب أو إسرائيل (وهو اسم آخر أو لقب ليعقوب) فى أرض مصر ، مع تفصيل فى قصص آدم وحواء ونوح والطوفان ونسل سام (أحد أبناء نوح ، وهو الذى انحدر منه شعب بنى إسرائيل) وخاصة ابراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف والأسباط ، وإجمال فيما عدا ذلك .

وأما سفر الخروج (Exode) فيعرض تاريخ بنى إسرائيل فى مصر وقصة موسى ورسالته وخروجه مع بنى إسرائيل (ومن ثم سمى سفر « الخروج ») وتاريخهم فى أثناء مرحلة « التيه » التى قضوها فى صحراء سينا واستغرقت أربعين عاما ، وهى التى يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول : « قال فإنها محرمة عليهم » (أى أرض الميعاد ، وهى بلاد كنعان التى وعدهم الله بها) «أربعين سنة يتيهون فى الأرض[1] » . وبجانب هذه القصص يشتمل سفر الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية فى العبادات والمعاملات والعقوبات . . . وما إلى ذلك .

وأما سفر التثنية فقد شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب

(١) آية ٢٦ من سورة المائدة .

والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات ... وهلم جرا . وسمى « التثنية » لأنه « يعيد » ذكر التعاليم التى تلقاها موسى من ربه وأمر بتبليغها إلى بنى إسرائيل .

(Deutéronome, du grec «deutéronômion : seconde loi)

وأما سفر اللاويين (Lévitiques) فقد شغل معظمه بشئون العبادات وخاصة ما تعلق منها بالأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور . واللاويون هم نسل « لاوى » أو « ليفى » Lévi أحد أبناء يعقوب ، ومنهم موسى وهرون. وكان اللاويون سدنة الهيكل والمشرفين على شئون المذبح والأضحية والقرابين والقوامين على الشريعة اليهودية . ومن ثم نسب إليهم هذا الكتاب الذى شغل معظمه بما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات .

وأما سفر العدد (Nombres) فقد شغل معظمه بإحصائيات عن قبائل بنى إسرائيل وجيوشهم وأموالهم وجميع ما يمكن إحصاؤه من شئونهم (ومن ثم سمى سفر « العدد ») وبأحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات .

(والقسم الثانى) يسمى بالأسفار التاريخية ، وهى اثنا عشر سفرا تعرض لتاريخ بنى إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين وبعد استقرارهم فى فلسطين ، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة فى شئونهم . وهى أسفار يوشع Josue والقضاة Juges وراعوث Ruth وصموئيل (سفران) والملوك (سفران) وأخبار الأيام (سفران) وعزرا Esdras ونحميا Néhémie وإستير Esther .

(والقسم الثالث) يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية ، وهى أناشيد ومواعظ معظمها دينى مؤلفة تأليف شعرياً فى أساليب بليغة ، وعددها خمسة أسفار ، وهى سفر أيوب Job ومزامير داود Psaumes وأمثال سليمان Proverbes

والجامعة من كلام سليمان Ecclésiaste ونشيد الأناشيد لسليمان Cantique des Cantiques

(والقسم الرابع) يسمى أسفار الأنبياء ، وعددها سبعة عشر سفرا يعرض كل منهما لتاريخ نبي من أنبياء بني إسرائيل الذين أرسلوا إليهم بعد موسى وهرون ، وهي أسفار أشعياء Esaïe وأرمياء Jérémie ومراثي أرمياء Lamentations de Jérémie وحذقيال Ezechiel ودانيال Daniel وهوشع Osée ويؤئيل Joël وعاموس Amos وعوبديا Abdias ويونس Jonas وميخا Michée وناحوم Nahum ، وحبقوق Habakuk وصُفُنيا Sophonie وحجي Aggée وزكريا Zackarie وملاخي Malachie .

* * *

هذا ، وقد ذكر كثير من مؤرخي العرب بين أسفار العهد القديم كتبا ليست منه ، وإنما تعد من الكتب الخفية التي سنتكلم عليها في الفقرة السابعة من هذا الفصل ، كسفر يهوذا أو يهوديت وكتب المكابيين وسفر يسوع بن سيراخ ، كما ذكروا كتبا لا وجود لها بين الكتب المعتمدة ولا بين الكتب الخفية عند اليهود كالسفر الذي سموه سفر بنيامين ، وأغفلوا ذكر طائفة من الأسفار المعتمدة ، وحرفوا كثيراً من أسماء ما ذكروه منها[1] .

— ٤ —

التوراة أو أسفار موسى أو الأسفار الخمسة

وتاريخ كل سفر منها

هذا وأهم أسفار العهد القديم هي أسفار القسم الأول التي ينسبها اليهود إلى موسى ويعتقدون أنها بوحي من الله وأنها تتضمن التوراة . ولكن ظهر للمحدثين

---

(١) انظر مثلا ابن خلدون في المقدمة ، وانظر تعليقاتي في هذا الصدد على مقدمة ابن خلدون بصفحات ٥٩٣ — ٥٩٥ (الجزء الثاني ، طبعة لجنة البيان العربي) .

من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع ، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها ، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (وعصر موسى يقع على الأرجح حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) ، وأن معظم سفرى التكوين والخروج قد ألف حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، وأن سفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، لم وأن سفرى العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أي بعد النفي البابلي الذي سبقت الإشارة إليه في الفقرة الأولى من هذا الفصل (وهو إجلاء بني إسرائيل إلى بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد)، وأنها جميعا مكتوبة بأقلام اليهود ، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل ، كما سنذكر ذلك عند كلامنا على العقيدة والشريعة في أسفار اليهود . فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله على موسى . وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؛ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»[١]، وإذ يقول : «...والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا؛ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه»[٢]، وإذ يقول : « فبما نقضهم ميثاقهم » (يعني اليهود) « لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به »[٣] . وقد رأى عليه الصلاة والسلام ورقة من التوراة في يد عمر فأمره بإلقائها وألا يضيع وقته

(١) آية ٧٩ من سورة البقرة .
(٢) آية ٤٦ من سورة النساء .
(٣) آية ١٣ من سورة المائدة .

فى قراءة ما بها من كذب وتحريف ، ثم قال : « ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟! والله لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا اتباعى » ؛ أى إن هذه التوراة المزعومة ملطخة بسواد التحريف والتغيير ؛ وقد أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن ملخصا لما كانت تشتمل عليه التوراة من عقيدة وشريعة وقصص، فأحياها فى صورتها الصحيحة نقية بيضاء ، وأن موسى لو بعث الآن لتبرأ من توراتهم واتبع قرآن محمد .

وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة بشأن التواريخ التى ألفت فيها هذه الكتب الخمسة ، وضعنا سفر التثنية فى ترتيبنا قبل سفرى اللاويين والعدد لأنه قد ألف فى عصر سابق للعصر الذى ألف فيه هذان السفران ، وإن كان الترتيب التقليدى للعهد القديم يضعه فى أواخر الأسفار الخمسة .

— ٥ —

بقية أسفار العهد القديم
وتاريخ كل سفر منها

وعلى أساس هذه التحقيقات الحديثة نفسها يرجح الباحثون أن قسما من الأسفار الأخرى للعهد القديم قد ألف فى الفترة الواقعة بين النصف الأخير من القرن التاسع وأوائل السادس قبل الميلاد ، ويشمل هـذا القسم أسفار يوشع والقضاة وصموئيل والملوك والأمثال ونشيد الأناشيد ومعظم أسفار الأنبياء ، وأن قسما آخر منها قد ألف فى الفترة الواقعة بين أوائل القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد ؛ ويشمل هـذا القسم أسفار يونس وزكريا وقسما من سفر دانيال .

— ٦ —

اللغات التي ألفت بها أسفار العهد القديم
والتي ترجمت إليها

دونت جميع أسفار العهد القديم بلغة واحدة وهى اللغة العبرية. وإن كانت التراكيب والأساليب وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار وتنم على العصور التي ألف فيها كل سفر منها. ولا يستثنى من ذلك إلا بعض أجزاء يسيرة ألفت من أول الأمر باللغة الآرامية وهى بعض أجزاء من سفرى عزرا Esdras ودانيال وفقرة واحدة من سفر أرمياء Jérémie وكلمتان اثنتان فى سفر التكوين وردتا باللغة الآرامية عن قصد. ويرجح الباحثون أن ما ألف بالآرامية مباشرة من سفر عزرا يرجع تاريخ تدوينه إلى حوالى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وأن ما ألف بها من سفر دانيال يرجع تاريخ تدوينه إلى سنة ١٦٧ أو ١٦٦ قبل الميلاد.

وقد أخطأ بعض مؤرخى العرب إذ قرروا أن جميع أسفار العهد القديم قد ألفت باللغة العبرانية.

* * *

وأقدم ترجمة للعهد القديم هى الترجمة اليونانية التي اشتهرت باسم « الترجمة السبعينية » Version de Septante وهى التي تمت فى سنتى ٢٨٢ و ٢٨٣ قبل الميلاد على يد اثنين وسبعين حبرا من يهود مصر بأمر بطليموس فيلادلف.

ثم ترجمه أحبار اليهود من مدرسة بيت المقدس من العبرية إلى « اللهجة الآرامية الفلسطينية الحديثة » وهى إحدى لهجات اللغة الآرامية وكانت مستخدمة فى منطقة فلسطين وما إليها، وساروا فى ترجمتهم هذه على منهج خاص يختلف عن

مناهج التراجم المعتادة . فكانوا يدونون الآية بنصها العبرى ثم يتبعونها بترجمتها إلى اللغة الآرامية . وقد أطلق على كتبهم هذه اسم « الترجوم » ومن أشهرها ترجوم أنقلوس Onclos وهو ترجمة لأسفار التوراة وحدها (الأسفار الخمسة أو أسفار موسى التى يتألف منها القسم الأول من أسفار العهد القديم وتتضمن التوراة) ، وترجوم يوناثان وهو ترجمة لبقية أسفار العهد القديم . وقد ألفت ترجماتهم هذه فى الفترة الواقعة بين أوائل القرن الثانى وأواخر القرن الخامس بعد الميلاد وتم معظمها فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين .

وفى هذه الفترة نفسها (بين أوائل القرن الثانى وأواخر القرن الخامس بعد الميلاد) ترجمت مدرسة الكنيسة المسيحية السريانية العهد القديم (مع العهد الجديد) إلى اللغة السريانية وهى إحدى شعب اللغة الآرامية . ولم يترجموه عن العبرية مباشرة كما فعل أحبار اليهود من مدرسة بيت المقدس ، وإنما ترجموه عن الترجمة السبعينية اليونانية . والترجمة السريانية ترجمة حرفية لا تكاد تبين عن روح اللغة العبرية التى ألفت بها هذه الأسفار .

وترجم المسيحيون بفلسطين العهد القديم (مع العهد الجديد) إلى اللهجة الآرامية الفلسطينية الحديثة ، وهى إحدى اللهجات الآرامية التى كانت مستخدمة فى فلسطين وما إليها كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وذلك بعد أن استقلوا فى ثقافتهم وشئونهم الدينية عن الكنيسة السريانية ، وقد تم لهم هذا الاستقلال فى أواخر القرن الخامس الميلادى . ولم يترجموه عن العبرية مباشرة كما فعل مواطنوهم اليهود من مدرسة بيت المقدس وإنما ترجموه عن الترجمة السبعينية اليونانية كما فعل السريان . وجاءت ترجمتهم هذه ترجمة حرفية كالترجمة السريانية ، بل تزيد فى حرفيتها عن الترجمة السريانية وتقل عنها فى مبلغ إبانتها عن روح اللغة العبرية وأساليبها . وقد استغرقت تراجمهم للعهدين القديم والجديد مدة طويلة تمتد من القرن الثامن إلى الحادى عشر بعد الميلاد .

وفى القرون الأولى بعد الميلاد ترجمت أسفار العهد القديم من ترجمتها اليونانية السبعينية إلى اللغة اللاتينية ؛ وعن الترجمتين اليونانية واللاتينية ترجمت هذه الأسفار إلى معظم لغات العالم قديماً وحديثاً ،

— ٧ —

الأسفار « الخفية » عند اليهود

وبجانب هذه الأسفار التى يتألف منها العهد القديم توجد أسفار يهودية قديمة أخرى لم يدخلها اليهود فى أسفار هذا العهد . ويطلقون عليها اسم « الأسفار الخفية » .

(Apocryphe, du grec : «apokruphos», de «apokruptien = cacher).

وبعض هذه الأسفار الخفية غير مقدس ولا معتمد فى نظر اليهود ، بينما بعضها الآخر مقدس أى معترف بأنه موحى به ومعتمد فى نظرهم ، ولكن رأى أحبارهم وجوب إخفائه فى الهيكل ، وقرروا أنه لا يجوز أن يقف عليه الجمهور ولا أن يدرج فى أسفار العهد القديم . وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول فى صدد اليهود: « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ؛ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً »[1] ، وإذ يقول : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب »[2] ، وإذ يقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »[3] ، وإذ يقول: « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون

---

(١) آية ٩١ من سورة الأنعام .
(٢) آية ١٥ من سورة المائدة .
(٣) آية ١٥٩ من سورة البقرة .

به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار . ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»(١) .

ومن هذا يظهر أن السفر قد يكون خفيا ومقدسا فى آن واحد عند اليهود . وفى هذا يختلف الاصطلاح اليهودى بعض الاختلاف فى مدلول كلمة « الخفى » عن الاصطلاح المسيحى . فالمسيحيون يطلقون كلمة «الخفى» apocryphe على كل سفر يرون أنه غير مقدس أى غير موحى به ، سواء أكان فى نظرهم صحيحا فى حقائقه وفى نسبته إلى مؤلفه ، أم كان فى نظرهم غير صحيح فى حقائقه أو فى نسبته إلى مؤلفه أو فى كليهما كإنجيل برنابا وكتاب أعمال الرسل لبرنابا ؛ فإن المسيحيين لا يعترفون بصحة ما جاء فيهما ولا بصحة نسبتهما إلى برنابا كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرتين السابعة والثامنة من الفصل الثانى من هذا الكتاب .

— ٨ —

أسفار « التلمود » وتاريخ تأليفها

تألف من بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم المنتمين إلى فرقة الفريسيين (أشهر فرق اليهود كما سيأتى الكلام على ذلك فى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل) فى شئون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وما إلى ذلك ثلاثة وستون سفرا ألفت فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد، وأطلق عليها اسم «المشناة» بمعنى المثنى أو المكرر أى إنها تكرار وتسجيل للشريعة (Michna — repétition des lois,ou seconde loi) ؛ ثم شرحت هذه المشناة فيما بعد وأطلق على هذه الشروح اسم « الجمارا » أى الشرح أو التعليق Gémara — commentaires . وألفت هذه الشروح فى فترة طويلة تمتد من القرن الثانى إلى أواخر السادس بعد الميلاد. وتألف من المتن والشرح (أى من المشناة والجمارا) ما أطلق عليه اسم «التلمود» بمعنى التعاليم Talmud — enseignement

(١) آية ١٧٤ من سورة البقرة .

— ٩ —

اللغات التي ألفت بها أسفار التلمود والتي ترجمت إليها

ألفت أسفار « المشناة » باللغة العبرية ، وألفت شروحها المسماة « الجمارا » باللغة الآرامية ، فكان يدون المتن بلغته العبرية ثم يشرح بالآرامية .

وتسمى اللغة العبرية التي ألفت بها أسفار المشناة باللغة الربّانية ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الفقرة الثانية من هذا الفصل . وهى تختلف اختلافا غير يسير عن اللغة العبرية التي ألفت بها أسفار العهد القديم . وذلك أن تأليف أسفار المشناة قد حدث بعد أن انقرضت العبرية من لغة التخاطب لدى بنى إسرائيل وحلت محلها فى ألسنتهم اللغة الآرامية ، واقتصر استخدام العبرية لديهم على ميادين الكتابة وخاصة فى شئون الدين . ومن ثم تمتاز اللغة العبرية التي ألفت بها المشناة بشدة تأثرها باللغة الآرامية ، كما يبدو فيها كثير من مظاهر التأثر ببعض اللغات الآرية ـ الهندية ـ الأوربية التي احتك اليهود بأهلها احتكاكا سياسيا أو ثقافيا وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية . فمع أن المشناة قد دونت باللغة العبرية فإن كثيرا من المفردات التي وردت فيها مقتبس من الآرامية ، وتشتمل كذلك على عدد غير يسير من الكلمات اليونانية واللاتينية والفارسية . ولكن هذا لا ينقص شيئا من قيمتها اللغوية والتاريخية ؛ وذلك لأن ما بها من مفردات أجنبية لا يعد شيئا مذكورا بجانب ما استخدمته من المفردات العبرية التي لا يوجد بعضها فى العهد القديم نفسه .

وأما شروح المشناة وهى المسماة « الجمارا » وهى التي ألفت باللغة الآرامية ، فقد قامت بها مدرستان :

(إحداهما) مدرسة يهودفلسطين . وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجةالآرامية الفلسطينية الحديثة وهى اللهجة نفسها التى استخدمها هؤلاء فى ترجمة العهد القديم كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الفقرة السادسة من هذا الفصل . واستغرق لديهم تأليف هذه الشروح فترة طويلة تمتد من القرن الثانى إلى أواخر الخامس بعد الميلاد . وإن كان معظمها قد تم فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين . وتتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه (أى مع أسفار المشناة) ما يعرف بتلمود بيت المقدس .

(والأخرى) مدرسة يهود بابل . وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجةالآرامية الجنوبية الشرقية (وهى إحدى لهجات اللغة الآرامية) ، وشرعوا فيها منذ أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ولم يفرغوا منها إلا فى القرن السادس الميلادى . وتتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه ما يعرف بتلمود بابل .

وعن اللغتين العبرية والآرامية ترجم التلمود إلى كثير من لغات العالم قديمها وحديثها .

— ١٠ —

العقيدة فى أسفار اليهود وتطورها

كانت الديانة اليهودية فى أصلها ، كما ينبئنا بذلك القرآن ، ديانة توحيد تتصف فيها الذات العلية بصفات الوحدة والكمال ، والتجرد من جميع مظاهر النقص ، والمخالفة للحوادث فى كل شىء ، كما هو الشأن فى الدين الإسلامى .

ولكن يظهر من التأمل فى أقدم أسفار توراتهم المزعومة أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست فى عصر تدوينهم لهذه الأسفار ، فتصوروا الله تعالى فى صور مجسمة ، ووصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب

والغفلة والجهل، وظهر تصورهم هذا فى كثير من قصص هذه الأسفار .

فمن ذلك مثلا ما يرويه سفر التكوين فى قصة آدم وحواء وإخراجهما من الجنة ، إذ يذكر أن الله تعالى قد نهاهما عن الأكل من شجرة المعرفة ، وخوّفهما مضلّلاً بهما ومخفيا عنهما حقيقة هذه الشجرة ، فذكرلهما أن الأكل منها يفضى إلى المـوت ، مع أن الأكل منها يفضى إلى رقى التفـكير وانحسار أغطية الجهل وانبثاق نور المعرفة . ولـكن الإلاه كان يريد إبقاءهما جاهلين حتى لا يشاركاه فى صفة من أخص صفاته . ولما أغرى الشيطان حواء بالأكل من هـذه الشجرة وانساق معها زوجها ، أدركا ما كانا يجهلانه من قبل ، فعرفا أنهما مـكشوفا السوءتين وأنه لا يليق أن يقابلا ربهما على هذه الصورة . ولما قدم الإلاه نحوهما مخترقا طرق الجنة ، وسمعا صوته وحركته فى أثناء سيره ، اختبآ حتى لا يراهما عريانين ، وأخذا يخصفان على عورتيهما من ورق الجنة ، فناداهما ربهما وأخـذ يستجوبهما ، واستنتج من فعلتهما ومن استجوابهما أنه لابد أن يكونا قد أكلا من شجرة المعرفة ، وأن ذلك قد جعلهما يعرفان حقيقة أمرهما ، وأن الإنسان قد أصبح بذلك « أخـذ الآلهة لتمييزه بين الحسن والقبيح » ، وأنه قد أصبح لزاما أن يطرد الإنسان من الجنة ، حتى « لا تمتد يده إلى شجرة أخرى هى «شجرة الخلد » فيكفل لنفسه أرقى صفات الإلاه وهو البقاء[1] .

وقد عرض القرآن فى أكثر من سورة لعدة مواقف من قصة آدم وحواء وأكلهما من الشجرة وخروجهما من الجنة بدون أن يبدو فى أى موقف من هـــذه المواقف ما يتعارض مع كمال علم الله وقدرته ومخالفته للحوادث .

ومن ذلك أيضا ما يرويه سفر التكوين فى قصة إهلاك قوم لوط وتدمير قريتى سودوم وجوموره Sodome et Gomorrhe إذ يذكر أن ثلاثة رجال،

---

(١) الإصحاح الثالث من سفر التكوين .

وهم الله وملكان معه ، قدموا على إبراهيم وهو جالس أمام خيمته ، وأن إبراهيم قد عرف الله من بينهم ورجاه أن يستريحوا عنده قليلا من وعثاء سفرهم ، وقدم إليهم ماء لشربهم وغسل أرجلهم وفطائر وعجلا حنيذا لطعامهم ، فانتحى ثلاثتهم تحت ظل شجرة ، وأخذوا يأكلون مما قدمه إليهم ، و إبراهيم جالس على مقربة منهم .

ثم تفقد الإلاه زوجه سارة وسأله عنها وأخذ يبشرها ويبشر إبراهيم بأنه سيمر بهما فى هذا الموعد نفسه من السنة القادمة فيجدهما قد رزقا غلاما زكيا . ثم اشتبك معه إبراهيم فى نقاش وجدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد إهلاكهما بغية أن يثنيه عن ذلك لأن بعض أهلهما أتقياء ولا يصح أن يؤخذ المحسن بذنب المسىء[١] .

وقد ذكر القرآن هذه القصة على حقيقتها فبين أن الذين وفدوا على إبراهيم كانوا ملائكة مشكلين فى صورة آدميين ، فظنهم بشرا ، فقدم إليهم طعاما ، فلم تصل أيديهم إليه ، لأن الملائكة لا يأكلون. وفى هذا يقول القرآن الكريم: « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ... »[٢] .

ومن ذلك أيضا ما يقرره سفر التكوين من أن الله بعد أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام استراح فى اليوم السابع وكان يوم سبت وأن الله قد بارك هذا اليوم من أجل ذلك فحرم فيه العمل[٣] ، أى إنه كالبشر فى حاجة إلى الراحة بعد بذل المجهود فى عمل ما . وعلى زعمهم هذا يرد الله تعالى فى القرآن

---

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين .
(٢) انظر آيات ٦٩ — ٧٦ من سورة هود .
(٣) الفقرات الأولى من الإصحاح الثانى من سفر التكوين .

الكريم إذ يقول : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب »[١].

بل إن هذه الأسفار لتدل على أنهم كانوا يعتقدون تعدد الآلهة. فكانوا يرون أن ثمة إلاها خاصا بشعب إسرائيل يختلف عن آلهة الشعوب الأخرى .

ثم أخذ تصورهم للذات العلية يرقى شيئاً فشيئاً و يتخلص من شوائب النقص والتجسيم ، كما يبـدو ذلك فى أحدث أسفار توراتهم المزعـومة كأسفار التثنية والعدد واللاويين .

غير أنه قد بقى لديهم الاعتقاد بأن لهم إلاها خاصا بهم وهو إلاه إسرائيل وأنهم هم أولاده وأحباؤه وأن لغيرهم من الأمم آلهة أخرى . ولم يتخلص إلاههم هذا كل التخلص من جميع صفات الحوادث ، بل ظل عالقا به ، فى نظرهم ، بعض هذه الصفات . فمن ذلك أن أحدث أسفار توراتهم المزعومة وهو سفر اللاويين يذكر فى أكثر من موضع أن « الضحايا المحرَّقة » (وهى التى تحرق أجزاؤها فى المذبح تحت إشراف إحد اللاويين) يرتاح لها الإلاه ويفيد منها وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها ، وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم إليه أو إذا قدمت إليه فى صورة غير الصورة المقررة فى شريعتهم ، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه على المقصرين فيرسل عليهم نارا تحرقهم[٢] . وعلى مزاعمهم هذه يرد الله تعالى فى القرآن الكريم إذ يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ؛ ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » وإذ يقول فى هدى الحج من الأنعام : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير »[٣] .

(١) آية ٣٨ من سورة ق .

(٢) انظر إصحاحات سفر اللاويين . والنار التى نشير إليها قد أحرقت ولدين من أبناء هارون ، انظر الإصحاح العاشر من سفر اللاويين .

(٣) آيتى ٢٧ ، ٣٧ من سورة الحج

ويظهر أنه بعد أن قربت عقيدتهم من التوحيد ، انتكست مرة أخرى انتكاساً كبيراً فى العهد الذى ألف فيه التلمود (القرون الستة الأولى بعد الميلاد). فأسفار التلمود تظهر إلاه إسرائيل متصفاً بكثير من صفات الحوادث وصفات النقص . ويبدو ذلك على الأخص فيما يرويه التلمود عن نشاط الله وأعماله فى الليل والنهار وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل . فتقرر بعض أسفاره أن الله يقضى الساعات الثلاث الأولى من النهار فى مذاكرة الشريعة، والساعات الثلاث الثانية فى شئون الحكم بين الناس، والساعات الثلاث الثالثة فى تدبير العيش للخلق، وأما الساعات الثلاث الأخيرة فيقضيها فى اللعب مع الحوت ملك الأسماك ، وهو حيوان كبير جداً يتسع حلقه لسمكة طولها ثلثمائة فرسخ بدون أن تضايقه . وقد رأى الله أن يحرمه من أنثاه حتى لا يتناسلا فيملآ الدنيا وحوشاً تهلك من فيها وتأتى على الحرث والنسل . ولهذا حبس الذكر بقوته الإلاهية وقتل الأنثى وملحها وحفظها اطعام المؤمنين فى الفردوس . وأما ساعات الليل فيقضيها الإلاه فى مذاكرة التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين الذى يصعد إلى السماء كل ليلة ثم يهبط منها إلى الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية. وقد تغير هذا النظام بعد أن قدر الله هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل . فقد اعترف الإلاه بخطئه فى هذا الصدد وندم على ما فعله ، وخصص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم . وكان إذا بكى سقطت من عينيه دمعتان فى البحر فيسمع دويهما من فى الآفاق ، وتضطرب المياه وترتجف الأرض فتنجم عن ذلك الزلازل . ويزعم التلمود أن الله يردد فى أثناء بكائه ونحيبه عبارات تدل على ندمه مما فعل فيقول : تبًّا لى أمرت بخراب بيتى وإحراق الهيكل وتشريد أولادى ، ويقول حينما يسمع الناس يمجدونه : طوبى لمن يمجده الناس وهو مستحق لذلك، وويل للأب الذى يمجده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك لأنه قد قضى عليهم بالتشريد والشقاء . ويقرر التلمود كذلك أن الإلاه قد تستولى عليه نزوة غضب فيقسم ليأتين أعمالا شريرة أو غير عادلة ثم يثوب إلى رشده فيتحلل من يمينه ،

كما حدث يوم أن غضب على بنى إسرائيل فى الصحراء وأقسم أن يبيدهم ، ثم رجع عن عزمه وتحلل من يمينه بعد أن انقشعت نزوة غضبه .

* * *

بل لقد اعتقدت بعض فرقهم بوجود ابن لله ، واتخذت بعض فرقهم أحبارهم أرباباً من دون الله ، كما يخبر بذلك القرآن الكريم عنهم وعن النصارى إذ يقول : «وقالت اليهود عزير ابن الله» (وهو من تسمية أسفار العهد القديم عزرا Esdras) « وقالت النصارى المسيح ابن الله ؛ ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم » (أى واتخذ النصارى المسيح ابن مريم إلاها كذلك) « وما أمروا إلا ليعبدوا إلاهاً واحداً لا إلاه إلا هو ، سبحانه عما يشركون »[١] .

* * *

هذا ، وقد كانت الديانة اليهودية فى أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما ينبىء بذلك القرآن . ولكن أسفار العهد القديم قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه . — ومن ثم لا نجد من بين فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر على النحو الذى يقرره الإسلام . ففرقة الصادوقيين تنكر قيام الأموات وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المتقين إنما يحصلان فى حياتهم . وفرقة الفريسيين تعتقد أن الصالحين من الأموات سينشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح الذى سيأتى فى آخر الزمن لينقذ الناس من ضلالهم ويدخلهم جميعاً فى ديانة موسى ، أى إن بعث هؤلاء سيحصل فى الحياة الدنيا . فمهما يكن من خلاف بين الفرقتين فإنهما تتفقان فى إنكار اليوم الآخر على النحو الذى يقرره الإسلام .

---

(١) آيتى ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .

وقد ورد فى بعض فقرات فى التلمود ذكر للجنة والنار ، ولكن فى صورة مضطربة أدنى إلى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة . فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوى إليها الأرواح الزكية وأنه لا يدخلها إلا اليهود ، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة التى تقدم ذكرها[1] ، كما يتناولون لحم طير كبير لذيذ الطعم ولحم أوز سمين ، وأن شرابهم فيها نبيذ معتق عصره الله فى اليوم الثانى من الأيام التى خلق فيها العالم ؛ وأن النـــار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين ومن إليهم . — ويظهر أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب فى عقيدتها إلى ما يقرره التلمود فى هذه الفقرات وكانت تفسرها بمدلولها الحقيقى لا بمدلولها المجازى . ويظهر أن القرآن يشير إلى هذه الفرق ويرد عليها إذ يقول: « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » (أى وقالت بعض فرق اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا و بعض فرق النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا) « تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2] .

* * *

وفى هذه الأمور جميعاً دليل آخر على أن أسفارهم هذه كلها من صنع أيديهم وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التى أنزلها الله على موسى نوراً وهدى للناس .

---

(١) انظر صفحة ٢٨.

(٢) آيتى ١١١ ، ١١٢ من سورة البقرة .

— ١١ —

الشريعة فى أسفار اليهود

وقيامها على التفرقة العنصرية وعدم وحدتها واضطرابها

تضمنت أسفار العهد القديم والتلمود تنظيما كاملا لشئون الدين والدنيا معاً . فلم تغادر أى ناحية من نواحى العبادات وشئون المعاملات والسياسة والاقتصاد والأسرة والقضاء والتربية والأخلاق والحرب والعلاقات الدولية وواجبات الفرد نحو نفسه وأسرته ووطنه ... وما إلى ذلك ، لم تغادر أية ناحية من هذه النواحى وغيرها إلا وضعت لها حدوداً وقواعد و بينت ما ينبغى أن تكون عليه ، وما يجب اتخاذه فى حالة الخروج عليها ، حتى شئون الأكل والشرب ، والعلاقات الخاصة بين الرجل وزوجه ، والحيض والنفاس والزراعة والحصادواستخدام الأنعام فى الحرث . غير أنه يلاحظ فى هذه الشريعة كثيراً من مظاهر الانحراف والتضارب واختلاط المسائل :

(أولا) أما انحرافها فيتمثل فى قيامها على التفرقة العنصرية . وذلك أنها تجعل اليهود الشعب المختار الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين ، وتنظر إلى ماعداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة فى سلم الإنسانية ، وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس ، فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفى كثير من شئون الاجتماع . فمن ذلك مثلا أن الإسرائيليين محرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ؛ على حين أنه مباح للإسرائيليين ، بل واجب عليهم غزو الشعوب الأخرى ، وخاصة شعب كنعان ، وواجب عليهم بعد انتصارهم على بلد ما أن « يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف » فلا يبقوا على أحد منهم ، و يسترقوا جميع نسائها وأطفالها ، و يستولوا على جميع مافيها

من مال وعقار ومتاع ، أو ينهبوه نهباً حسب تعبير أسفارهم[1] . — ومن ذلك أن الإسرائيلى إذا باع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه الإسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته إلى المال ، فإن رقه يكون موقوتاً بأجل يرجع بعده إلى حريته ؛ على حين أن الرق المضروب على غير الإسرائيلى يظل أبد الآبدين[2] . — ومن ذلك أنه ما كان يجوز للإسرائيلى أن يتعامل بالربا مع أخيه الإسرائيلى ولا أن يأخذ منه رهناً بدينه، وإذا أخذ منه فى الصباح رهناً من المتاع الذى لا يستغنى عنه فى حياته اليومية كالرحا وما إليها وجب أن يرده إليه فى المساء ؛ أما غير الإسرائيلى فمباح للاسرائيلى أن يمتصه ويتعامل معه بأشنع أنواع الربا الفاحش[3] .

بل إن أسفارهم تقرر أن شعب كنعان قد كتب عليه فى الأزل أن يكون رقيقاً لبنى إسرائيل وأنه لا ينبغى أن يكون لأفراد هذا الشعب وظيفة ما فى الحياة غير هذه الوظيفة، فإن تمردوا عليها أو طمحوا إلى الحرية وجب على بنى إسرائيل أن يردوهم إليها بحد السيف . وتقرر أسفارهم أن هذا الوضع قد فرض عليهم لدعوة دعاها نوح على كنعان ونسله. وذلك أن نوحاً — حسب ما يزعمه سفر التكوين — قد شرب مرة نبيذ العنب الذى غرس كرمه بيده بعد الطوفان بدون أن يعلم خاصته المسكرة ، ففقد وعيه وانكشفت سوأته ، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه ، وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافث . ولكن هذين كانا أكثر أدباً منه ، فحملا رداء وسارا به القهقرى نحو أبيهما حتى لا يقع نظرهما على عورته ، وسترا به ما انكشف من جسمه ، فلما أفاق نوح وبلغه ما كان من

---

(١) فقرتى ١٣ ، ١٤ من إصحاح ٢٠ من سفر التثنية .

(٢) فقرات ١٠ ، ٣٩—٤٧ ، إصحاح ٢٥ من سفر اللاويين ؛ فقرة ١٢ إصحاح ١٥ من التثنية ، فقرات ٢ ، ٧—١١ إصحاح ٢١ من الخروج .

(٣) فقرة ٣ إصحاح ١٥ وفقرة ٢٠ إصحاح ٢٣ من التثنية .

موقف أولاده حياله ، لعن كنعان بن حام ودعا على نسله أن يكونوا عبيداً لعبيد أولاد سام و يافث[١] .

(ثانياً) وأما عدم وحدتها فذلك أن أحـكام أسفارها يتضارب بعضها مع بعض فى كثير من الشئون . فقد يقرر سفر فى حادث ما حكما و يجىء سفر آخر فيقرر فى الحادث نفسه حكما آخر . فمن ذلك مثلا أن سفرى الخروج والتثنية يقرران أن الإسرائيلى الذى يبيع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه الأسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته إلى المال لا يدوم رقه إلا ست سنين[٢]،على حين أن سفراللاويين يقرر أن رقه لا ينتهى إلا بحلول اليوبيل الإسرائيلى(وهو العيد الذى يجىء كل خمسين سنة) أيًّا كانت المدة التى قضاها فى الرق قبل ذلك[٣] ؛ فيمكن بحسب هذا السفر أن يدوم رقه خمسين سنة إلا يوماً أو أياما إذا استرق عقب العيد الخمسينى مباشرة . — ومن ذلك أيضاً أن توراتهم المزعومة تبيح للاسرائيلى ، رجلا كان أو امرأة ، أن يبيع نفسه لأخيه الإسرائيلى فى الحالة السابق ذكرها؛ وفى ذلك يقول سفر التثنية : « إذا باعك نفسه أحد من إخوانك ، سواء أكان رجلا أم امرأة ، فإنه يخدمك ست سنين ... »[٤] ، على حين أن أسفار التلمود لا تجيز ذلك إلا للرجل وحده[٥].

* * *

وفى هذين المظهرين اللتين تتسم بهما شريعة اليهود دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم ، وعلى أن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم

(١) فقرات ٣٠—٢٩ إصحاح ٩ من التكوين .
(٢) فقرة ٢ إصحاح ٢١ من الخروج ، وفقرة ٢ إصحاح ١٥ من التثنية .
(٣) فقرة ٤٠ إصحاح ٢٥ من اللاويين .
(٤) فقرة ١٢ إصحاح ١٥ من سفر التثنية .
(٥) **V. Mekhilta sur Exod XXI, 7 ; Maïmonide I.c.I, 2 : Zadok Kahn: l'Esclavage dans la Bible et le Talmud.**

التي كانوا يسيرون عليها في العصر الذي ألف فيه، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى. فإن كتابا من عند الله لاتتضارب أحكامه بعضها مع بعض: «أفلا يتدبرون القرآن؛ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»[1]؛ وإن شريعة من عند الله لا تقر التفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»[2]؛ «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، إلا بالتقوى»[3].

* * *

(ثالثا) وبجانب هذين المظهرين يلاحظ أن بعض شرائع العهد القديم تحمل في طيها دليلا على اضطراب الحقائق في أذهان محرريها، واختلاطها بعضها ببعض، ونسيانهم حظا كبيرا منها، وغفلتهم عن أصولها. فمن ذلك مثلا ما يذكره سفر التثنية في صدد القسامة إذ يقول: «إذا وجد في بلد من البلاد التي منحكم ربكم السيطرة عليها رجل قتيل ملقاة جثته في وسط حقل، ولم يمكن الاهتداء إلى معرفة قاتله، فإن كبراءكم وقضاتكم يذهبون فيقيسون المسافات بين الجثة والبلاد القريبة منها، وعندما يصلون إلى تعيين أقرب هذه البلاد مسافة إلى الجثة يستدعون كبراءها ويطلبون إليهم أن يحضروا عجلة (بقرة صغيرة) لم تستخدم بعد في عمل ما ولم تحمل بعد سكة المحراث (أي بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك؛ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث). ويذهبوا بها إلى جدول لا تجف مياهه وفي منطقة غير ذات زرع ولا بذور ملقاة

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء.

(٢) آية ١٣ من سورة الحجرات.

(٣) حديث شريف من خطبته عليه السلام في حجة الوداع.

فى الأرض ، و ينحروها من قفاها (مؤخرة عنقها) فى هذا الجدول ... وحينئذ يتقدم المشرفون على الضحايا من اللاويين (قبيلة اللاويين هم أبناء لاوى أوليفى أحد أبناء يعقوب كما تقدمت الإشارة إلى ذلك) وهم الذين اختارهم الرب لخدمته ولنشر البركة والرحمة باسمه ، وهم وحدهم الذين يحكمون فى قضايا الجنايات والجروح ، فيطلبون إلى كبراء هذه المدينة أن يغسلوا أيديهم فوق العجلة التى نحرت من قفاها فى الجدول ، و يقسمون أن أيديهم لم ترق دم القتيل وأن أعينهم لم تره وهو يراق (أى يحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا) . . . و بذلك لا يحتمل بنو إسرائيل تبعة هذا الدم ...»[1] .

و يلاحظ أن الشريعة الإسلامية تقرر كذلك أنه إذا وجد قتيل لا يعلم قاتله أجريت القسامة على أهل البلدة التى وجد فى طرقها أو بالقرب منها ، وأنه إذا وجدت جثته بين بلدين أجريت القسامة على أقربهما مسافة من مكان جثته . والقسامة فى الإسلام أن يستحلف ولى الدم خمسين رجلا يتخيرهم من أهل البلدة فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا ، فحينئذ يسقط القصاص ، ولكن تجب الدية على أهل البلدة جميعا ، يدفعونها متضامنين لأسرته[2] .

فإذا استعرضنا فى ضوء هذه الحقائق ، ما ذكره سفر التثنية عن إجراءات القسامة ووازنا بينه و بين ما تقرره الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد ، يظهر لنا ما يلى :

١ — يتفق سفر التثنية مع الشريعة الإسلامية فى إجراء القسامة على أقرب بلد إلى جثة القتيل وفى اختيار طائفة من أهل البلد ليحلفوا أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا حتى يسقط عنهم القصاص . — واتفاق سفر التثنية مع الشريعة الإسلامية

---

(١) فقرات ١—٩ من إصحاح ٢١ من التثنية .

(٢) انظر تفاصيل أحكام القسامة فى كتب الفقه الإسلامى وفى كتابنا عن « المسئولية والجزاء » الطبعة الثالثة ، صفحتى ٧٢ ، ٧٣ .

فى هذه الأمور يجعلنا نرجح أن محررى هذا السفر قد استمدوا هذه الأحكام فى جملتها من توراتهم الصحيحة ، وأن الله تعالى قد شرع للمسلمين فى صددها ما سبق أن شرع مثله أو قريبا منه لليهود ، أى أنها من الأمور المشتركة بين الشريعتين والتى ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم إذ يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى . . . »[1] .

٢ — ولكننا نجد فى سفر التثنية بجانب الأمور السابق ذكرها إجراء غريبا قد أقحم إقحاما على إجراءات القسامة ، وهو الخاص بالعجلة التى يحضرها كبراء البلد وينحرونها من قفاها فى جدول ، ويغسلون أيديهم فوقها مقسمين أنهم لم يقتلوا القتيل ولم يعلموا له قاتلا . ويزيد من غرابة هذا الإجراء أنه لا يصلح أن يكون حتى مجرد رمز للحقيقة التى يريد أهل البلد أن يقرروها وهى براءتهم من دم القتيل ، لأن غسل أيديهم فى جدول ملوث بدماء العجلة التى نحروها بأيديهم وصب الماء فوق هذه العجلة كل ذلك لا يصلح أن يكون رمزاً لبراءتهم من جريمة القتل ، بل إنه لخليق أن يكون رمزاً لاقترافهم إياها .

٣ — وقد ورد لهذه البقرة ذكر فى القرآن ، ولكن فى صورة أخرى . وفى حادثة قتل خاصة حدثت فى عهد موسى ولم يعلم فاعلها ، وكانت البقرة عنصراً من معجزة أظهرها الله على يديه . وبيان ذلك ما ذكره الله تعالى فى سورة البقرة إذ يقول : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ؛ قالوا أتتخذنا هزوا ؟! قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؛ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ؛ فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؛ قال إنه يقول إنها بقرة

---

(١) آية ١٣ من سورة الشورى .

صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؛ إن البقر تشابه علينا ؛ وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لا شية فيها ؛ قالوا الآن جئت بالحق ؛ فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذا قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها ؛ كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

وأشهر تفسير من تفاسير هذه الآيات وأصحها جميعاً أنه قد وقعت فى عهد موسى عليه السلام حادثة قتل لم يعلم فاعلها ، فطلب بنو إسرائيل إلى موسى أن يدعو ربه أن ينبئهم عمن ارتكب هذا الجرم . فقال لهم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . فعجبوا لذلك إذ لم تظهر لهم علاقة بين ذبح البقرة والكشف عن القاتل ، وظنوا أن موسى يهزأ بهم . ولكن موسى بيّن لهم أن هذا هو ما أمر الله به لإظهار الحق فى هذ الحادث . فأخذوا يستفسرون منه عن سن البقرة التى ينبغى أن يذبحوها وعن لونها وعن عملها . فلما شرح لهم ذلك كله بوحى من من الله بحثوا حتى وجدوا بقرة تتوافر فيها هذه الصفات جميعاً فذبحوها . وأوحى الله إلى موسى أن يضربوا جثة القتيل بجزء من هذه البقرة ، فضربوها به ، فأحياه الله تعالى وذكر لهم اسم قاتله ، ثم مات ثانياً . فكان فى ذلك معجزة لموسى من جهة ، و بيان حسى من جهة أخرى لقدرة الله تعالى على إحياء الموتى وهو الأمر الذى كان يرتاب فيه بنو إسرائيل . ولذلك يختتم الله تعالى هذه القصة بقوله : « كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » . وفيه كذلك إشارة إلى أن بعث الله تعالى الحياة فى ميت لا يتوقف على سبب من الأسباب التى تدركها عقولهم ، وإنما أمر الله إذا أراد ذلك أن يقول له كن فيكون ، فيحدث بدون سبب ما أو يجىء عقب أمر لا يتصور العقل أن يكون سبباً له ؛ وذلك أن العقل لا يتصور أن ضرب جثة الميت بجزء من جثة ميت آخر يمكن أن يكون سبباً لبعث الحياة فيه .

٤ — ويلاحظ أن أوصاف البقرة التى ذكرها الله فى هذه المعجزة تتفق فى جملتها مع أوصاف العجلة التى ذكرها سفر التثنية فى إجراءات القسامة ، وأن ذبح البقرة التى يذكرها القرآن كان فى حادث قتل معين لم يعلم مقترفه ، وذبح العجلة التى يذكرها سفر التثنية يجب إجراؤه ، بحسب نصوصه ، كلما وجد قتيل لم يعرف قاتله .

٥ — فيظهر أن الأمر قد اختلط على محررى سفر التثنية فخلطوا بين ماجاء فى التوراة أو فى أثر آخر من آثارهم خاصاً بالمعجزة التى حدثت على يد موسى وما جاء فيها خاصا بإجراءات القسامة العادية ، وجعلوا ذبح العجلة جزءاً من هذه الإجراءات ، مع أنه غريب عنها كل الغرابة ، ولا يصلح أن يكون حتى مجرد رمز للحقيقة التى يراد تقريرها ؛ بل إنه لخليق أن يكون رمزاً لنقيضها كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

وصدق الله العظيم إذ يقول فى صدد اليهود : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به »(١) .

— ١٢ —

القصص فى أسفار اليهود

والفرق بينه وبين قصص القرآن الكريم

عرضت أسفار اليهود لتاريخ العالم من يوم نشأته إلى قبيل بعثة المسيح — فتكلمت بإجمال على خلق السماوات والأرض وخلق آدم وحواء وتاريخهما فى الجنة وبعد هبوطهما منها وما حدث لنسلهما بعد ذلك ، وقصة نوح والطوفان ،

(١) آية ١٣ من سورة المائدة .

وقصة أولاده الثلاثة سام وحام ويافث ، وعرضت بشىء من التفصيل لتاريخ نسل سام ، وهم الذين ينتمى إليهم بنو إسرائيل، وخاصة تاريخ إبراهيم واسحاق ويعقوب أو إسرائيل ، ثم تناولت بتفصيل كبير تاريخ بنى إسرائيل فى مختلف مراحل حياتهم فى مصر وسيناء وبعد استقرارهم فى الأرض المقدسة ، وتاريخ من تولى شئونهم الدينية والسياسية من قضاة وملوك ولاويين وأحبار وربانيين ، ومن بعث فيهم من رسل وأنبياء ، وعلاقاتهم بالشعوب الأخرى ، وما جرى بينهم وبين هذه الشعوب من اشتباكات وحروب أو موادة ووفاق . . . وهلم جرا . — وقد استغرق هذا القصص أكبر قسم من أسفار العهد القديم وقسما غير يسير من أسفار التلمود نفسها .

وقد عرض القرآن لكثير من القصص التى ورد ذكرها فى هذه الأسفار . غير أن أسفار اليهود قد تناولت كل قصة من هذه القصص فى صورة مسلسلة كاملة الأجزاء مترابطة الحوادث كما تفعل كتب التاريخ، وتناولتها لغرض تاريخى بحت ؛ على حين أن القرآن يكتفى بذكر مواقف من هذه القصص ، ولا يذكرها للتاريخ فى ذاته ، وإنما يذكرها على الأخص للعظة والذكرى ، ويذكرها بحسب المناسبات . فقد يذكر موقفاً من قصة ما لمناسبة خاصة ثم يذكر موقفاً آخر من القصة نفسها فى سورة أخرى لمناسبة أخرى ، وموقفاً ثالثاً من القصة نفسها فى سورة ثالثة . . . وهكذا . وقد يعرض لعدة مواقف من قصة واحدة فى سورة واحدة ويفصل بين كل موقف وآخر بفواصل طويلة أو قصيرة . وقد يكرر الموقف نفسه فى عدة سور لتكرر المناسبة ؛ ولكن فى لوحات بيانية مختلفة فى صياغتها وألوان مناظرها ومتسقة مع ما يكتنفها من قبلها ومن بعدها من آى الذكر الحكيم .

هذا، وقد انتاب القصص فى أسفار اليهود تحريف كبير عن الوضع الصحيح الذى ورد فى القرآن . ويبدو تحريفها هذا فى مواطن كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلى :

١ — أن الذات العلية تبدو فى أسفار توراتهم المزعومة ، و بخاصة فى القديم منها كسفر التكوين ، وفى بعض أسفار التلمود ، صورة مجسمة متصفة بكثير من صفات الحوادث، بل بكثير من صفات النقص، وغير مختلفة اختلافاً كبيراً عن الخلق فى طبيعتها ومسلكها ، على النحو الذى بيناه فى الفقرة العاشرة من هذا الفصل .

٢ — أن بعض من يذكر لنا القرآن أنهم رسل أو أنبياء تذكرهم أسفار اليهود على أنهم مجرد آباء قدامى Patriarches كإبراهيم و إسحاق و يعقوب أو على أنهم مجرد ملوك كداود وسليمان .

٣ — أن أسفارهم تنسب لبعض الأنبياء ، أو لبعض من تسميهم آباء لبنى إسرائيل أو ملوكا لدولهم ، أعمالا قبيحة تتنافى مع وضعهم الدينى والاجتماعى ، بل تتعارض مع الخلق الكريم فى ذاته ، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس .

فمن ذلك مثلا ما تقصه توراتهم المزعومة عن إبراهيم حينما هاجر هو وزوجه سارة إلى مصر على أثر ما أصاب بلاده من جدب ومجاعة ، إذ تذكر أن إبراهيم قال لزوجته وهما فى طريقهما إلى مصر إنها امرأة جميلة وإن المصريين لا بدّ أن يفتتنوا بها ، وإذا علموا أنها متزوجة فسيقتلون زوجها لتخلص لهم بعد ذلك ، واتفق معها على أن يتظاهرا بأنها أخته حتى تسلم له حياته ، بل يناله حينئذ من المصريين خير كثير . ولما وصلا إلى مصر ، ووقع نظر طائفة من كبار رجال الحاشية الملكية على هذه المرأة الجميلة وعلموا من إبراهيم أنها ليست متزوجة وأنها أخته ،

وأنهوا أوصافها إلى فرعون ، استدعاها إلى قصره واتخذها من نسائه ، وبالغ فى إكرام إبراهيم والحفاوة به والإحسان إليه من أجل ذلك . ووهب له قطعاناً « من الغنم والثيران والحمير » وعدداً من العبيد والإماء . ولكن أصيب الملك وحاشيته عقب ذلك بوباء مما تصاب به الجماعة عادة إذا ارتكبت فيهم فاحشة من هذا القبيل . فاستدعى الملك إبراهيم وأنّبه تأنيباً شديداً لكذبه فى قرابة سارة منه وما ترتب على كذبه هذا من معاملته لها كإحدى نسائه مع أنها فى عصمة رجل آخر ، وما أصابه هو وقومه من جراء ذلك من وباء ، ثم أصدر أوامره بطرده هو وامرأته من بلاده . — ولكن تحقق لإبراهيم ما كان يبغيه من عافية ومال : فقد سلمت له حياته ؛ وسمح له فرعون بأن يحمل معه جميع ما سبق أن وهبه له من أنعام وعبيد و إماء (١) . — وقد كرر إبراهيم فعلته هذه — حسب مايزعمه سفر التكوين — حينما هاجر إلى منطقة جيرار ، وكاد أبو ملك Abimelec حاكم جيرار يرتكب الإثم مع سارة لولا أن أظهره الله فى المنام على حقيقتها وأنها امرأة إبراهيم لا أخته وعاتبه على كذبه ، ونفحه كذلك بهبة من النعاج والثيران والعبيد والإماء (٢) . — فكأنما كان إبراهيم يتاجر بامرأته هذه متنقلا بها من بلد إلى بلد .

ومن ذلك أيضاً ما تقصه توراتهم المزعومة عن لوط وابنتيه ، إذ تذكر أنه لم ينج من أهل قريتى سودوم وجوموره اللتين دمرهما الله تعالى لما كان يرتكبه أهلهما من إتيان الذكران إلا لوط وابنتاه ، وقد أقام ثلاثتهم عقب ذلك فى غار فى جبل مرتفع ، وحينئذ قالت كبراهما لصغراهما : «إن أبانا قد أصبح شيخاً كبيراً وليس فى هذا المكان القفر رجال يتصلون بنا على النحو الذى يفعله ذكور الناس مع إناثهم . وإذا بقى الأمر على هذه الحال فسينقرض نسل أبينا بعد وفاته

---

(١) فقرات ١٠ — ٢٠ من الإصحاح ١٢ من سفر التكوين .

(٢) إصحاح ٢٠ من سفر التكوين .

ووفاتنا . وخير وسيلة لاتقاء هذه العاقبة هي أن نسقى أبانا خمراً حتى يفقد وعيه ويتصل بنا فنأتى منه بذرية تخلد نسله » وأنفذتا ما اتفقتا عليه . وقضت معه الكبرى الليلة الأولى والصغرى الليلة التالية ، وواقع لوط كلتيهما ، وهو فى نشوة سكره ، فحملتا منه ، وجاءت الكبرى بغلام اسمته مؤاب ، وجاءت الصغرى بغلام أسمته عمون ، ومن هذين الغلامين تفرع شعبان كبيران هما شعب المؤابيين وشعب العمونيين (١) .

ومن ذلك أيضاً ما يقصه السفر الثانى من سفرى صموئيل عن داود عليه السلام إذ يذكر أن داود كان يمشى فى صباح يوم على سطح قصره الملكى ، فوقع بصره فى المنزل المجاور له على امرأة مفرطة الجمال وهى تستحم متجردة من جميع ثيابها ، فشغف بها حباً ، وسأل عنها ، فأخبر أنها زوجة أوريا الحثى Urie le Héthien ، أحد الجنود المرسلين فى حملة حربية تحت قيادة يؤاب Joab فبعث داود فى طلبها ، فجىء بها إليه . وبعد أن قضى منها وطره عادت إلى منزلها وقد حملت منه . فعملت على أن يقف داود على خبر حملها منه . فاستدعى داود زوجها من الجيش وأخذ يسأله عن حالة الحملة وقائدها وأعمالها ، ونفحه ببعض الهدايا ، وطلب إليه أن يذهب إلى منزله ليستريح هذه الليلة . وكان داود يرمى من وراء ذلك أن يقرب الرجل زوجته ، فينسب حملها إليه ؛ ولاتعلق بداود أية شبهة . ولكن الرجل أبت عليه شهامته ووطنيته أن ينعم بالراحة واللذة فى بيته بينما جيش بلاده مشتبك فى معركة مع الأعداء . فلم يذهب إلى بيته وإنما قضى ليلته نائماً مع خدم القصر الملكى . ولما علم داود بذلك استدعاه مرة ثانية وسأله عن سبب إحجامه عن الذهاب لبيته ، فأجابه بأن نفسه لم تطاوعه بأن ينام فى بيته وجيشه يحارب فى خارج بلاده : فطلب إليه أن يبقى يوماً آخر ، ودعاه إلى الطعام والشراب ،

---

(١) فقرات ٣٠ — ٣٩ من الإصحاح ١٩ من سفر التكوين .

وحرص على أن يسكره حتى يفقد وعيه ويذهب إلى زوجه . ولكن أوريا لم يفقد رشده . فقضى ليلته هذه كما قضى ليلته السابقة نائماً مع خدم داود فى القصر الملكى . ولما ضاق داود به ذرعاً ، ولم تفلح معه حيلته ، أمر برجوعه إلى الجبهة ، وأرسل إلى يؤاب قائد جيشه أن يضع أوريا فى أخطر منطقة فى ميدان القتال وأن يتخلى عنه حتى يقتل . فصدع يؤاب بالأمر ، وقتل أوريا فى الميدان . وحينئذ أتيح لداود أن يضم زوجته إلى نسائه بعد أن انقضى حدادها على زوجها ، ووضعت حملها وهى فى عصمة داود، وخفى بذلك على جميع الناس ما ارتكبه داود من جرائم خسيسة، إذ زنى بامرأة متزوجة وعمل على قتل زوجها الشجاع وهو يذود عن حياض بلاده ، مع أنه كانت له زوجات وجوار كثيرات . فأرسل الله إليه ناثان Nathan وقص عليه قصة رجلين يملك أحدهما قطعاناً كبيرة العدد من الأبقار والنعاج ، بينما لا يملك الآخر إلا نعجة واحدة . وفى أحد الأيام قدم ضيف على الغنى ؛ فمد يده إلى نعجة الفقير واغتصبها منه وذبحها لضيفه . فغضب داود من فعلة هذا الغنى ؛ وقال لناثان إن هذا الرجل يستحق الموت . فقال له ناثان إنك أنت نفسك هذا الرجل . وأخذ يؤنبه ويتوعده بما سيحيق به و بأهله من عذاب ونكال . فاعترف داود بذنبه ، واستغفر ربه ، وتاب إليه ، فغفر له . . . إلى آخر ماورد فى هذا السفر [1] .

والقصة على هذا الوضع محض افتراء ولا يتصور صدور وقائعها من رجل عادى ذى خلق ، فضلا عن نبي كريم .

ومن ثم أخطأ بعض المفسرين خطأ كبيرا ، إذ فسروا ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة ص [2] عن داود والخصمين اللذين اختصما إليه على النحو

(١) الإصحاحين ١١ ، ١٢ من السفر الثانى من سفرى صموئيل .
(٢) آيات ٢١ — ٢٥ من سورة ص .

الذى ورد فى سفر صموئيل ، مع أن العبارات التى ذكرت بها القصة فى القرآن الكريم لا تدل صراحة على شىء من ذلك . ولذلك كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « من حدّث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » ، يقصد بذلك أن من يتحدث هذا الحديث فإنه يرتكب جريمة القذف . وحد القذف العادى فى الإسلام ثمانون جلدة ؛ ولكن إذا تناول القذف نبيا كريما كان مرتكبه خليقا بأن يضاعف له هذا الحد ضعفين .

بل لقد أورد سفر الخروج ، وهو أحد أسفار توراتهم المزعومة ، قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل الذهبى فى صورة غريبة تدل على أن محررى هذه الأسفار لا يرعون لأنبيائهم حرمة ، ولا يرجون لهم وقارا ، ولا يتورعون عن أن ينسبوا إليهم أية نقيصة ، حتى خيانة الرسالة نفسها التى بعثوا من أجلها ، ودفع قومهم إلى الشرك بالله . فقد نسب هذا السفر إلى هارون نفسه عليه السلام أنه قد يسّر لبنى إسرائيل سبيل الشرك ، ودفعهم إلى الوثنية وعبادة الحيوان والأصنام ، فصنع لهم بيديه فى سيناء عجلا من ذهب ليعبدوه من دون الله . فذكر فى إصحاحه الثانى والثلاثين أن موسى لما غادر قومه لتلقى الألواح من ربه ، وطال أمد غيابه عنهم ، طلبوا إلى هارون أن يصنع لهم إلاها تدركه أبصارهم ، لأنهم لا يعلمون ما انتهى إليه أمر موسى ، ولا يدركون الإلاه الذى يحدثهم عنه . فطلب إليهم هرون أن يحضروا له جميع أقراط الذهب المدلاة من آذان نسائهم وبناتهم وبنيهم ؛ فجمعوا هذه الحلى ، فصهرها بنفسه ، وصنع منها عجلا ذهبا ليتخذوه إلاها ، فخر بنو إسرائيل سجّدا له ، وقدموا له القرابين ، وقالوا هذا إله إسرائيل الذى أخرجهم من مصر وأنقذهم من شقائها(١) .

---

(١) إصحاح ٣٢ من سفر الخروج .

وقد أشار القرآن الكريم إلى قصة هذا العجل إشارة مجملة فى عدة آيات منها قوله تعالى : «ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين»[١]. وذكر القرآن تفاصيل هذه القصة فى سورتى الأعراف وطه مبينا كذب ما نسبه محررو سفر الخروج إلى هارون، فقرر أن الذى قام بصنع هذا العجل وأغراهم بعبادته وفتنهم عن دينهم فى أثناء غياب موسى لتلقى الألواح من ربه رجل سامرى، أى منسوب إلى طائفة يقال لها السامرة، وهى جماعة من غير بنى إسرائيل اعتنقت اليهودية وامتزجت بالإسرائيليين، وكان الإسرائيليون ينظرون إلى أفرادها على أنهم أحط منهم كثيرا قدرا ومنزلة، أو يرجع أصله إلى إقليم السامرة، وهو أحد أقاليم فلسطين، وأن هارون لم يأل جهدا فى نهيهم عن ضلالهم والعمل على رجعهم إلى دينهم الحق، ولكنهم لم يستمعوا إليه، وأن كل ما أخذه موسى على هارون أنه لم يتركهم ويلحق به ليبلغه ما انتهوا إليه، أو لم يقاتلهم بمن عسى أن يكون معه، وأن هارون قد برر موقفه بأنه خشى إذا فعل ذلك أن يفرق بين بنى إسرائيل ويضرب بعضهم ببعض؛ وذلك إذ يقول فى سورة طه : « فكذلك ألقى السامرى. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار» (أى من الحلى التى أشار إليها فى الآية السابقة، وهى الحلى التى أهداها إليهم المصريون قبل خروجهم والتى اختلسوها منهم، وقد صهرها السامرى على صورة عجل بداخل فمه تجاويف إذا مر فيها الهواء أحدث صوتا كصوت الخوار) «فقالوا هذا إلاهكم وإلاه موسى فنسى. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا. ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعونى وأطيعوا أمرى. قالوا لن

(١) آيتى ٩٢، ٩٣ من سورة البقرة.

نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هرون ما منعك اذا رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ ! »(أى أن تتركهم وتلحق بى لتنهى إلىّ أمرهم ، أو أن تقاتلهم بمن عسى أن يكون معك) « أفعصيت أمرى ؟! قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى؛إنى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى[1]؟ »؛ و إذ يقول فى سورة الأعراف : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ؟ ! اتخذوه وكانوا ظالمين. ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟! ، وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ؛ قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ؛ فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين »[2] .

وأما قصة طلبهم من نبيهم أن يجعل لهم إلاهاً يحسونه ، والتى ذكرها سفر الخروج فى حادث العجل زاعماً أنهم قد طلبوا ذلك إلى هرون ، وأن هارون قد أذعن لرغبتهم الآثمة ، فقد ذكرها القرآن الكريم على وجهها الصحيح ، فقرر أن الطلب كان موجها إلى موسى نفسه لا إلى هرون ، وأن موسى قد نهرهم و بين لهم ضلالهم وسخافة تفكيرهم وسوء فهمهم لذات الإلاه،وذلك إذ يقول: « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا

---

(١) آيات ٨٣ — ٩٨ من سورة طه .

(٢) آيات ١٤٨ — ١٥٢ من سورة الأعراف .

يا موسى اجعل لنا إلاها كما لهم آلهة ؛ قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبّر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون. قال أغيرَ الله أبغيكم إلاها ، وهوفضلكم على العالمين ؟! »[١].

٤ — أن التحريف قد يتناول قصة ما لتبرير وضع اجتماعى أو سياسى ظالم سار عليه بنو إسرائيل فى مرحلة ما من مراحل تاريخهم .

فمن ذلك أن قصة نوح مع ابنه التى حدثنا عنها القرآن إذ يقول : « ونادى نوح ابنه، وكان فى معزل ، يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ؛ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ؛ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين[٢] » ، قد حرّفها سفر التكوين تحريفا كبيراً إذ يذكر أن حاما بن نوح قد رأى أباه وهو سكران مكشوف العورة ، فسخر منه ، فلما أفاق نوح من سكره ، وعلم ما كان من ابنه حام ، دعا على ذريته وهم الكنعانيون بأن يكونوا عبيداً لعبيد أبناء ولديه الآخرين سام ويافث[٣] . — ويقصد الذين حرفوا هذه القصة إلى هذا الوضع الغريب ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، أن يبرروا الأوضاع الشاذة الظالمة التى كان يسير عليها بنو إسرائيل حيال الكنعانيين إذ يقتلون رجالهم ويسبون نساءهم وأطفالهم ويتخذون منهم عبيداً وإماء ، زاعمين أنهم بذلك يحققون دعوة نوح عليهم ويرجعونهم إلى الوضع الذى كتب عليهم فى الأزل أن يكونوا عليه .

* * *

ومن أسف أنه مع هذا الخلاف الجوهرى الكبير بين قصص القرآن

---

(١) آيات ١٣٨ — ١٤٠ من سورة الأعراف .

(٢) آيتى ٤٢ ، ٤٣ من سورة هود .

(٣) فقرات ٢٠ — ٢٩ إصحاح ٩ من سفر التكوين . وقد ذكرنا هذه القصة بتفصيل فى الفقرة الحادية عشرة من هذا الفصل لبيان أن شريعتهم تقوم على التفرقة العنصرية .

وقصص أسفارهم وتوراتهم المزعومة ، و بين نور الحق فيما جاء به الكتاب الكريم وظلمات الباطل والزيف والتحريف فيما جاءت به أسفارهم ، لا ينفك كثير من المستشرقين ومن يدور فى فلكهم يزعمون أن محمداً قد نقل قصصه من قصص اليهود : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » ، وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين[1] » ؛ و إذ يقول : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»[2] .

— ١٣ —

فرق اليهود

انقسم اليهود إلى فرق كثيرة تدعى كل فرقة منها أنها أمثل طريقة وأشد تمسكا بأصول الدين اليهودى و بأسفاره من الفرق الأخرى . وقد بقى من هذه الفرق فى العصور الأخيرة السابقة للميلاد ثلاث فرق : فرقة «الصادوقيين Saducéens » ؛ وفرقة « الفريسيين Pharisiens » ؛ وفرقة «الحسديين »(من كلمة «حسديم » العبرية بمعنى المشفقين ، وقد يطلق عليهم اسم «الإسينيين» أو «الآزيين» Esseniens).

والفرقتان الأوليان فرقتان قديمتان، والخلاف بينهما خلاف يسير يتعلق بتفاصيل ليست ذات بال ، كخلافهما فى البعث ، إذ تعتقد فرقة الفريسيين أن الصالحين من الأموات سينشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح الذى سيأتى لينقذ الناس ويدخلهم فى ديانة موسى ، بينما ينكر الصادوقيون قيامة الأموات و يعتقدون أن عقاب العصاة و إثابة المحسنين إنما يحصلان فى حياتهم . فكانتا

(١) آية ١٢٠ من سورة هود .
(٢) آية ١١١ من سورة يوسف .

الفرقتين تنكر إذن اليوم الآخر على النحو الذى يقرره الإسلام ، والخلاف بينهما فى هذا الصدد إنما هو فى بعث يحدث فى الحياة الدنيا .

وأما الفرقة الثالثة وهى فرقة الحسديين ، فهى فرقة حديثة لم تظهر إلا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهى تختلف عن بقية فرق اليهود اختلافاً جوهرياً فى عقائدها وعباداتها ونظمها وتقاليدها .

فمن أهم ما تمتاز به عن بقية فرق اليهود فيما يتعلق بالعبادات أنها تحرم الأضحية والقرابين ؛ مع أن الأضحية والقرابين كانت تعتبر عند الفرق الأخرى من أهم العبادات ، وقد خصص لها قسم كبير من سفر من أسفار توراتهم المزعومة وهو سفر اللاويين .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالشرائع والنظم الإنسانية العامة أنها تنكر التفرقة العنصرية وتقرر مبدأ المساواة بين الناس فى القيمة الإنسانية المشتركة ، وتحرص على التعايش السلمى بين جميع الشعوب . فمن مبادئها العمل على إلغاء الحروب وأن يعيش العالم فى سلام دائم ، ومجانبة الإضرار بالخلق وعدم إيذاء أى إنسان حتى لو كان ذلك لتربيته وتعويده الامتثال والطاعة ، ومراعاة الصدق والأمانة والوفاء بالعهد حيال جميع الناس سواء فى ذلك الإسرائيليون منهم وغير الإسرائيليين ، وتحريم طرائق الكسب غير المشروع وابتزاز الناس واستغلال عوزهم وحاجتهم سواء فى التعامل مع اليهودى أو غير اليهودى ؛ وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت نظمها تقوم على التفرقة العنصرية وتبيح لأفرادها فى علاقاتهم ومعاملاتهم مع غير اليهود ما لا تبيحه فى علاقاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض كما تقدم بيان ذلك[1] .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بمبادىء الحرية أنها تحرم نظام الرق ، وتحظر

---

(١) انظر الفقرة ١١ من هذا الفصل .

أن يملك الإنسان أخاه الإنسان وأن يحرم أى فرد من حريته . وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت نظمها تقوم على الرق . وقد خصص للرق وأحكامه حيز كبير فى أسفارهم(١) .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بنظام الملكية أنها تحرم الملكية الفردية وتوجب أن تكون جميع الملكيات ملكيات جماعية. وقد طبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلى ، وعاشوا جماعات حول شواطىء البحر الميت . فقد ألغوا فيما بينهم نظام الملكية الفردية ، وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكا جماعيا شائعاً يحفظ ما يزيد منه عن الحاجة العاجلة فى مخازن عامة ، و يشرف على شئون إدارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريق الانتخاب العام المباشر ، و يتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه . وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكا جماعياً ، وتركوها فى كل قرية من قراهم مفتحة الأبواب لكل رفيق من جماعتهم ، سواء أكان من أهل القرية أم قادماً من خارجها . وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت تجيز الملكية الفردية الخاصة وتحيطها بسياج من الحماية ؛ وقد خصص لأحكام الملكية الفردية وطرق انتقالها وحقوقها وواجباتها حيز كبير فى أسفارهم(٢) .

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالنشاط الاقتصادى أنها تحرم الاشتغال بالتجارة لما تبعثه فى النفوس من جشع وحرص على جمع المال وجنوح إلى ابتزاز الناس ، كما تحرم صناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب لتنافر الغاية التى تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم وهو أن يعيش الناس فى سلام دائم ، وتحرم استخدام الذهب والفضة والتعامل بهما ، لما يبعثانه فى النفوس من زهو وما يحملان عليه من جشع وشح . ولذلك اقتصرت أعمالهم على الزراعة والصيد وما يحتاجان اليه و يتصل

(١) انظر فى ذلك كتابى عن « قصة الملكية فى العالم » ، الطبعة الثانية ، صفحات ٥٣ — ٦٠ .

(٢) المرجع السابق صفحات ٤٨ — ٦٩ .

بهما من صناعات. وهى فى ذلك تختلف اختلافا جوهريًا عن سائر فرق اليهود، فقد كان من أهم مظاهر النشاط الاقتصادى لهذه الفرق شئون التجارة وصناعة السلاح والتعامل بالذهب والفضة، بل لقد كانت هذه الفرق تنظر إلى هذين المعدنين نظرة تقرب من التقديس.

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بنظام الأسرة أنها تحرم الزواج وتوجب التبتل والبعد عن النساء. وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت ترى أن الزواج واجب دينى لكل قادر عليه وأن من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه لا يقل جرمه عن جرم القاتل، لأن كليهما، على حد تعبيرهم، « يطفىء نور الله، وينتقص ظله فى أرضه، ويبعد رحمته عن إسرائيل»؛ بل لقد رأى بعض فقهائهم أن من يبلغ العشرين وهو أعزب يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج (١).

ومن أهم ما تمتاز به فيما يتعلق بالحياة الفردية أنها تحارب الترف والحياة الناعمة وتدعو إلى الزهد والتقشف والبعد عن جميع متع الجسم وتنظر إلى هذه المتع على أنها شرور.

ومن هذا يظهر أن هذه الفرقة تخالف فى معظم ما تذهب إليه تعاليم العهد القديم والتلمود، على الرغم من أنها تعتبر نفسها ويعتبرها المؤرخون من فرق اليهود. والحقيقة أنه لا يربطها ببقية فرق اليهود إلا رابطة الجنس، لأن أفرادها كانوا من بنى إسرائيل.

ولم تعمر هذه الفرقة طويلا، فقد انقرضت فى أواخر القرن الأول الميلادى، أى أنها لم تعش إلا نحو قرنين أو ثلاثة قرون.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن يوحنا المعمدان (وهو سيدنا يحيى بن زكريا

(١) انظر فى ذلك كتابنا « قصة الزواج والعزوبة فى العالم » صفحات ٦، ٧، ٥٥.

عليهما السلام) كان من هذه الفرقة . ولكن لم يقدم أصحاب هذا الرأى بين يديه دليلا يعتد به .

* * *

هذا ، وقد ظهر حوالى القرن الثامن بعد الميلاد فرقة جديدة من اليهود سمت نفسها فرقة «اليهود القرّائين» وامتازت عن غيرها من الفرق بتمسكها بما جاء فى التوراة وحدها، وعدم اعترافها بأحكام التلمود وتعاليم الحاخامات ، وعدم اعتبارها هذه الأحكام وهذه التعاليم من أصول الشريعة . وقد أسس هذه الفرقة داود عنان ، وهو أحد علماء اليهود فى بغداد .

الفصل الثانى

أسفار الديانة المسيحية

سنمهد لموضوع هذا الفصل بفقرتين : نعرض فى أولاهما لمن يطلق عليهم اسم « الحواريين » أو « الرسل » les apôtres ، وهم الذين ينسب إليهم قسم كبير من أسفار « العهد الجديد » وهى الأسفار المقدسة عند المسيحيين ؛ وفى الثانية لمن يطلق عليهم اسم التلاميذ les Disciples والتابعين ، وهم الذين يلون الحواريين فى منزلتهم ، و إليهم ينسب كذلك بعض أسفار العهد الجديد .

ثم نقف الفقرات التالية على التعريف بهذه الأسفار ، مع تحقيقات تتعلق بتأليفها ، وتاريخه ، واللغات التى ألفت بها والتى ترجمت إليها، وما تشتمل عليه من عقيدة وشريعة وقصص ، ومبلغ الصحة فى نسبتها إلى أصحابها، والأسفار الأخرى غير المعتمدة عند المسيحيين ، والفرق المسيحية وما بينها من خلاف وصلة ذلك بالأسفار ، وموقف الإسلام من جميع هذه الأمور .

— ١ —

الحواريون أو الرسل Les Apôtres

بحسب ما ترويه أسفار الديانة المسيحية

تروى أسفار الديانة المسيحية بشأن الحواريين ما يلى :

اختار المسيح من بين السابقين الأولين من أتباعه ومن أكثرهم ملازمة له اثنى عشر رجــلا كلفهم تبليغ رسالته إلى الخلق ، ومن ثم أطلق عليهم اسم الرسل les Apôtres ، وهم : بطرس كبير الحواريين وأخوه أندراوس و يوحنا

وأخوه يعقوب الكبير ابنا زبدى ويعقوب الصغير ابن حلفى وأخوه يهوذا ومتى وتوماس وفيليبس وبرثولماوس وسمعان النشيط أو الغيور ويهوذا الإسخريوطى —

Pierre et son frère André, Jean et son frère Jacques le majeur fils de Zébédée, Jacques le mineur fils d'Alphée et son frère Jude, Mathieu, Thomas, Phillipe, Barthélemy, Simon le zélé, Juda l'Iscariote.

وقد ظل هؤلاء مخلصين لرسالتهم ، صادقين ما عاهدوا المسيح عليه ، ما عدا يهوذا الإسخريوطى فإنه قد خان المسيح وأرشد الفريسيين والرومان إلى مقره وسهل لهم صلبه وتقاضى منهم أجراً على ذلك . وقد جوزى على فعلته هذه بأن مات شر ميتة ونشر دمه ونشرت أمعاؤه فى مساحة واسعة من الأرض سميت لذلك « حقل الدماء » .

وحينئذ اجتمع نحو مائة وعشرين من كبار المسيحيين تحت رياسة بطرس كبير الحواريين ووقع اختيارهم على اثنين يكمل أحدهما عدة الحواريين الاثنى عشر وهما يوسف برساباس الملقب جوستوس ومتياس Barsabbas appelé Justus et Mthias ثم ضربوا القرعة بينهما فخرج سهم متياس ، فاختير حواريا مكملا للاثنى عشر بدلا من الخائن يهوذا الإسخريوطى [1] .

وقد ظهر المسيح بعد صلبه وقيامته ورفعه إلى السماء فى عمود من نور لرجل يهودى كان من ألد أعداء المسيحية وأشدهم حرباً عليها وعلى أهلها ، فهداه الصراط المستقيم ، وكلفه تبليغ رسالته إلى الأمم وهدايتهم إلى المسيحية ؛ ومن ثم أطلق عليه حوارى المسيح ورسوله إلى الكفار Apôtre des Gentiles [2] ؛ وأصبح من ذلك الحين من أشد أنصار المسيحية ومن أكبر دعاتها ، وأصبح له فى تاريخ المسيحية وعقائدها وشرائعها

(١) انظر « أعمال الرسل » للوقا ١٥ — ٢٦ من الإصحاح الأول .

(٢) انظر الإصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل للوقا .

شأن لم يصل إلى مثله كثير من الحواريين الأولين أنفسهم : ذلك هو الرسول بولس Saint Paul .

ومن بين هؤلاء الرسل ستة تنسب إليهم أسفار فى العهد الجديد، وهم بطرس ويوحنا ومتى ويعقوب الصغير وأخوه يهوذا وبولس . فهو وحدهم ، من بين جميع الحواريين ، الذين يتصلون بموضوع دراستنا . ولذلك سنقدم لكل منهم فيما يلى ترجمة موجزة حسب ما ترويه أسفار المسيحيين :

١ — بطرس Pierre : كان اسمه الأصلى سمعان Simon ، وكانت مهنته صيد الأسماك . وقد دعاه المسيح لمتابعته فآمن به. وسماه المسيح « كيفا » Képha (وهى كلمة آرامية تدل فى هذه اللغة التى كانت لغة الحديث والكتابة فى فلسطين فى عهد المسيح على معنى الحجر أو الصخرة) وقال له أنت الصخرة التى سأبنى عليها كنيستى ، ثم ترجم هذا الاسم إلى اللاتينية فى كلمة معناها الصخرة فى هذه اللغة وهى « بطرس » Petrus . وهو رئيس الحواريين جميعاً وأشدهم ملازمة للمسيح . وقد وقف جهوده على التبشير بالمسيحية فى عهد المسيح ومن بعده فى كثير من البلاد ، فذهب إلى أنطاكية Antioche وغيرها، وانتهى به المطاف فى روما حيث قبض عليه وزج فى السجن وحكم عليه بالإعدام صلبا سنة ٦٧ على الأرجح فى زمن نيرون Néron امبراطور الدولة الرومانية . وقد طلب أن يصلبوه منكسا حتى لا يتشبه بالمسيح . — وإليه يرجع أكبر قسط من الفضل فى نشر المسيحية فى الدولة الرومانية. وهو الذى أنشأ كنيسة روما التى يتولى رياستها بابوات الكنيسة الكاثوليكية، وهم يعتبرون أنفسهم خلفاء بطرس، ولذلك تسمى كنيستهم الكنيسة البطرسية . وإليه تنسب رسالتان من الرسائل السبع التى يسمونها « الرسائل الكاثوليكية » ، وهى إحدى مجموعات « العهد الجديد » ؛ وسنتكلم عليها فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل . وينسب إليه كذلك أنه قد أشرف على تدوين إنجيل مرقص ؛ وهو أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة عند

للمسيحيين والتى سنتكلم عليها فى الفقرة الرابعة من هذا الفصل ، بل إن بعض المؤرخين ليذهب إلى أنه هو الذى ألف هذا الإنجيل ونسبه إلى تلميذه مرقص كما سيأتى بيان ذلك.

٢ — يوحنا Jean : هو كذلك من كبار الحواريين الاثنى عشر ، وكان أبوه زبدى Zébédée من السابقين الأولين إلى المسيحية ومن كبار دعاتها ، وكانت أمه سالومى Salomé قديسة شهيرة ورد ذكرها فى الأناجيل ، وهى قريبة السيدة مريم أم المسيح . وقد جاءت من زبدى بيوحنا وأخيه يعقوب الكبير Jacques le majeur . ويقول التاريخ المسيحى إن المسيح نفسه قد بارك هذين الأخوين لما قدمتهما إليه سالومى ، فوضع أحدهما على فخذه الأيمن والآخر على فخذه الأيسر وباركهما . وتقول كذلك إن يوحنا كان أحب الحواريين إلى المسيح وأقربهم الى قلبه ؛ ومن ثم يطلق عليه اسم الحوارى الحبيب L'Apôtre bien—aimé حتى لقد استودعه المسيح أمه السيدة مريم وهو فوق الصليب . وكانت مهنته صيد الأسماك كمهنة بطرس ، ووقف جهوده بعد اعتناقه المسيحية على نشرها والدعوة لها . وتوفى بين سنتى ٩٨ و ١٠٠ بعد الميلاد . وينسب إليه إنجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين ، وهو آخرها تأليفاً ، وأربعة أسفار أخرى من أسفار العهد الجديد ، وهى ثلاثة رسائل من الرسائل الكاثوليكية والسفر النبوى أو رؤيا يوحنا ، كما سنبين ذلك فى الفقرتين الرابعة والثامنة من هذا الفصل . — أما أخوه يعقوب الكبير فهو كذلك من الحواريين الاثنى عشر ، ولكن لا ينسب إليه أى سفر فى العهد الجديد ، وقد استشهد سنة ٤٤ ميلادية على الأرجح .

٣ — متى Mathieu : هو كذلك أحد الحواريين الاثنى عشر . وكان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب للرومان فى كفر ناحوم من أعمال الجليل

بفلسطين . وكان اليهود يزدرون الجباة و يزدرون مهنتهم لما كانت تنطوى عليه من أعمال الظلم والعنف ، ولأنهم كانوا مسخرين للدولة الرومانية التى تستعمر البلاد وتسوم أهلها سوء العذاب ، وكانوا يسمونهم « العشّارين » لأنهم كانوا فى الغالب يأخذون عشر المحاصيل وغيرها ضريبة لبيت المال . وقد اختاره المسيح تلميذا له . فقد جاء فى الإصحاح التاسع من انجيل متى : « و بينما كان يسوع سائرا رأى شخصاً جالسا عند مكان الجباية اسمه متى ، فقال له اتبعنى ، فقام واتبعه ، و بينما هو متكىء فى البيت إذا عشّارون وخطاة كثيرون قد جاءوا وجلسوا مع يسوع وتلاميذه . فلما رأى ذلك الفريسيون (فرقة من اليهود تقدم ذكرها فى الفقرة الثالثة عشرة من الفصل السابق) قالوا لتلاميذه لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ، فلما سمع قولهم يسوع قال لهم إن المرضى هم الذين يحتاجون إلى الطبيب لا الأصحاء ، و إننى لم آت لأدعو أبرارا بل لأدعو خطاة إلى التوبة »[1] .

و بعد صلب المسيح أخذ متى يدعو إلى المسيحية مطوفاً فى كثير من البلاد ثم استقر فى الحبشة وقضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة داعياً الى ديانته ، ومات بها سنة ٧٠ على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة ، أو على أثر طعنة برمح أصيب بها سنة ٦٢ فى رواية أخرى . و إليه ينسب إنجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين ، وهو أقدم هذه الأناجيل جميعاً كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة الرابعة من هذا الفصل ، و ينسب إليه كذلك إنجيل آخر من الأناجيل غير المعتمدة عند المسيحيين كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة السابعة من هذا الفصل .

٤ — يعقوب الصغير ابن حلفى Saint Jacques le mineur fils d'Alphée (وقد

(١) فقرات ٩ — ١٣ من الإصحاح التاسع من إنجيل متى .

لقب بالصغير للتمييز بينه و بين يعقوب بن زبدى أخى يوحنا الذى لقب بيعقوب الكبير).
هو كذلك أحد الحواريين الاثنى عشر ، وهو من أقرباء المسيح . وكان ممن اجتباهم المسيح نفسه واختارهم لنشر رسالته ، ولم يلبث أن أصبح من أكبر الدعاة إلى المسيحية فى حياة المسيح ومن بعده ، وخاصة فى بلاد فلسطين ، و يعتبره التاريخ المسيحى أول أسقف لأورشليم (بيت المقدس) . وقد استشهد حوالى سنة ٦٢ بعد الميلاد بأورشليم حيث حكم عليه بالإعدام رجما .

و ينسب إليه التاريخ المسيحى تعديلا هاما أدخل فى الشريعة المسيحية فى مجمع أورشليم الذى انعقد بعد رفع المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة . وذلك أن المسيحيين الأولين كانوا يوجبون على أنفسهم جميع ما أوجبته أسفار العهد القديم ويحرمون على أنفسهم جميع ما حرمته ، أى يعتبرون شريعة موسى شريعة لهم و يعتبرون أسفارها أسفاراً مقدسة ، ولا يستثنون من ذلك إلا ما صرح المسيح نفسه بنسخه أو تعديله . واستمر المسيحيون على ذلك إلى أن انعقد مجمع أورشليم بعد رفع المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة . وكان هذا أول مجمع يعقد بعد المسيح للنظر فى الشريعة . وقد اجتمع فيه الحواريون والتلاميذ وكثير من السابقين الأولين إلى المسيحية . فتقدم يعقوب الصغير إلى المجتمعين باقتراح يقضى بعدم وجوب الختان الذى أوجبته التوراة على كل ذكر ، لأن الختان يشق على بعض من يدعونهم إلى المسيحية فيرغبون عنها بسببه ، و بالاقتصار على تحريم ثلاثه أشياء من المأكولات التى حرمتها التوراة وهى الدم والمتخنقة وماذبح للأوثان وإحلال ما عدا ذلك تيسيراً على الناس . ويدخل فى باب الحل لحم الخنزير نفسه الذى حرمته أسفار العهد القديم . ودافع يعقوب عن وجهة نظره دفاعا قويا ، فأقر الحواريون والحاضرون اقتراحه بجميع محتوياته[1] .

---

(١) انظر الإصحاح ١٥ من سفر « أعمال الرسل » للوقا .

وتنسب إليه رسالة من الرسائل الكاثوليكية السبع ، وهى إحدى رسائل العهد الجديد التى سنتكلم عليها فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

٥ — يهوذا Saint Jude ويسمى كذلك تدّى Thaddée ولبّى Lebée هو أخو يعقوب الصغير ومن أقرباء المسيح، وهو كأخيه أحد الحواريين الاثنى عشر . وكان من دعاة المسيحية فى حياة المسيح ومن بعده . واستشهد فى ميزوبوتاميا (العراق) حيث كان يدعو إلى المسيحية فى وديان دجلة والفرات . وتنسب إليه رسالة من الرسائل الكاثوليكية السبع ، وهى إحدى رسائل العهد الجديد التى سنتكلم عليها فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

٦ — بولس Saint Paul كان يهودياً من الفريسيين على أرجح الأقوال . وكان اسمه شاول Saul . وكان من ألد أعداء المسيحية فى عهد المسيح ومن بعده ومن أشدهم حربا عليها وعلى أهلها . فكان يسطو على معابد المسيحيين ويقتحم بيوتهم ويغير عليهم فى الطرقات ، فيقتل منهم من يقتل ، ويعذب من يعذب ، ويشد وثاق بعضهم من الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجون وساحات التعذيب . — وبينما هو سائر فى طريقه إلى دمشق ظهر له المسيح فى عمود من نور ، وكان ذلك بعد صلبه ورفعه ، فهداه الصراط المستقيم ، وكلفه تبليغ رسالته إلى الأمم وهدايتهم إلى المسيحية ، ومن ثم أطلق عليه اسم « حوارى المسيح إلى الأمم الكافرة Apôtre des Gentiles » . — وعندما ذهب إلى الحواريين بعد ذلك أوجسوا خيفة منه ، وظنوا أنه يتظاهر بالإيمان للمكر بهم وتدبير الكيد لهم ، ولكن « برنابا » Barnabé (الذى سنترجم له فى الفقرة التالية) شهد أمامهم بصحة إيمانه وقص عليهم قصة هدايته وظهور المسيح له ، فاطمئنوا إليه ، وأنزلوه منهم منزلة كبيرة وانقلب من ألد أعداء المسيحية إلى أكبر دعاتها والمنافحين عنها ، وأخذ يطوف فى مختلف البلاد عاملا على نشرها وإدخال الناس فى دينها ، واصطحب معه

« برنابا » فى رحلاته الأولى ، ثم اختلفا بعد ذلك فافترقا . وظل سائراً على منهجه ينشىء الكنائس ، ويلقى الخطب ، ويؤلف الرسائل فى المسيحية عقائدها وشرائعها وأخلاقها ، حتى قتل فى اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو ٦٧ م (١) .

وينسب إلى بولس أربعة عشر سفراً من أسفار العهد الجديد تسمى « رسائل بولس » على ما سنذكره مفصلاً فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

وبفضل هذه الرسائل أصبح لبولس فى تاريخ المسيحية وعقائدها وشرائعها أكبر شأن ، حتى إن المسيحية الحاضرة لتنسب إليه أكثر مما تنسب إلى غيره وتستمد معظم أصولها وتعاليمها من رسائله ، وحتى إن كلمة « الرسول » إذا أطلقت لا يراد بها فى اصطلاحهم إلا بولس ، كما يطلقون عليه كذلك لقب « الرسول الكبير le Grand Apôtre » .

— ٢ —

التلاميذ والتابعون

بحسب ما ترويه أسفار الديانة المسيحية

تروى أسفار الديانة المسيحية بشأن التلاميذ والتابعين ما يلى :

اختار المسيح من بين أتباعه والملازمين لصحبته والاستماع إليه بجانب الاثنى عشر حوارياً السابق ذكرهم ، وهم الذين كانت لهم أكبر منزلة فى المسيحية ، سبعين رجلا كلفهم التبشير بالمسيحية فى قرى الجليل ، وأطلق على هؤلاء اسم « التلاميذ les Disciples » .

وبجانب الرسل والتلاميذ يحفظ لنا التاريخ المسيحى أسماء جماعة لم يصاحبوا

(١) انظر الإصحاحات الثامن والتاسع والثالث عشر والرابع عشر من سفر « أعمال الرسل » للوقا .

المسيح نفسه، ولكن صاحبوا بعض رسله أو بعض تلاميذه وأخذوا عنهم، وكان لهم أثر ذو بال فى المسيحية . ومن الممكن أن نطلق على هؤلاء اسم « التابعين » جريا على الإصطلاح الإسلامى الذى يطلق هذا الوصف على من لم يصاحب الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ولكن أخذ عن بعض صحابته .

ومن بين التلاميذ اثنان تنسب إليهم بعض أسفار فى الديانة المسيحية وهما « برنابا » و «مرقص» ؛ ومن بين التابعين واحد تنسب إليه كذلك بعض هذه الأسفار وهو «لوقا» . فهؤلاء الثلاثة وحدهم، من بين جميع التلاميذ والتابعين، هم الذين يتصلون بموضوع دراستنا . ولذلك سنقدم لكل منهم فيما يلى ترجمة موجزة حسب ما ترويه أسفار المسيحيين :

١ — برنابا Saint Barnabé: كان يهوديا من اللاويين، وكان اسمه يوسف، وقد سماه الحواريون « برنابا » ومعنى هذه الكلمة « ابن الوعظ » . وهو من التلاميذ السبعين على الأرجح . وقد باع جميع ما يملكه من أرض فى فلسطين، وقدم ثمنه للحواريين ليستعينوا به فى الدعوة إلى المسيحية ومساعدة فقراء المسيحيين. وهو الذى ضمن بولس أمام الحواريين وشهد بصحة إيمانه وقص عليهم هدايته وظهور المسيح له كما تقدم بيان ذلك . وقد كلفه الحواريون عدة مهام تتعلق بالتبشير وتنظيم المجتمعات المسيحية الأولى فقام وحده بما عهد إليه به خير قيام . ثم اصطحب بولس بعد ذلك وعملا معاً على تبليغ رسالة المسيح إلى الكفار وهدايتهم إلى المسيحية واصطحبا معهما مرقص ابن أخت برنابا (وستترجم له فى الفقرة التالية) فطوّفا معا لهذه الغاية فى كثير من البلاد ومنها أنطاكية Antiche وقبرص . وقد نجحا فى رسالتهما أيما نجاح، وظهر على أيديهما معجزات كثيرة، و بلغا فى نفوس أتباعهما منزلة كبيرة، حتى لقد افتتن بهما أهل قبرص واعتقد الكثير منهم أنهما الآهان . ولما بلغهما ذلك مزقا ثيابهما واندفعا إلى الجمهور صارخين متبرئين مما

وصفا به؛ فرجع الناس عن ضلالهم. — ثم اختلف برنابا مع بولس فافترقا، ورجع برنابا في هذه المرة مع ابن اخته مرقص ليكمل مابدأ عمله في هذه البلاد مع بولس[1].

ويذسب لبرنابا إنجيل وسفر في تاريخ الحواريين والتلاميذ يسمى « أعمال الرسل » . ولا تعترف الكنائس المسيحية الحاضرة بصحة هذا الإنجيل ولا هذا السفر ولا بصحة ما جاء فيهما ولا بصحة نسبتهما إلى برنابا ، بل تذهب إلى أنهما مزيفان وأن ملفقيهما قد ألصقوهما ببرنابا ليرجوهما . وسنعرض لذلك في الفقرتين السابعة والثامنة من هذا الفصل .

٢ — مرقس Saint Marc اسمه يوحنا ويلقب بمرقص ، وأصله من اليهود ، وهو من التلاميذ السبعين على الأرجح ، وابن أخت القديس برنابا . وقد صاحب الرسول بولسَ والقديس برنابا في رحلاتهما وتبشيرهما بالمسيحية في قبرص وآسيا الصغرى ، ثم صاحب الرسول بطرس كبير الحواريين نفسه، وقضى معه شطراً من حياته وتبعه إلى روما . وبعد استشهاد الرسول بطرس شخص مرقص إلى شمال إفريقيا ثم إلى مصر ونشر فيها المسيحية وأنشأ بها بطرياركة الاسكندرية (الكرّازة المرقسية) التي يتولاها الآن بابوات الأقباط الأرثوذكس الذين يعتبرون أنفسهم خلفاء مرقص . واستشهد في مصر حوالى سنة ٦٧ .

وقد اختاره أهل البندقية (ڤينيسيا) حامياً لمدينتهم. وله في البندقية كنيسة تعد من أجمل كنائس العالم وأفخمها وأدقها عمارة وأغناها بالآثار الفنية .

وينسب إليه إنجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحين والتي سنتكلم عليها في الفقرة الرابعة من هذا الفصل .

٣ — لوقا Saint Luc . ولد في أنطاكية ودرس الطب وزاول مهنته بنجاح

---

(١) انظر إصحاحات ٤ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ من سفر « أعمال الرسل » للوقا .

كبير ، ثم اعتنق المسيحية ، وأصبح من كبار دعاتها ، ورافق الرسول بولس فى كثير من رحلاته ، وأشار بولس إلى هذه الرفقة فى بعض رسائله وخاصة فى رسالته الثانية إلى تلميذه تيموثاوس وفى رسالته إلى تلميذه فيليمون وفى رسالته إلى أهل كولوس[1] . وذهب بعضهم إلى أنه كان رومانيا نشأ بإيطاليا . ويرجح آخرون أنه كان مصوراً ولم يكن طبيباً . وقد مات سنة ٧٠ ميلادية على الأرجح .

وينسب إليه إنجيل من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين وسفر آخر من أسفار « العهد الجديد » يسمى « أعمال الرسل » وهو فى تاريخ الحواريين والتلاميذ ، ويعد أهم مرجع فى تاريخ نشأة المسيحية وأحوالها بعد المسيح وتاريخ دعاتها الأولين .

— ٣ —

العهـــد الجديد

استقر رأى المسيحيين فى أوائل القرن الخامس الميلادى على اعتماد سبعة وعشرين سفرا من أسفارهم ، قرروا أنها هى وحدها الأسفار المقدسة أى الموحى بها ، ويقصدون أنه موحى لأصحابها من الرب بمعانيها لا بألفاظها ، وأطلقوا عليها اسم « العهد الجديد » Nouveau Testament للمقابلة بينها وبين ما أعتمد من أسفار اليهود المقدسة التى أطلقوا عليها اسم « العهد القديم » Ancien Testament . فتسمية هاتين المجموعتين من الأسفار بهذين الاسمين هى تسمية متأخرة لاحقة لظهور المسيحية . ويقصد بكلمة « العهد » فى هاتين التسميتين ما يرادف معنى الميثاق . أى إن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس . فأولاهما

---

(١) سنتكلم على هذه الرسائل فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل .

تمثل ميثاقا قديماً يرجع إلى عصر موسى ، والأخرى تمثل ميثاقا جديدا بدأ بظهور عيسى .

وترجع أسفار العهد الجديد إلى ثلاث مجموعات وسفرين . فالمجموعات هي : مجموعة الأناجيل وعددها أربعة ؛ ومجموعة رسائل بولس وعددها اربع عشرة رسالة ؛ ومجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع رسائل . وأما السفران فهما : سفر « أعمال الرسل » للوقا ؛ وسفر « رؤيا يوحنا » أو « الأپوكاليپس » ليوحنا .

وسنفصل الكلام على هذه الأسفار فيما يلى :

— ٤ —

الأناجيل الأربعة

تمثل الأناجيل الأربعة المعتمدة أهم مجموعات العهد الجديد ، وتستأثر وحدها فى هذا العهد بحيز كبير يقرب من نصفه (تستغرق نحو ١١٠ صفحة من مجموع صفحات العهد الجديد البالغة نحو ٢٥٠ فى إحدى ترجماته بالفرنسية) . وهى : انجيل متى ؛ وانجيل مرقص ؛ و إنجيل لوقا ؛ و إنجيل يوحنا .

١ — أما إنجيل متى فؤلفه هو الرسول متى أحد الحواريين الاثنى عشر الذى ترجمنا له فى الفقرة الأولى من هذا الفصل . وإنجيله هو أقدم الأناجيل جميعاً إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى حوالى سنة ٦٠ بعد الميلاد على أرجح الأقوال . وقد ألفه متى باللهجة الآرامية الفلسطينية الحديثة التى تكلمنا عليها فى الفقرة الثانية من الفصل الأول من هذا الكتاب ، والتى كانت مستخدمة فى المحادثة والكتابة فى هذا العصر فى فلسطين .وقد أخطأ ابن البطريق وكثير من مؤرخى العرب إذ قرروا

أن متى قد كتب إنجيله هذا باللغة العبرية [1] . ولكن هذا الأصل الآرامى لم يصل إلينا، وإنما وصلت إلينا ترجمته إلى اللغة اليونانية التى تمت عقب تأليفه مباشرة أى حوالى سنة ٦٠ بعد الميلاد . ولا يظهر فى هذه الترجمة إلا آثار ضئيلة للهجة الآرامية التى كتب بها الأصل ، وتتمثل هذه الآثار فى نحو ست عشرة كلمة آرامية مدونة بحروف يونانية. ولا يعرف عن طريق يقينى مترجم هذا الإنجيل إلى اللغة اليونانية. ويقال أن متى نفسه هو الذى قام بترجمته ويروى ابن البطريق وكثير من مؤرخى العرب أن مترجمه هو يوحنا مؤلف الإنجيل الرابع الذى سيأتى ذكره [2] . ولا يعرف لهذا الرأى سند يعتد به . وقد أخطأ بعض مؤرخى العرب إذ قرر أن هذا السفر قد ترجم أول ما ترجم إلى اللغة اللاتينية [3] ؛ لأن الثابت أن أول ترجمة له هى الترجمة اليونانية كما تقدم ، وهى التى وصلت إلينا بدون أصله . وهذا هو ما يقرره ابن البطريق نفسه إذ يقول : «وفى عصر قلوديوس (يقصد كلود الأول Colub Ier امبراطور الرومان (ولد سنة ١٠ ق م ، ونصب امبراطوراً سنة ٤١ ميلادية ومات وهو فى منصبه سنة ٥٤) كتب متاوس (يقصد متيوس أى متى) إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس ، وفسره (أى ترجمه) من العبرانية إلى اليونانية يوحنا صاحب الإنجيل » .

٢ — إنجيل مرقص . مؤلفه هو القديس مرقص أحد التلاميذ السبعين ؛ وقد ترجمنا له فى الفقرة الثانية من هذا الفصل. وقد ألفه على أرجح الأقوال حوالى سنة ٦٣ أو ٦٥ وألفه باللغة اليونانية لا باللغة اللاتينية كما يذكر بعض مؤرخى

---

(١) انظر فى ذلك مثلا ابن خلدون إذ يقول : « كتب متى إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منها إلى اللسان اللطينى » صفحتى ٥٩٠ ، ٥٩١ من مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثانى ، طبعة لجنة البيان العربى ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، وانظر تعليقنا رقم ٧٣٨ على هذه العبارة .

(٢) انظر فى ذلك مثلا ابن خلدون ص ٥٩١، ٥٩٢ من الطبعة السابقة وتعليقنا رقم ٧٤١ على عبارته .

(٣) المرجع نفسه المدون فى التعليق الأول فى هذه الصفحة .

العرب ، وكان تأليفه إياه تحت إشراف أستـــاذه بطرس رئيس الحواريين وبإرشاده ؛ وقد رجع إليه فى بعض حقائقه واستمد منه بعض الذكريات وبعض حوادث التاريخ .

وقد روى ابن البطريق وبعض مؤرخى العرب أن هذا الإنجيل قد كتبه بطرس نفسه ونسبه إلى تلميذه مرقص . ونص عبارة ابن البطريق : « وفى عهد ناورن قيصر (يقصد نيرون Néron امبراطور روما من سنه ٥٤ إلى سنة ٦٨) كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقص فى مدينة رومية ونسبه إلى مرقص » . ولا يعرف لهذه الرواية سند يعتد به [١] .

٣ — إنجيل لوقا : مؤلفه القديس لوقا ، وهو أحد التابعين ، وقد ترجمنا له فى الفقرة الثانية من هذا الفصل . وقد ألفه على أرجح الأقوال فى العصر نفسه الذى ألف فيه مرقص إنجيله ، أى حوالى سنة ٦٣ أو ٦٥ ، وألفه باللغة اليونانية لا باللغة اللاتينية كما يذكر بعض مؤرخى العرب [٢] ، وافتتحه بعبـارة تدل على أنه قد كتبه لعظيم يسمى ثيوفيلوس Théophile فهو يقول فى فاتحته : « لقد كتب كثيرون فى تاريخ الأحداث التى جرت لدينا (يقصد بين المسيحين الأولين) حسب مانقل من هؤلاء الذين كانوا شهوداً لهذه الحوادث . ولمـا كنت قد قمت ببحث هذه الأحداث بحثاً دقيقا وتتبعتها من نشأتها الأولى ، لذلك رأيت من الخير أن أدونها لسعادتك أيها العظيم ثيوفيل فى صورة مسلسلة حتى تقف على الرأى اليقينى فى التعاليم التى تلقيتها » [٣] . ولم يحاول لوقا أن يعرف بهذا العظيم . ولذلك اختلف فيه : فقيل إنه كان مصرياً ؛ وقيل أنه أحد عظماء اليونان أو أحد علمائهم ،

---

(١) انظر كذلك ابن خلدون ص ٥٩١ ، ٥٩٢ من الطبعة السابقة : « وكتب بطرس إنجيله بالطينى ونسبه إلى مرقاص تلميذه » ، انظر تعليقنا على هذ العبارة رقم ٧٤١ .

(٢) انظر مثلا مقدمة ابن خلدون ص ٥٩١ من الطبعة السابقة وتعليقنا رقم ٧٣٩ على عبارته .

(٣) انجيل لوقا فقرات ١ — ٢ من الإصحاح الأول .

وإلى هذا يذهب ابن البطريق وكثير من مؤرخي العرب. ونص عبارة ابن البطريق: « وكتب لوقا إنجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له تاوفيلا » . ويقول ابن خلدون فى مقدمته : « وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم »[1] . (وكلمة الروم يطلقها العرب على اليونان ، وقد وردت بهذا المعنى فى قوله تعالى «غلبت الروم فى أدنى الأرض »).

٤ — إنجيل يوحنا : ألفه الرسول يوحنا ، وهو أحد الحواريين الاثنى عشر، وقد ترجمنا له فى الفقرة الأولى من هـذا الفصل ، وألفه باللغة اليونانية ، وكان تأليفه إياه حوالى سنة ٩٠ بعد الميلاد على أرجح الأقوال ؛ فهو لذلك أحدث الأناجيل جميعا إذ تفصله عنها مرحلة زمنية كبيرة تبلغ زهاء ثلاثين عاما .

ومع أن جميع النحل المسيحية فى العصر الحاضر مجمعة على اعتماد هذا الإنجيل واعتباره مقدسا موحى به واعتماد صحة نسبته إلى يوحنا بن زبدى أحد الحواريين الاثنى عشر ، فإن بعض القدامى من الباحثين فى المسيحية كانوا ينكرون هـذا الإنجيل و ينكرون كذلك جميع ما أسند إلى يوحنا مَن بقية أسفار العهد الجديد التى سيأتى ذكرها ، ويرون أن ذلك كله من تأليف أشخاص آخرين . بل لقد كانت بعض الفرق المسيحية القديمة نفسها فى أواخر القرن الثانى الميلادى تذهب هذا المذهب فى جميع ما ينسب إلى يوحنا من أسفار . ويرتاب كذلك كثير من الباحثين المحدثين فى صحة نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا ، بل إن عددا كبيراً من ثقاتهم ليقطع بعدم صحة نسبته إليه . ومن هؤلاء جماعة العلماء الذين أشرفوا على تحرير المسائل المسيحية فى دائرة المعارف البريطانية . فقـــد ذكروا فى ترجمتهم للأناجيل أنه « لا مرية فى أن مؤلف إنجيل يوحنا شخص آخر غير يوحنا بن زبدى الحوارى المشهور . وقد ادعى مؤلفه فى متنه أنه هو يوحنا الحبيب إلى المسيح (انظر منشأ هذا اللقب فى ترجمتنا ليوحنا فى الفقرة الأولى من هذا الفصل) .

---

(١) انظر مثلا ابن خلدون صفحة ٥٩١ من طبعة لجنة البيان العربى وتعليق ٧٣٩ .

فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى، ووضعت اسمه على الكتاب نصا، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا. وإن الذين يحاولون أن يربطوا ولو برابطة واهية بين ذلك الفيلسوف الذى ألف هذا الكتاب فى القرن الثانى من الميلاد و بين الحوارى يوحنا الصياد الجليل، لن يجدوا لمحاولتهم هذه أى سند وستذهب جهودهم أدراج الرياح». ومن هؤلاء كذلك مؤلفو دائرة المعارف الفرنسية المشهورة باسم لاروس القرن العشرين Larousse du XXe siécle، فقد ذكروا أنه «ينسب ليوحنا هذا الإنجيل وثلاثة أسفار أخرى من العهد الجديد. (هى ثلاث رسائل من الرسائل الكاثوليكية ورؤيا يوحنا. — وسنتكلم عن هذه الأسفار عند كلامنا على بقية أسفار العهد الجديد فى الفقرة الثامنة من هذا الفصل). ولكن البحوث الحديثة فى مسائل الأديان لا تسلم بصحة هذه النسبة».

— ٥ —

نظرة فى محتويات الأناجيل

ترجع أهم الأمور التى تشتمل عليها هذه الأناجيل إلى أربعة موضوعات، وهى القصص والعقيدة والشريعة والأخلاق.

١ — أما القصص فيشغل أكبر حيز من كل إنجيل من هذه الأناجيل، ويعرض لقصة مريم وحملها بالمسيح وولادته ودعوته إلى دينه واجتبائه للحواريين والتلاميذ وصلبه وقيامته بعد صلبه ورفعه إلى السماء. فتذكر هذه الأناجيل أن مريم كانت مخطوبة أو زوجة ليوسف النجار[1]، وأنها حملت بالمسيح من قبل

(١) توصف مريم فى بعض فقرات إنجيل متى بأنها كانت مخطوبة ليوسف النجار، وفى فقرات أخرى من الانجيل نفسه بأنها كانت زوجة له (انظر فقرات ١٦ — ٢١ من الإصحاح الاول من إنجيل متى).

أن يقربها يوسف ، فخالجه الشك فى أمرها ، وأراد أن يفارقها . فبعث الله إليه ملكا أمره أن يمسك عليه زوجه ، وأنبأه بأنها حملت من روح القدس وأنها ستلد غلاما زكيا ، وأن هذا الغلام سيخلص شعبه من خطاياه ، وطلب إليه من أجل ذلك أن يسميه المسيح أى المخلص وماسح الخطايا[1] . وقد ظهر فى أثناء حمله وولادته وطفولته إرهاصات ومعجزات كثيرة تنبىء بعظمته وقدسيته وتبشر بظهور دينه . ومن هذه الإرهاصات ظهور يوحنا المعمدان ابن ذكريا (وهو المعروف فى الإسلام باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام) وتبشيره بظهور المسيح وعمله على تهيئة أذهان اليهود لرسالته ، وحثهم على التوبة مما كانوا يقترفونه من معاص والإقلاع عما كانوا قد انحدروا إليه من زيغ فى العقيدة وغسل أجسامهم فى مياه نهر الأردن (وهو ما يعبر عنه المسيحيون بالتعميد) للرمز الى تخليصهم مما كان قد علق بنفوسهم من أدران . ولما بلغ المسيح أشده ذهب إلى يوحنا ليعمده فى مياه الأردن كما يعمد غيره ، فأحجم يوحنا عن ذلك فى أول الأمر ، وذكر أنه لا ينبغى له أن يعمد من هو أعظم منه قدراً وأكبر منزلة ، بل إن مثله فى حاجة لأن يعمده المسيح ، ولكنه عاد فأذعن للأمر تحت إلحاح المسيح ورغبته .

وحينما بلغ المسيح الثلاثين من عمره أخذ ينشر دعوته وظهرت معجزات كثيرة على يديه . وقد لاقى فى سبيل دعوته كثيراً من ضروب العنت والأذى من اليهود والرومان . واجتبى لنشر رسالته فى مختلف أرجاء العالم عدداً من السابقين الأولين إلى المسيحية وهم الحواريون والتلاميذ الذين ترجمنا لهم فيما سبق . ثم تآمر عليه الفريسيون من اليهود والحكام من الرومان وساعدهم فى مؤامرتهم هذه يهوذا الإسخريوطى الذى كان أحد الحواريين ثم خان عهده كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وانتهت هذه المؤامرة بالحكم على المسيح بالإعدام صلبا ، وكانت سنه حينئذ

---

(١) فقرات ١٩ — ٢١ من الإصحاح الأول من إنجيل متى .

خمسا وثلاثين سنة . فصلب ثم دفن ، وأقيم على قبره حراس أشداء يقظون حتى لا يخطف أنصاره جثته ويدعوا أنه نشر من قبره مصداقا لما كان قد أخبر به قبل صلبه . ولكنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام من دفنه (وهذا مايعبر عنه المسيحيون بالقيامة ، ويحتفلون به فى عيد يسمى « عيد القيامة ») . وظل بعد ذلك مع حوارييه وتلاميذه وأنصاره أربعين يوما يعلمهم ويرشدهم . ثم رفع إلى السماء وجلس على يمين أبيه .

٢ — وأما العقائد التى تشتمل عليها هذه الأناجيل فتدور كلها حول المسيح وتقرر ألوهيته وبنوته للأب ، وأن الإلاه عبارة عن ثلاثة أقانيم (جمع أقنوم بضم الهمزة أى الأصل وهو تعريب لكلمة Hypostases من اليونانية Hypo, stasis بمعنى الأصل المركب) وهى الآب والإبن وروح القدس ، وأن المسيح قد صلب ليكفر بذلك الخطيئة الأزلية péché originel وهى الخطيئة التى ارتكبها آدم إذ عصى ربه وأكل من الشجرة والتى انتقلت بطريق الوراثة إلى جميع نسله ، وكانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن افتداهم المسيح بدمه ، وأن المسيح قد قام من قبره بعد صلبه بثلاثة أيام ؛ وظل مع حوارييه وأنصاره أربعين يوما ثم رفع الى السماء حيث جلس على يمين أبيه ، يصرف شئون العالم . وسيتولى هو يوم القيامة حساب الناس على ما فعلوه فى الحياة الدنيا ، فيجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته[1] . وأكثر الأناجيل صراحة فى تقرير ألوهية المسيح وملحقاتها هو إنجيل يوحنا .

---

(١) تمثل هذه النقطة الأخيرة ناحية من أهم النواحى التى تختلف فيها العقيدة المسيحية عن عقائد اليهود المقررة فى العهد القديم . فأسفار العهد القديم كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، قد خلت من ذكر البعث والنشور واليوم الآخر ونعيمه وجحيمه (انظر الفقرة العاشرة من الفصل الأول من هذا الكتاب) .

٣ ــ وأما فيما يتعلق بشئون الشريعة فإنه يفهم من هذه الإناجيل أن المسيحية قد أقرت شريعة اليهود المقررة فى العهـد القديم ، ولم تستثن من ذلك إلا ما ورد عن المسيح نص بنسخه أو تعديله . وقد ورد فى الأناجيل نصوص قليلة ناسخة ومعدلة لبعض أحكام العهد القديم ومعظمها جاء على لسان المسيح فى وصيته المشهورة « بوصية الجبل » أو « خطبة الجبل » Sermon de la montagne وهى التى ألقاها وهو جالس على قمة جبل وسمعها جمهور كبير من الناس يتقدمهم حواريوه وتلاميذه[١] . ومن ذلك ماورد فيها بشأن الطلاق وقصاص الجروح ورجم الزانية . فقد ذكر المسيح فى هذه الوصية أن موسى لقساوة قلوب الناس قد أباح الطلاق ولكنه هو (أى المسيح) يقرر أن « من يفارق امرأته إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى ، وأن من يتزوج مطلقة يزنى »[٢] ، وأن « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها ، و إن فارقت المرأة زوجها وتزوجت بآخر ارتكبت بذلك جريمة الزنا[٣] » ، وأن « الزوجين بعد زواجهما يصبحان جسما واحداً فلا يعودان بعد ذلك اثنين ، فالذى جمعه الله هذا الجمع لا يصح أن يفرقه الإنسان »[٤] . ــ وذكر فى الوصية نفسها بصدد قصاص الجروح أنه « قد تقرر فيما سبق (يقصد فى التوراة) أن العين بالعين والسن بالسن . أما أنا فأقول إنه لا ينبغى أن تقاوموا من يتصدى لكم بالأذى ، وأنه إذا صفعك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، و إذا نازعك أحد فى إزارك وادعى ظلما أنه له فأعطه إزارك ورداءك » .[٥] ــ وروى يوحنا فى إنجيله بصدد رجم الزانية أن جماعة من فقهاء اليهود والمنتمين إلى فرقة الفريسيين قد جاءوا يوما إلى المسيح بامرأة قد قبض عليها وهى متلبسة بجريمة الزنا ، وذكروا

---

(١) انظر فى هذه الوصية الإصحاحات الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى .

(٢) فقرة ٣٢ إصحاح ٥ من إنجيل متى .

(٣) مرقس ، إصحاح ١٠ ، فقرتى ١١ ، ١٢ .

(٤) مرقس إصحاح ١٠ ، فقرتى ٨ ، ٩ .

(٥) متى ، إصحاح ٥ ، فقرات ٣٨ ــ ٤٠ .

له أن موسى قد قرر فى شريعته حد الرجم على الزانية ، وطلبوا إليه أن يبين لهم رأيه فى هذا الموضوع ، قاصدين بذلك امتحانه واستدراجه لعله يحكم بغير ما أنزل الله فيعطيهم بذلك سلاحاً لمحاربته والقضاء عليه وعلى دعوته . فأطرق قليلا وأخذ يخط بيده على الأرض . وظلوا هم يكررون سؤالهم . فرفع بصره وقال لهم : ليبدأ برجمها من لم يرتكب منكم خطيئة. ثم أطرق برأسه وأخذ يخط بيده على الأرض. فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض ثم تسللوا واحداً بعد الآخر حتى انصرفوا جميعاً ، لأنه لم يكن واحداً منهم مبرءاً من الخطيئة . فرفع المسيح بصره فلم يجد أمامه إلا المرأة . فقال لها أين هؤلاء الذين يتهمونك ؛ ألم يبدأ أحدهم برجمك ؟ فقالت لا يا سيدى . فقال لها وأنا أيضاً لا أعاقبك ؛ اذهبى لسبيلك ولا ترجعى لما اقترفته[١] . — ومعنى ذلك أن المسيح قد ألغى حد الزنا مكتفيا بأخذ العهد على مقترفه ألا يعود إليه مرة أخرى .

٤ — وأما فيما يتعلق بأخلاق الأناجيل فإنها ممعنة كل الإمعان فى مثاليتها وحريصة كل الحرص على أن تقوم العلاقات بين الناس على أسس التسامح والعفو ودفع السيئة بالحسنة ، حتى إنها لتكاد تجعل ذلك واجبا من الواجبات . وتبدو هذه القواعد أوضح ما يكون فى كثير من الفقرات الواردة فى خطبة الجبل السابق ذكرها . فمن ذلك قول المسيح فى هذه الوصية : « لقد كان يقال لكم (يشير إلى بعض التعاليم الواردة فى أسفار اليهود) أحبوا أبناء شعبكم وأبغضوا أعداءكم . وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا الذين يلعنونكم ، وقدموا الخير لمن يكرهونكم ، وادعوا بخير لهؤلاء الذين يضطهدونكم ويعذبونكم ، حتى تستحقوا أن تكونوا أبناء لأبيكم الذى فى السماوات[٢] » . ومن ذلك قوله فى الوصية نفسها :

---

(١) إنجيل يوحنا فقرات ١ — ١١ من الإصحاح الثامن .
(٢) متى ، إصحاح ٥ فقرات ٤٣ — ٤٥ .

« لا ينبغى أن تقاوموا من يتصدى لـكم بالأذى ، و إذا صفعك أحد على خدك الأيمن فأدر له الخد الآخر »(١) .

* * *

هذا ، وتتفق الأناجيل الأربعة جميعاً فى جوهر القصص والعقيدة والتشريع والأخلاق على النحو السابق بيانه ، و يمتاز الإنجيل الرابع ، وهو إنجيل يوحنا ، عن الأناجيل الثلاثة السابقة له فى تاريخ تأليفها بنحو ربع قرن ، بمزيد من التفصيل فى العقائد والشرائع ، و بالتصدى للرد على البدع التى استحدثت فى المجتمعات المسيحية فى عصره ، وبمزيد من الصراحة فى إثبات ألوهية المسيح و بنوته للآب .

* * *

ومع اتفاقها فى الجوهر فإنها تختلف فيما بينها فى كثير من التفاصيل . و يبدو خلافها هذا حتى فى القصص نفسه .

فمن ذلك خلافها فى نسب المسيح من جهة يوسف النجار زوج أمه مريم . فإنجيل متى يذكر فى نسبه هذا آباء غير الآباء الذين يذكرهم إنجيل لوقا ، و بينما يعد لوقا فى سلسلة نسبه إلى إبراهيم الخليل ستة وخمسين أبا يهبط بهم متى إلى اثنين وار بعين فحسب ، و بينما يعد لوقا فى سلسلة نسبه إلى داود واحداً وأربعين أبا يهبط بهم متى إلى سبع وعشرين ؛ و بينما يستفاد من متى أن جميع أباء المسيح من داود إلى جلاء بابل(٢) ملوك مشهورون يظهر مما ذكر لوقا أن ليس منهم من يعد من الملوك المشهورين غير داود وناثان(٣) .

ومن ذلك اختلافها فى حادث القبض على المسيح . فقد قص إنجيل متى

---

(١) متى ، إصحاح ٥ ، فقرات ٣٨ — ٤٠ .

(٢) انظر الفقرة الأولى من الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٣) وازن بين فقرات ١ — ١٧ من الإصحاح الأول من إنجيل متى ، وفقرات ٢٣ — ٣٨ من الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا .

خبر القبض عليه فى هذه العبارة : «و بينما كان المسيح يحدث أنصاره ، قدم يهوذا وهو واحد من حوارييه الإثنى عشر ، ومعه جمع كبير بسيوفهم وعصيهم ، وقد جاءوا من عند كبار الكهنة ورؤساء الشعب . وكان يهوذا قد أعطاهم علامة ترشدهم إلى المسيح ، وذلك بأن يتقدم إليه فيقبله . ولما تقدم إليه سلم عليه وقبله. فحينئذ عرفوا المسيح فتقدموا إليه وقبضوا عليه[١]» . ولكن إنجيل يوحنا يقص قصة القبض عليه على وجه آخر إذ يقول : « فأخذ يهوذا الجند وخداما من كبار الكهنة والفريسيين وجاءوا إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح ، فخرج يسوع ، وهوعالم بكل ماسيحدث ، وقال لهم من تطلبون ؟ فأجابوه نطلب يسوع الناصرى، فقال لهم أنا يسوع الناصرى . وكان يهوذا الذى أسلمه واقفا معهم . فلما قال لهم أنا يسوع الناصرى رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض . فأعاد عليهم السؤال قائلا من تطلبون . فقالوا نطلب يسوع الناصرى ، فأجاب يسوع قد قلت لكم إنى أنا هو ..[٢] » .

— ٦ —

نظرة فى موقف الإسلام من هذه الأناجيل

ومن هذا يظهر مبلغ الخلاف بين هذه الأناجيل ومحتوياتها من جهة وما يذكره القرآن عن إنجيل عيسى وعن عيسى نفسه ورسالته وتاريخه من جهة أخرى .

فالقرآن يحدثنا عن كتاب سماوى أنزله الله على عيسى . وهذه أسفار كتبها أناس من البشر بأقلامهم بعد رفع المسيح بنحو ثلاثين سنة ، بل إن آخر إنجيل منها وهو إنجيل يوحنا قد كتبه صاحبه بعد رفع المسيح بنحو خمس وخمسين سنة،

---

(١) فقرات ٤٧ ــ ٥٠ من إصحاح ٢٦ من إنجيل متى .
(٢) إنجيل يوحنا ، إصحاح ١٨ ، فقرات ١ ــ ٩ .

وهى أسفار غير متفقة كل الاتفاق فى محتوياتها ، حتى فيما ترويه عن قصة المسيح نفسه .

والمسيح الذى يحدثنا عنه القرآن غير المسيح الذى تحدثنا عنه هذه الأناجيل . فالمسيح فى القرآن إنسان من البشر اصطفاه الله كما اصطفى غيره من الرسل ، وكل ما بينه وبين غيره من البشر من خلاف هو أنه قد ولد بدون أب ، وليس ذلك بعزيز على الله ، فقد خلق الله تعالى آدم من قبل بدون أب ولا أم : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[1] . — أما مسيح هذه الأناجيل فهو كائن غريب : هو إله وابن لله وأقنوم من الأقانيم الثلاثة المكونة لله ! .

والقرآن يذكر أن المسيح قد أرسل إلى بنى إسرائيل ، كما أرسل إليهم من قبله رسل آخرون لينقذهم مما انحدروا إليه من كفر وضلال ويأتيهم بشريعة جديدة تلائم عصرهم ويهديهم صراطا مستقيما ، وأنه لم يقتل ولم يصلب ولكن شبه لهم ، وأن آدم قد أناب إلى الله واستغفر من خطيئته التى ارتكبها إذ أكل من الشجرة فغفرها الله له ، وأن الخطيئة لا يحمل وزرها غير مقترفها، فلا تزر وازرة وزر أخرى . وفى هذا يقول القرآن الكريم: « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس[2] » ، ويقول : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »[3] ، ويقول: « إذا قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين... ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ... ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض

---

(١) آية ٥٩ من سورة آل عمران .
(٢) آية ٨٧ من سورة البقرة .
(٣) آية ٧٥ سورة المائدة .

الذى حرم عليكم[1] ...» ، ويقول : « ... وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ، و إن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيما »[2] ، و يقول فى صدد آدم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »[3] ، و يقول: « وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »[4] ، ويقول مقرزاً أن الوزر لا يحتمل اثمه وتبعته إلا من اقترفه : « ... ألا تزرو وازرة وزر أخرى؛ وأن ليس للانسان إلا ما سعى »[5] . — بينما تذكر هذه الأناجيل أن من أهم الأغراض التى ظهر من أجلها المسيح ابن الله وهو يكفر بدمه الخطيئة التى أرتكبها آدم والتى انتقلت بطريق الوراثة إلى جميع نسله ، وأنه قد صلب بالفعل ، فحقق بذلك أهم غرض ظهر من أجله .

والقرآن يذكر أن الديانة التى جاء بها المسيح ديانة توحيد تدعو إلى عبادة لله وحده ؛ وفى ذلك يقول الله تعالى على لسان المسيح مجيباً على سؤال من ربه : « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد »[6] ، بينما نرى أن الديانة التى تقررها هذه الأناجيل هى ديانة شرك تقوم على الاعتقاد بالتثليث ، أى أن الله ثالث ثلاثة : الآب والابن وروح القدس ، وعلى الاعتقاد بألوهية المسيح و بنوته لله وأنه أحد الأقانيم الثلاثة . — وقد نعى

---

(١) آيات ٤٥ — ٥٠ من سورة آل عمران .
(٢) آيتى ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .
(٣) آية ٣٧ من سورة البقرة .
(٤) آيتى ١٢١ ، ١٢٢ من سورة طه .
(٥) آيتى ٣٨ ، ٣٩ من سورة النجم .
(٦) آية ١١٧ من سورة المائدة .

القرآن الكريم فى أكثر من آية على المسيحيين تحريفهم لكتاب الله فى أسفارهم المزعومة وتغييرهم لطبيعة المسيح ، وزعمهم أنه ابن الله ، واستبدالهم بعقيدة التوحيد التى أمروا بها عقيدة الشرك والتثليث . ومن ذلك قوله تعالى : «وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم » (أى واتخذوا المسيح بن مريم كذلك إلاها من دون الله) «وما أمروا إلا ليعبدوا إلاها واحدا ، لا إلاه إلا هو سبحانه عما يشركون»[١] ، وقوله : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يابنى اسرائيل أعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلاه إلا إلاه واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ... ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ... »[٢] ، وقوله : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ؛ انتهوا خيراً لكم ؛ إنما الله إلاه واحد ؛ سبحانه أنى يكون له ولد ؛ له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا»[٣] ، وقوله : « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون » ،[٤] وقوله : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ؛ لقد جئتم شيئا إدّا ؛ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ؛ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ؛

(١) آيتى ٣٠ ، ٣١ من سوة التوبة .
(٢) آيات ٧١ — ٧٥ من سورة المائدة .
(٣) آية ٧١ من سورة النساء .
(٤) آية ١١٦ من سورة البقرة .

إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا »[١] ، وقوله : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »[٢] .

والقرآن يذكر أن الشريعة التى جاء بها عيسى شريعة سماوية سمحة تحقق صلاح الناس فى الدنيا والآخرة ، وتعدل من الشرائع السابقة ما تقتضى الشئون الاجتماعية تعديله ، وترفع عن الناس إصرهم ، وتزيل جميع مظاهر العنت والحرج ، وتقيم وزناً لضرورات الحياة ، وتكفل للمجتمع الإنسانى الاستقرار ، وتحيط نظم العمران وحدوده ووسائل أمنه بسياج من الحماية ؛ على حين أن الشريعة التى تذكرها هذه الأناجيل يبدو فى كثير من أحكامها مظاهر العنت والحرج والتضييق على الناس وعدم إقامة وزن لضرورات الحياة ولا لشئون الاجتماع ، كأحكامها الخاصة بتحريم الطلاق وتحريم الزواج على الزوجين إذا فرق بينهما عقب ارتكاب أحدهما لجريمة الزنا[٣] . بل إن بعض أحكامها ليترتب على العمل به إشاعة الفوضى واضطراب الأمن فى المجتمع وانتشار الفسق والفجور ، كاتجاهها إلى إلغاء القصاص وإلغاء حد الزنا على النحو الذى سبق بيانه . وشريعة كهذه لا يمكن أن تصدر عن عاقل ، فضلا عن صدورها عن الله الحليم العليم .

والقرآن يحث على التسامح والعفو عن الأذى ويجعل ذلك مثلا أعلى ، ويعظم من أجر فاعله ؛ ولكن لا يوجبه على الناس ، بل يقرر مسئولية البادىء ، ويقيم جزاءه على أساس القصاص والمقابلة بالمثل ، حتى لا يرهق الناس عسرا

---

(١) آيات ٨٨ — ٩٣ من سورة مريم .

(٢) آية ٧٩ من سورة البقرة .

(٣) انظر تعليق على هذه الأحكام والموازنة بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية فى كتابى عن « حقوق الإنسان فى الإسلام » وفى كتابى عن « بيت الطاعة والطلاق وتعدد الزوجات فى الإسلام » .

من أمرهم ، وحتى يحيط أرواحهم وأموالهم بسياج من القدسية والحماية ، وحتى لا يستهين الفرد بانتهاك حقوق الآخرين وتعدى حدود الله . وفى هذا يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ؛ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين[1] » ، ويقول : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »[2] ، ويقول : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »[3] . — على حين أن هذه الأناجيل تحاول أن توجب على جميع الناس التسامح ، وتكاد تفرض على الفرد العفو عما يلحقه من غيره من ضرر وأذى ؛ « فإذا صفعه أحد على خده الأيمن وجب عليه أن يدير له الخد الآخر ليصفعه عليه كذلك ، وإذا نازعه أحد فى إزاره وادعى ظلما أنه له وجب عليه أن يتنازل له عن إزاره ورِدائه معاً » . — وهذا ، ولا شك ، مثل أعلى للأخلاق الكريمة قد يفعله صفوة من خيار الناس ممن سماهم القرآن « ذوى الحظ العظيم » ، ولكن لا يعقل أن شريعة سماوية تجعله واجبا على جميع الناس كما تفعل هذه الأناجيل .

والقرآن يذكر أن الحواريين كانوا من أنصار الله ومن الداعين إلى عقيدة التوحيد : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله »[4] ؛ على حين أن هذه الأناجيل ينسب تدوينها لبعض حوارى المسيح وتلاميذه وتابعيهم مع اشتمالها

---

(١) آية ١٢٦ من سورة النحل .

(٢) آيات ٤٠ — ٤٣ من سورة الشورى .

(٣) آيتى ٣٤ ، ٣٥ من سورة فصلت .

(٤) آخر آية من سورة الصف .

على تقرير عقيدة الشرك والتثليث وألوهية المسيح ونسبة الولد لله . فإما أن يكون الأشخاص الذين تنسب إليهم هذه الأناجيل هم غير الحواريين والأنصار الذين يحدثنا عنهم القرآن ؛ وإما أن يكونوا هم الذين يحدثنا عنهم القرآن ويذكر أنهم أنصار الله والدعاة إلى توحيده ، وتكون هذه الكتب من تأليف أناس آخرين ونسبت إليهم بهتانا وزورا . وقد رأينا فيما سبق أن أئمة الباحثين فى هذه الأمور فى الوقت الحاضر يقطعون بأن مؤلف إنجيل يوحنا شخص آخر غير يوحنا الحوارى . وما حدث فى إنجيل يوحنا يمكن أن يكون قد حدث مثله فى غيره من الأناجيل . بل إن جماعة العلماء الذين أشرفوا على تحرير المسائل المسيحية فى دائرة المعارف الفرنسية المعروفة باسم « لاروس القرن العشرين » ليذهبون إلى أن التحقيق العلمى والتاريخى يؤيد أن هذه الأناجيل قد كتبها أناس غير الحواريين والتلاميذ والتابعين الذين تنسب إليهم .

— ٧ —

الأناجيل غير المعتمدة عند المسيحيين

كان لدى المسيحيين فى القرنين الأول والثانى الميلاديين أناجيل كثيرة غير الأناجيل الأربعة السابق ذكرها . وكان لكل فرقة من فرقهم إنجيلها أو أناجيلها الخاصة التى تعتمد عليها وتغفل ما عداها من الأناجيل أو تحكم بزيفها وبطلانها . فكان ثمة إنجيل ينسب لمتى غير إنجيله السابق ذكره فى الأناجيل الأربعة ، وإنجيل ينسب لبرنابا ، وإنجيل ينسب للحوارى يعقوب Saint Jacques وإنجيل ينسب للحوارى توماس Saint Thomas (ويقص هذان الإنجيلان الأخيران أمورا أغفلتها الأناجيل الأربعة عن تاريخ مريم وطفولة المسيح) ، وإنجيل ينسب للقديس نيكوديم Saint Nicodème (أحد رؤساء اليهود فى عهد المسيح ، وقد لقى المسيح وجرت له معه مناقشات فى الشئون الدينية ، وآمن

برسالته ، وأظهر إيمانه بعد رفع المسيح .— وقد كتب إنجيله باليونانية ، ويقص فيه بعض تفاصيل لم تذكرها الأناجيل الأربعة عن موت المسيح ونزوله إلى «المطهر» أوالبرزخ أوالأعراف les limbes (وهوعند المسيحيين مقر الأرواح الطيبة التي مات أصحابها قبل بعث المسيح ومقر أرواح الأطفال الذين ماتوا من قبل أن يعمدوا، ومقر مرتكبي الخطايا من المسيحيين ؛ و يجتاز هؤلاء جميعاً في المطهر مرحلة ألم وعذاب قبل أن يدخلوا الجنة) ، و إنجيل يقال له « إنجيل السبعين » و ينسب إلى تلامس ، و إنجيل يقال له « إنجيل الاثنى عشر » l'Evangile des Douze ، و إنجيل اشتهر باسم « التذكرة » ، و إنجيل كان يسمى « إنجيل العبريين أو الناصريين » l'Evangile des Hélreux ou des Nazaréens ، و إنجيل كان يسمى « إنجيل المصريين » l'Evangile des Egyptiens ، وكان لكل من أتباع ديصان وأتباع مانى وأتباع مرقيون أو مرسيون Marçions (١) وأتباع إبيون les Ebionites انجيل خاص يختلف عن إنجيل من عداهم .

ثم أرادت الكنيسة المسيحية فى أواخر القرن الثانى الميلادى أو أوائل القرن الثالث أن تستبعد الأناجيل غير المعتمدة فى نظرها وتحكم ببطلانها، وتحافظ على ما تعتقد صدق حقائقه وصحة نسبته إلى صاحبه ؛ فاختارت الأناجيل الأربعة السابق ذكرها من بين الأناجيل الكثيرة التى كانت رائجة حينئذ ؛ وقررت أنها هى وحدها الأناجيل الصادقة فى حقائقها وفى صحة نسبتها إلى أصحابها ، وأن ما عداها من الأناجيل أناجيل موضوعة مزيفة غير صحيحة فى حقائقها ، ومعظمها غير صحيح فى نسبته إلى من ينسب إليه ؛ وأرادت المسيحيين على قبولها ورفض ما عداها ؛ وتم لها ما أرادت ؛ فصارت هذه الأناجيل الأربعة هى المعتمدة دون سواها ؛ مع أن هذه الأناجيل كانت قبل ذلك العهد أقل ذيوعاً وشهرة

---

(١) سنتكلم على مرسيون وفرقته فى الفقرة التاسعة من هذا الفصل .

من بعض الأناجيل الأخرى ، بل كانت مجهولة لكثير من المسيحيين ؛ وأول من أذاع ذكر هذه الأناجيل القديس إرينيه Saint Irénée إذ قرر فى سنة ٢٠٩ أن هذه الأناجيل الأربعة هى مجرد صور لإنجيل واحد l'Evangile tetramophe . ثم جاء من بعده القديس كليمان الإسكندرى Saint Clément d'Alexandrie (من كبار رجال الكنيسة وفقهائها توفى سنة ٢٢٠) وقرر فى سنة ٢١٦ أن من واجب المسيحى التسليم بصحة هذه الأناجيل الأربعة .

هذا ، وسنلقى فيما يلى نظرة على ثلاثة من الأناجيل غير المعتمدة وهى إنجيل متى غير المعتمد وإنجيل الإبيونيين وإنجيل برنابا ، لاختلافهما اختلافاً جوهرياً عن الأناجيل الأربعة فى بعض نواحى العقيدة وشخصية المسيح وتاريخه وتاريخ مريم ، ولاتفاقها فى بعض هذه الأمور مع ما قرره القرآن ، مفصلين القول بعض التفصيل فى إنجيل برنابا لكثرة وجوه الخلاف بينه و بين الأناجيل الأربعة وكثرة وجوه الاتفاق بينه و بين القرآن وعقائد المسلمين، ومجملين القول فى الإنجيلين الآخرين لأنهما لا يبلغان مبلغ إنجيل برنابا فى هذه الوجوه .

اما إنجيل متى غير المعتمد عند المسيحيين l'Evangile de Pseudo Mathieu فمن أهم ما يختلف فيه عن الأناجيل الأربعة ما يذهب إليه فى تاريخ مريم أم المسيح . وذلك أن الأناجيل الأربعة ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، تذكر أن مريم كانت مخطوبة أو زوجة ليوسف النجار ، وأنها جاءت بالمسيح بدون أن يمسها يوسف . وأما إنجيل متى غير المعتمد عندهم فيقرر أنها لم تكن زوجة ولا مخطوبة وإنما كانت من العذارى اللائى نذرن أنفسهن ونذرهن أهلهن لخدمة المعبد ، أى كانت من الراهبات اللائى كن يتوفرن على العبادة وخدمة المعابد التى يعكفن فيها(١) . وهذه الطائفة كان يحرم على أفرادها الزواج والاتصال بالرجال ،

(١) V. Westermarck : Origine et Dévelopement des Idées Morales (tra. fran.) T.11, p. 398.

كشأن الراهبات المسيحيات فى الوقت الحاضر . و يتفق هذا من بعض نواحيه مع ما ورد فى القرآن الكريم فى هذا الصدد إذ يقول : « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى، وإنى سميتها مريم ، و إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »[1] .

وأما إنجيل الأبيونيين l'Evangile des ébionites فهو إنجيل مدون باللغة الآرامية كانت تتمسك به فرقة مسيحية تسمى فرقة الإبيونيين نسبة إلى زعيمها إبيون Ebion . وقد ظل لهذه الفرقة أشياع حتى أواخر القرن الرابع الميلادى ثم انقرضت بعد ذلك . و يقر هذا الإنجيل جميع شرائع موسى ، و يعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم و ينكر ألوهيته ، و يعتبره مجرد بشر رسول . وهو فيما يتعلق بشخصية المسيح يتفق مع العقائد الإسلامية المستمدة من نصوص القرآن الكريم .

وأما إنجيل برنابا فهو منسوب للقديس برنابا الذى ترجمنا له فى الفقرة الثانية من هذا الفصل . وكان معروفاً لدى المسيحيين منذ أقدم عصورهم أن لبرنابا إنجيلا ، وورد ذكر هذا الإنجيل فيما ينسب لقدامى رجال الكنيسة من بحوث وقرارات ، ومن ذلك القرار الذى أصدره البابا جلاسيوس الأول Saint Gélase 1er(الذى تولى بابوية الكنيسة الكاثوليكية بروما من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٦) وعدد فيه الكتب المنهى عن قراءتها ، وذكر من بين هذه الكتب إنجيل برنابا .

---

(١) آيات ٣٥ — ٣٧ من سورة آل عمران .

وهذا يدل على أن إنجيل برنابا كان معروفاً فى القرن الخامس الميلادى ، أى قبل بعثة رسولنا عليه السلام بنحو قرنين .

غير أنه يظهر أنه قد اختفت من بعد ذلك جميع نسخ هذا الإنجيل ولم يعد الناس يعرفون شيئاً عن محتوياته . ولعل تحريم قراءته هو الذى انتهى به إلى ذلك. وظل الأمر على هذه الحال حتى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى. وفى سنة ١٧٠٩ عثر كريمر أحد مستشارى ملك روسيا على نسخة من هذا الإنجيل مكتوبة باللغة الإيطالية وعلى هامشها تعليقات باللغة العربية . وانتقلت هذه النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ إلى البلاط الملكى بڤيينا .

وغنى عن البيان أن هذه النسخة مترجمة عن اللغة التى كتب بها فى الأصل هذا الإنجيل . فإذا صح أن مؤلفه هو برنابا فإن من الراجح أن يكون قد كتبه بإحدى اللغات الثلاث التى كانت المؤلفات الدينية وغيرها تدون بها فى عصره وفى بيئته وهى اللغات العبرية والآرامية واليونانية . ولا يمكن أن يكون قد كتب فى الأصل باللغة الإيطالية ؛ لأن اللغة الإيطالية لغة حديثة لم يتم تكونها وانشعابها عن أمها اللاتينية إلا حوالى القرن السادس عشر الميلادى .

هذا ويختلف هذا الإنجيل اختلافا جوهريا عن الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين فى كثير من نواحى العقيدة وشخصية المسيح وتاريخه ، ويتفق كل الاتفاق فيما يقرره فى هذه الشئون مع العقيدة الإسلامية المستمدة من القرآن — ويرجع أهم ما خالف فيه الأناجيل الأربعة المعتمدة ووافق فيه العقيدة الإسلامية إلى الأمور الثلاثة لآتية :

١ — أنه يقرر أن المسيح ليس إلا بشراً رسولا وأنه ليس إلاها ولا ابنا لله. فهو يقول فى مقدمة إنجيله : « أيها الأعزاء إن الله العظيم قد اختصنا بنبيه يسوع

المسيح رحمة عظيمة للعالمين ، وخصه بمعجزات اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين ، فأخذوا يبشرون بتعاليم ممعنة فى الكفر ، داعين أن المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذى أمر الله به ومجوزين كل لحم نجس[1] . وقد ضل مع هؤلاء بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسف والأسى . وهذا هو ما دعانى لأن أسطر الحق فى هذه الشئون » . ويروى فى آخر الفصل الثالث والتسعين أنه قد « قدم على المسيح كبير الكهنة مع الوالى الرومانى والملك هيرودس ملك اليهود، فذكر له كبير الكهنة أن فريقاً من الناس يقولون إنه إلاه وأن فريقاً آخر يقولون إنه ابن الله ، وطلب إليه أن يعمل على إزالة هذه الفتنة التى ثارت من أجله . فقال له يسوع وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تخمد الفتنة ؟ ! وهل جننت أنت أيضاً ؟ ! وهل أمست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا ؟ ! . ثم قال : إنى أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ماقاله الناس عنى من أنى أعظم من بشر، لأنى بشر مولود من امرأة، وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر ... » . — ويقول فى آخر الفصل السبعين إن يسوع قد نظر إلى الحواريين عند مابلغه افتتان الناس به وادعائهم أنه إلاه أو أنه ابن الله، وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى ذلك. فأجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله. فغضب حينئذ يسوع وانتهره قائلا: « اذهب وانصرف عنى ، لأنك أنت الشيطان ... » .

٢ — أنه يقرر أن المسيح لم يصلب ولكن شُبّه لهم ، فيتفق هذا مع مايقرره القرآن الكريم إذ يقول « ... وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وماصلبوه ولكن شُبّه لهم ... »[2] . فيقرر هذا الإنجيل أن الله التى شبه المسيح على يهوذا الإسخريوطى فأخذوه وصلبوه ظانين أنه المسيح.

---

(١) انظر ترجمة الحوارى يعقوب الصغير وما أدخله من تعديل فى موضوع الختان وإحلال لحم الخنزير فى الفقرة الأولى من هذا الفصل صفحة ٥٨ .

(٢) آية ١٠٧ من سورة النساء .

وفى هذا يقول ما نصه : « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جم غفير، فانسحب إلى البيت خائفاً . وكان الأحد عشر نياما (يقصد الحواريين الأحد عشر) . فلما رأى الله الخطر على عبده أمر سفراءه جبريل وميخائيل ورفائيل وأدريل (أى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل) أن يأخذوا يسوع من العالم . فأخذوه من النافذة المشرفة على الجنوب ووضعوه فى السماء الثالثة مع الملائكة الذين يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون... ودخل يهوذا بعنف إلى الحجرة التى عرج منها بالمسيح؛ وكان التلاميذ كلهم نياما . فأتى الله بأمر عجيب ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه ، وأصبح شبيهاً بيسوع فى كل شىء ، حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين هو المعلم (يقصد المسيح) . لذلك تعجبنا وأجبنا أنت يا سيدى معلمنا ، أنسيتنا الآن ... » .

ويذكر فى موطن آخر : « الحق أقول : إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع ، لذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أنه كان نبيا كاذبا ، وأن الخوارق التى ظهرت على يديه إنما ظهرت بصناعة السحر، لأن يسوع قال إنه لا يموت ... » ـ ثم يذكر أن يسوع طلب إلى الله أن ينزل إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه وليزيل ما علق بنفوس الناس من شك فى أمره ومن اعتقاد بأنه هو الذى صلب، وأنه نزل ثلاثة أيام . ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات ، وقال لهم : إن الله قد وهبنى أن أعيش : أتحسبوننى أنا والله كاذبين... الحق أقول لكم إننى لم أمت ، بل الذى صلب هو يهوذا الخائن . احذروا لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، وكونى شهودى فى كل إسرائيل وفى العالم أجمع على جميع الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها » .

٣ — أنه يقرر أن مسيا أو المسيح المنتظر الذى ورد ذكره فى العهد القديم ليس يسوع بل محمدا عليه السلام. وقد ذكر محمدا، أى لفظا يفيد مدلوله شخصه بكثر حمد الناس له وثناؤهم عليه، فى كثير من فصوله. وقال إنه رسول الله وإن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور: لا إلاه إلا الله؛ محمد رسول الله. ويروى عن المسيح أنه قال: « إن الآيات التى يظهرها الله على يدىّ تدل على أنى أتكلم بما يوحى إلىّ به؛ ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه (يقصد المسيح المنتظر الذى يتحدث عنه العهد القديم) لأننى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى، وسيأتى بعدى بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية ». — ويذكر فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاما وافيا فى تبشير المسيح بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح أن يصرح لهم به، فصرح بما يعلن حقيقته و يبين ماله من شأن.

وهذا يتفق فى جملته مع ما يذكره القرآن عن عيسى إذ يقول: « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدىّ من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »(١).

* * *

و يخالف هذا الإنجيل كذلك العقيدة المسيحية والعقيدة اليهودية و يتفق مع أرجح الآراء عند المسلمين فيما ينقله عن المسيح بشأن الذبيح الذى تقدم به ابراهيم عليه السلام للفداء، فيقرر أن المسيح قد بيّن أن هذا الذبيح هو إسماعيل وليس اسحاق كما هو مذكور فى توراة اليهود. وهذا هو نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام. « الحق أقول لكم، إنكم إذا أمعنتم النظر فى

---

(١) آية ٦ من سورة الصف.

كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا . لأن الملاك قال يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله . فأجاب إبراهيم ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله . فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا خذ ابنك بكرك واصعد إلى الجبل لتقدمه ذبيحة . فكيف يكون اسحاق البكر وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين » .

* * *

هذا ، ويقدم فقهاء المسيحيين وباحثوهم شواهد كثيرة تدل على أن هذا الإنجيل موضوع بقلم بعض المسلمين ، وأن مؤلفه قد نسبه زورا إلى برنابا لترويج ما يتضمنه . وكثير مما يقدمه هؤلاء من شواهد لا يقطع بصحة ما يذهبون إليه ؛ وإن كان بعض مايشتمل عليه هذا الكتاب نفسه يحمل على الظن بأنه موضوع، وخاصة ما يقرره من أمور تمثل روايات ذكرها بعض مؤلفي المسلمين ولا يطمئن إلى مثلها المحققون منهم ؛ كما يقرره عن آدم وأنه لما طرد من الجنة رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور : لا إلاه إلا الله محمد رسول الله ، وما ينسبه إلى المسيح من أقوال تمثل تحقيقات الفقهاء والمؤرخين لا كلام الأنبياء كالأقوال التي ينسبها إلى المسيح بشأن الذبيح وما يذكر أن المسيح قد قدمه من أدلة على أنه هو إسماعيل لا إسحاق .

والإسلام ليس فى حاجة إلى كتاب كهذا تحوم حوله شكوك كثيرة لتأييد ما يذكره القرآن عن المسيح وحقيقة ديانته وتبشيره بالرسول . فالقرآن ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو الذى نتخذه دليلا فى الحكم على أناجيلهم المزعومة ومبلغ تحريفها للإنجيل الذى أنزله الله على عيسى ؛ ولا ينبغى أن نتخذ سفرا مشكوكا فى صحة نسبته إلى صاحبه دليلا على ذلك ولا أن نعتمد عليه لإقناع المسيحيين ببطلان ما أقروه من أناجيل .

— ٨ —

بقية أسفار العهد الجديد

تمثل الأناجيل الأربعة المعتمدة المجموعةَ الأولى من أسفار العهد الجديد، وهى فى نظرهم أهم مجموعاته. أما بقية أسفار هذا العهد فعددها ثلاث وعشرون سفرا منها سفران منفردان، وهما سفر «أعمال الرسل» للوقا وسفر «رؤيا يوحنا»، ومجموعتان من الأسفار: تضم إحداهما أربعة عشر سفرا وهى رسائل بولس؛ وتضم الأخرى سبعة أسفار وهى الرسائل الكاثوليكية. وقد فرغنا فيما سبق من الكلام على مجموعة الأناجيل، وسنتكلم فيما يلى على الأسفار الثلاثة والعشرين الباقية من أسفار العهد الجديد، ونذكرها حسب ترتيبها التقليدى فى هذا العهد.

١ — سفر «أعمال الرسل» Actes des Apôtres (أو سفر بركسيس Praxis مأخوذ من كلمة يونانية معناها الأعمال). وينسب هذا السفر للقديس لوقا صاحب الإنجيل الثالث الذى تحدثنا عنه وعن إنجيله فى الفقرتين الثانية والرابعة من هذا الفصل. وقد كتبه باللغة اليونانية حوالى سنة ٦٣ ميلادية على أرجح الأقوال، أى فى العصر نفسه الذى كتب فيه إنجيله. ولا يستأثر هذا الكتاب إلا بحيز يسير من العهد الجديد لا يزيد كثيراً على عشره (يستغرق نحو ثلاثين صفحة من صفحات العهد الجديد البالغة نحو ٢٥٠ صفحة فى إحدى ترجماته بالفرنسية). وموضوعه تاريخ حياة الحواريين وتاريخ طائفة ممن كان لهم أثر كبير فى المسيحية من التلاميذ والتابعين. فالكلمة الأولى من عنوان هذا الكتاب، وهى كلمة «أعمال» معناها تاريخ حياتهم أو ما عملوه وما أثر عنهم. والكلمة الثانية من عنوانه وهى «الرسل» معناها فى اصطلاح المسيحيين الحواريون، لأنهم يعتقدون

أن هؤلاء قد أرسلهم الرب وهو عيسى إلى مختلف شعوب العالم لنشر المسيحية بين الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ؛ وعددهم كما تقدم اثنا عشر حواريا ؛ وقد ضم إليهم فيما بعد الرسول بولس الذى ظهر له المسيح بعد رفعه — على حد مايعتقده المسيحيون — وأرسله إلى الأمم الضالة . غير أن هذا الكتاب لا يقتصر على تاريخ الحواريين الأصليين وتاريخ بولس ، بل يعرض كذلك ، كما قلنا ، لتاريخ طائفة ممن كان لهم أثر كبير فى المسيحية من التلاميذ والتابعين كبرنابا ومرقص . وهو يتناول شخصياته بتفصيل فى مختلف شئون حياتهم ، وخاصة ما تعلق منها بالناحية الدينية ، كجهادهم وتقلبهم فى البلاد لنشر المسيحية ، وما أحرزوه من نجاح فى هذا السبيل ، وماظهر على أيديهم من معجزات ، ومالاقوه من عنت وعذاب واستشهاد . وفى ثنايا هذا العرض التاريخى يتحدث عن كثير من العقائد والشرائع التى كان ينشرها هؤلاء بين الناس . وقد عنى لوقا بوجه خاص فى كتابه هذا بتاريخ حياة بولس وجهاده فى سبيل نشر المسيحية وما ظهر على يديه من معجزات ، حتى لقد وقف عليه وحده ما يزيد على نصف صفحات كتابه . وتدل العبارة التى افتتح بها لوقا كتابه هذا أنه قد كتبه للشخص نفسه الذى كتب له إنجيله ، وهو ثيو فيلوس . فهو يفتتح كتابه بهذه العبارة : « ثيوفيلوس ، قد تكلمت فى كتابى الأول (يقصد إنجيله الذى كتبه لهذا العظيم نفسه) على جميع مافعله المسيح وما قرره من تعاليم منذ نشأته إلى أن رفع إلى السماء ، بعد أن أعطى أوامره ، عن طريق روح القدس ، إلى الحواريين الذين اصطفاهم » . ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد تاريخ الحواريين بعد حادث الصلب فيقول : « وقد ظهر المسيح حيا للحواريين بعد صلبه ، وقدم لهم عدة أدلة على صدقه ، وظل بينهم أربعين يوما متحدثا إليهم بأمور كثيرة عن ملكوت الله ... » .

ولما كان هذا الكتاب يتفق مع الأناجيل فى أن موضوعه الأساسى موضوع تاريخى ، لأن الموضوع الأساسى للأناجيل هو تاريخ المسيح ، والموضوع الأساسى

لهذا الكتاب هو تاريخ أنصاره من بعده ، لذلك جرت العادة بأن تطلق كلمة « الأسفار التاريخية » على الأناجيل الأربعة وسفر أعمال الرسل . صحيح أن كل سفر من هذه الأسفار يعرض فى ثنايا مايذكر من تاريخ لكثير من شئون العقيدة والشريعة ؛ ولكنه يتناول هذه الأمور عرضاً و بمقدار اتصالها بموضوعه الأساسى وهو التاريخ .

هذا ، ويذكر التاريخ المسيحى أسفاراً أخرى قديمة عرضت للموضوع نفسه الذى عرض له هذا الكتاب وسميت باسمه ، من أشهرها سفر « أعمال الرسل » لبرنابا . ولكن الكنيسة المسيحية اعتمدت هذا الكتاب وحده ، وهو سفر « أعمال الرسل » للوقا ؛ ورفضت ماعداه من الأسفار القديمة التى عرضت لموضوعه نفسه وحكمت بزيفها وعدم صحة نسبتها إلى من تنسب إليهم من الحواريين والتلاميذ ، أى اعتبرتها من الأسفار الخفية Apocryhes حسب الاصطلاح المسيحى[1] ، كما حكمت الحكم نفسه على ما عدا الأناجيل الأربعة من الأناجيل التى كانت معروفة لدى المسيحيين فى عهودهم الأولى . ومن أجل ذلك بقى سفر « أعمال الرسل » للوقا وانقرض ما عداه من الأسفار القديمة التى عرضت لما عرض له ، فلا يحدثنا التاريخ المسيحى إلا عن أسمائها ، ولا نكاد نعلم شيئا يعتد به عن مبلغ الخلاف بينها وبين سفر لوقا ؛ وإن كان من الممكن أن نستنتج ، فى ضوء ما ذكرناه عن إنجيل برنابا ومبلغ الخلاف بينه وبين الأناجيل الأربعة ، أن سفر « أعمال الرسل » الذى ينسب إلى برنابا لابد أن يكون كذلك مختلفا فى قصصه التاريخى اختلافا كبيرا عن سفر « أعمال الرسل » للوقا .

(٢ — ١٥) رسائل بولس Epîtres de saint Paul وعددها أربع عشرة رسالة كتبها كلها فى الأصل باللغة اليونانية فى عصور مختلفة تبدأ من نحو سنة ٤٥

---

(١) انظر معنى هذه الكلمة فى أول الفقرة السابعة من الفصل الأول من هذا الكتاب ، ص ٢١ .

وتنتهى حوالى سنة ٦٥ ؛ منها عشر رسائل إلى بعض البلاد وبعض الشعوب وأربع رسائل إلى بعض تلاميذه .

أما الرسائل العشر التي أرسلها إلى بعض البلاد وبعض الشعوب فهى : رسالة إلى الرومان ؛ ورسالتان إلى أهل قورنثوس Corinthiens ؛ ورسالة إلى أهل غلاطيا Galates ؛ ورسالة إلى أهل إفسوس Ephésiens ؛ ورسالة إلى أهل فيلبى Philippiens ؛ ورسالة إلى أهل كولوس Colossiens ؛ ورسالتان إلى أهل تسالونيكى Thessaloniciens ؛ ورسالة إلى العبريين .

وأما الرسائل الأربع التى أرسلها إلى بعض تلاميذه فهى : رسالتان إلى تلميذه تيموثاوس Timothée؛ ورسالة إلى تلميذه تيطس Tite ؛ ورسالة إلى تلميذه فيليمون Philémon .

وترتب رسائل بولس فى العهد الجديد حسب ترتيبها السابق ما عدا رسالة بولس إلى العبريين فتوضع فى آخر هذه الرسائل جميعا .

وتستأثر هذه الرسائل بأكبر حيز من العهد الجديد ، حتى إنها لتستغرق وحدها نحو ثلث صفحاته (تستغرق نحو ٧٥ صفحة من صفحات العهد الجديد البالغ عددها نحو ٢٥٠ فى إحدى ترجماته إلى الفرنسية) .

وهى تعرض فى صورة مفصلة لكثير من عقائد الديانة المسيحية وشرائعها وعباداتها وأخلاقها ، وتوجه قسطا كبيرا من عنايتها إلى توضيح العقيدة وتقرير ألوهية المسيح وبنوته لله ومبدأ التثليث :

La Trinité : les trois hypostases : le Père; le Fils; et le Saint Esprit.

ومن أجل ذلك تعتمد المسيحية الحاضرة على رسائل بولس أكثر من اعتمادها على ما عداها من أسفار العهد الجديد ، وتنسب هذه المسيحية إلى بولس أكثر مما تنسب إلى سواه ؛ حتى إن كلمة « الرسول » إذا أطلقت تنصرف عندهم إليه وحده .

صحيح أن الأناجيل نفسها وسفر أعمال الرسل قد عرضت كذلك للعقائد والشرائع والأخلاق؛ ولكنها عرضت لهذه الأمور فى صورة مجملة وفى ثنايا قصصها التاريخى عن المسيح وأنصاره . و بعض ما ذكرته عن هذه الأمور قد أوردته فى عبارات غامضة يعوزها الشرح والتوضيح . على حين أن رسائل بولس قد جعلت هذه الأمور موضوعها الأصيل ، وعالجتها فى صورة مفصلة واضحة ، وكانت صريحة كل الصراحة فى إثبات ألوهية المسيح وبنوته لله وعقيدة التثليث .

هذا، ولم تعتمد الكنيسة هذه الرسائل جميعا إلا فى سنة ٣٦٤. أما قبل ذلك فكان بعض هذه الرسائل موضع شك فى صحة نسبته إلى بولس عند كثير من المسيحيين ، حتى إن مجمع نيقيه Concile de Nicée المنعقد سنة ٣٢٥ وهو من أكبر مجامعهم « المسكونية » œcuméniques (أى التى اجتمع فيها ممثلون لجميع بلاد العالم المسيحى) لم يعترف برسالة بولس إلى العبرانيين واعتبرها مزيفة مدسوسة عليه .

وقد ظهر للمحدثين من علماء المسيحيين المشتغلين فى الوقت الحاضر بشئون ديانتهم وأسفارها أن من هذه الرسائل ثلاث رسائل موثوق بصحتها وصحة نسبتها إلى بولس وهى رسالته إلى الرومان ورسالتاه إلى أهل كورنثوس ، وأربع رسائل مقطوع بعدم صحة نسبتها إليه وهى رسالته إلى أهل إفسوس ورسالتاه إلى تيموثاوس ورسالته إلى تيطس ، وأن ما بقى من هذه الرسائل مشكوك فى صحة نسبتها إليه .

(١٦ — ٢٢) الرسائل الكاثوليكية les Epîtres catholiques وهى سبع رسائل كتبت كلها فى الأصل باللغة اليونانية ؛ وكتبت فى عهود مختلفة يرجع أقدمها إلى حوالى سنة ٥٠ وأحدثها إلى حوالى سنة ٩٠ بعد الميلاد ، منها رسالة للحوارى يعقوب الصغير ورسالتان لبطرس كبير الحواريين وثلاث

رسائل للحوارى يوحنا صاحب الإنجيل الرابع ورسالة للحوارى يهوذا أخى يعقوب الصغير . — وهى مرتبة فى العهد الجديد حسب ترتيبها السابق .

ولا تستأثر هذه الرسائل كلها فى العهد الجديد إلا بحيز يسير لا تزيد نسبته كثيراً على نسبة خمسة فى المائة (تستغرق نحو ١٥ صفحة فقط من صفحات العهد الجديد البالغ عددها ٢٥٠ صفحة فى إحدى التراجم الفرنسية) ، والرسائل الثلاث الأخيرة من هذه الرسائل ، وهى الرسالتان الثانية والثالثة ليوحنا ورسالة يهوذا ، لا تتجاوز كل رسالة منها صفحة واحدة .

وتعرض هذه الرسائل لبعض نواح من عقائد الديانة المسيحية وشرائعها وعباداتها وأخلاقها ، وتعنى بوجه خاص بالرد على البدع المستحدثة . فهى تتفق إذن فى موضوعها مع رسائل بولس ، وإن كانت تقل عنها كثيراً فى حجمها واستيعابها لهذا الموضوع . ومن أجل ذلك يطلق على رسائل بولس والرسائل الكاثوليكية اسم « الأسفار التعليمية » للعهد الجديد ، وذلك فى مقابل أسفار الأناجيل وسفر أعمال الرسل التى يطلق عليها اسم « الأسفار التاريخية » كما تقدم بيان ذلك .

هذا ، ولم تعتمد الكنيسة هذه الرسائل جميعاً إلا فى سنة ٣٦٤ . أما قبل ذلك فكان كثير منها موضع شك فى صحة حقائقها وصحة نسبتها إلى أصحابها عند كثير من المسيحيين ، حتى إن مجمع نيقية نفسه ، وهو من أكبر مجامعهم « المسكونية »[1] كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، لم يعتمد إلا رسالتين اثنتين من هذه الرسائل وهى رسالة بطرس الأولى ورسالة يوحنا الأولى ورفض ما عداهما .

٢٣ — « رؤيا يوحنا » أو « السفر النبوى » أو « التنبئى » أو « الأبوكاليبس » Apokalupsis (وهى كلمة يونانية الأصل معناها الوحى أو الرؤيا ومنها الكلمة الفرنسية Apocalypse) .

---

(١) انظر معنى هذه الكلمة فى صفحة ٩٣ .

وقد كتبها يوحنا صاحب الإنجيل الرابع باللغة اليونانية ، وكان تأليفها على أرجح الآراء فى عهد الامبراطور دوميسيان Domitien (امبراطور الدولة الرومانية الغربيه من سنة ٨١ إلى سنة ٩٦ م) . وتستأثر فى العهد الجديد بمثل الحيز الذى تستأثر به الرسائل الكاثوليكية (نحو ١٥ صفحة من ٢٥٠ صفحة) .

وهى رؤيا منامية رآها الرسول يوحنا وأوحى إليه فيها بكثير من حقائق الديانة المسيحية وأحداث المستقبل . ويرجع أهم ما تشتمل عليه هذه الرؤيا إلى الأمور الآتية :

١ — تقرير ألوهية المسيح . وهى تصوره فى عليائه تارة فى صورة شيخ أشيب متمنطق عند ثدييه بمنطقة من ذهب ، وتقدح عيناه بالشرر ، ويحمل فى يده سبعة كواكب ، ويخرج من فيه سيف ماض ذو حدين[1] ، وتارة تصوره فى صورة خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبعة أعين[2] .

٢ — تقرر سلطان المسيح فى السماء وإشرافه فى عليائه على شئون الكنيسة وعلمه بجميع أحوالها والقوامين عليها ، وتبين أعمال الملائكة فى السماء وخضوعهم للمسيح .

٣ — تقرر أن الناس سيبعثون يوم القيامة ويعرضون على المسيح ، وأنه هو الذى سيتولى حسابهم على أعمالهم فيجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

٤ — تذكر طائفة من الأحداث التى ستحصل فى العالم الإنسانى على العموم وفى العالم المسيحى بوجه خاص ، وتذكر هذه الأحداث فى صور رمزية مبهمة . ومن ذلك خبر الدابتين الغريبتين اللتين ستخرجان قبيل قيام الساعة : تخرج إحداهما

---

(١) انظر فقرات ١٢ — ١٦ من الإصحاح الأول من رؤيا يوحنا .

(٢) انظر فقرات ١ — ٧ من الإصحاح الأول من رؤيا يوحنا .

من الأرض والأخرى من الماء وتكلمان الناس[1] .

* * *

هذا ولم تعتمد الكنيسة المسيحية هذه الرسالة إلا فى سنة ٣٦٣ ؛ أما قبل ذلك فكانت هذه الرسالة موضع شك كبير فى حقائقها وفى صحة نسبتها إلى يوحنا الحوارى عند كثير من المسيحيين ، حتى إن مجمع نيقية نفسه المنعقد سنة ٣٢٥ وهو من أكبر مجامعهم « المسكونية[2] » رفض الاعتراف بصحتها . — وقد تقدم أن عددا كبيرا من ثقات الباحثين فى الوقت الحاضر يقطع بأن جميع ماينسب إلى يوحنا من أسفار العهد الجديد بما فى ذلك إنجيل يوحنا نفسه هى أسفار موضوعة ومنسوبة زورا إلى يوحنا الحوارى[3] .

— ٩ —

تطور العقيدة المسيحية

واستقرارها أخيراً على التثليث

اجتازت العقيدة المسيحية مرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى من بعثة المسيح إلى مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ؛ والمرحلة الثانية من مجمع نيقية إلى الوقت الحاضر . وسنتكلم على كل مرحلة منهما على حدة :

المرحلة الأولى : من بعثة المسيح إلى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م

كانت المسيحية فى فاتحة هذه المرحلة — كما ينبئنا القرآن — ديانة توحيد تدعو إلى عبادة إلاه واحد ، وتقرر أن المسيح إنسان من البشر أرسله الله تعالى

---

(١) أشار القرآن الكريم إلى خبر هذه الدابة إذ يقول : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (آية ٨٢ من سورة النمل)

(٢) انظر معنى هذه الكلمة فى صفحة ٩٣ .

(٣) انظر آخر الفقرة الرابعة من هذا الفصل صفحتى ٦٧ ، ٦٨ .

بدين جديد وشريعة جديدة كما أرسل رسلا من قبله ، وأن الإرهاصات التى سبقت بعثته والمعجزات التى ظهرت على يديه بعد رسالته هى من نوع الإرهاصات والمعجزات التى يؤيد الله تعالى بها رسله ، وأن خلقه بدون أب ليس إلا إرهاصاً من هذه الإرهاصات ، وأن أمه صديقة من البشر قد كرمها الله فنفخ فيها من روحه فحملت بالمسيح .

ولكن لم تمض بضع سنين على رفع المسيح حتى أخذت مظاهر الشرك والزيغ والانحراف تتسرب إلى معتقدات بعض الفرق المسيحية ، وافدة إليها أحيانا من فلسفات قديمة ، وأحيانا من رواسب ديانات ومعتقدات كانت سائدة فى البلاد التى انتشرت فيها المسيحية والتى احتك بأهلها المسيحيون .

فانقسم حينئذ المسيحيون إلى طائفتين : طائفة جنحت عقائدها إلى الشرك بالله ؛ وطائفة ظلت عقائدها محافظة على التوحيد . وضمت كل طائفة من هاتين الطائفتين تحت لوائها فرقاً كثيرة :

(ا) فمن أهم الفرق التى انحرفت عقائدها فى هذه المرحلة فرقة المرقيونيين وفرقة البربرانية وفرقة الإليانية وفرقة التثليث .

١ — أما فرقة «المرقيونيين» فإنها تنسب إلى مرقيون أو مرسيون Marcion وهو من رجال القرن الثانى الميلادى . وكان قسيسا ، ثم حكم عليه بالطرد والحرمان. ويقوم مذهبه على الاعتقاد بوجود إلاهين : أحدهما الإلاه العادل Dieu Juste أو الإلاه ديميورج Démiurge أى الخالق والمهندس ، وهو الإلاه الذى اتخذ من بنى إسرائيل شعباً مختاراً وأنزل عليهم التوراة ؛ والآخر الإلاه الخير Dieu Bon الذى ظهر متمثلا فى المسيح وخلّص الإنسانية من خطاياها . وقد كان للإلاه الأول السلطان على العالم حتى ظهر الإلاه الثانى فبطلت جميع أعمال الإله الأول وزال

سلطانه . ومن ثم يقوم هذا المذهب على اطراح العهد القديم (كتب اليهود المقدسة) فى جملته وتفاصيله ، ولا يعترف كذلك بمعظم أسفار العهد الجديد ، والأسفار القليلة التى يعترف بها من أسفار هذا العهد وهى إنجيل لوقا ورسائل بولس لا يعترف بها إلا بعد أن يدخل على نصوصها تغييرات كثيرة تخرجها عن أوضاعها ومدلولاتها الأولى . ويقال إنه كان لهذه الفرقة إنجيل خاص كما سبقت الإشارة إلى ذلك [1] .

ولعل هذا المذهب متأثر بالديانة الزرادشتية الفارسية فى مراحلها الأخيرة . فقد انتهى الأمر بالزرادشتيين إلى الاعتقاد بوجود إلاهين ، إلاه للخير وكانوا يسمونه أهورا مزدا ، وإلاه للشر وكانوا يسمونه أهريمان ، كما سيأتى بيان ذلك فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

وعلى الرغم من الحرب الشعواء التى شنتها الكنيسة على هذا المذهب فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير فى إيطاليا وأفريقيا ومصر ، وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ، أى حتى انتهاء المرحلة التى نتحدث عنها ، ثم أخذ يضمحل ويتناقص أتباعه تناقصا كبيرا ، ولكنه لم ينقرض انقراضا تاماً إلا حوالى القرن العاشر الميلادى .

٢ — وأما فرقة « البربرانية » فكانت تذهب إلى القول بألوهية المسيح وأمه معا . ويقرر ابن البطريق مذهب هذه الفرقة فيقول : « ومنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلاهان من دون الله وهم البربرانية ؛ ويسمون الريميتيين » . ولعل هؤلاء هم الذين يشير إليهم القرآن الكريم فيما يخاطب به الله تعالى عيسى بن مريم إذ يقول : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلاهين

---

(١) انظر الفقرة السابقة من هذا الفصل .

من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق[1] » ، وإذ يرد عليهم فى قوله : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام[2] » .

هذا ، وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض كذلك فى نهاية المرحلة التى نتحدث عنها ؛ وإن كان يبدو من ذكرها فى القرآن أنه كان لا يزال لمذهبها أتباع فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام (القرن السابع الميلادى).

ومهما يكن من شىء فإن الاتجاه إلى تقديس مريم قد ترك آثاراً ورواسب كثيرة فى معظم الفرق المسيحية الباقية ، وتتمثل هذه الآثار والرواسب فى عدة معتقدات وطقوس وأعياد خاصة بالسيدة مريم تعتنقها وتقيمها جميع فرق المسيحيين فى الوقت الحاضر باستثناء فرقة البروتستانت .

٣ — وأما فرقة إليان فيؤخذ مما ذكره فى صددها ابن البطريق والشهرستانى فى الملل والنحل أنها كانت تؤله المسيح وتقرر أنه ابن الله وتصدر حقيقته وحمل أمه به وقصة صلبه فى صورة خاصة ، فتذهب إلى أن مريم لم تحمل به كما تحمل النساء بالأجنة وإنما مرّ فى بطنها كما يمرّ الماء فى الميزاب ، لأن الكلمة (الابن) دخلت من أذنها ، وخرجت لتوها من حيث يخرج الولد ، وأن ما ظهر من شخص المسيح فى الأعين إنما هو خيال شبيه بالصورة التى تظهر فى المرآة ؛ فلم يكن المسيح جسما متجسما كثيفا فى الحقيقة . وكذلك القتل والصلب ، فإنهما وقعا على الخيال والظن لا على الحقيقة .

وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض فى نهاية المرحلة التى نتحدث عنها ؛ وإن كان يبدو مما ذكره الشهرستانى فى صددها إذ يقول : « وهؤلاء يقال لهم الإليانية ، وهم قوم بالشام واليمن وأرمينية[3] » ، أنه كان لا يزال لهذه الفرقة أتباع

---

(١) آية ١١٦ من سورة المائدة .

(٢) آية ٧٥ من سورة المائدة .

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ٢٢٧ الجزء الأول ، طبعة مصطفى الحلبى ١٩٦١ .

فى عصره (القرن السادس الهجرى والثالث عشر الميلادى) .

٤ — وأما فرقة التثليث وألوهية المسيح فهى الفرقة التى تذهب إلى أن الإلاه ثلاثة أقانيم وهى الآب والابن وروح القدس ، وأن الإبن أو الكلمة هو المسيح . وكانت كنيسة الإسكندرية من أشد الكنائس تعصبا لهذا المذهب الذى أصبح المذهب الرسمى المقرر لجميع الفرق المسيحية بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م . ولذلك سنرجىء الكلام على تفاصيله إلى أن يحين الكلام على المرحلة الثانية التى اجتازتها الديانة المسيحية .

(ب) ومن أهم الفرق التى ظلت عقائدها محافظة على التوحيد فرقة إبيون وفرقة بولس الشمشاطى وفرقة أريوس .

١ — أما فرقة إبيون أو الإبيونيين Ebionites (أتباع إبيون Ebion) فكانت تقر جميع شرائع موسى ، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم ، وتنكر ألوهية المسيح وتعتبره مجرد بشر رسول . وكان لهذه الفرقة فى تفاصيل عقائدها هذه إنجيل خاص مدون باللغة الآرامية . وقد عرضنا له فى الفقرة السابعة من هذا الفصل — وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض فى أواخر المرحلة التى نتحدث عنها ، وتم انقراضها فى أواخر القرن الرابع الميلادى .

٢ — وأما فرقة الشمشاطى فهم أتباع بولس الشمشاطى Paul de Somosate وكان بولس الشمشاطى هذا أسقفا لأنطاكية Antiohe سنة ٢٦٠ م . وأنكر ألوهية المسيح وقرر أنه مجرد بشر رسول . وقد عقد بأنطاكية من سنة ٢٦٤ إلى سنه ٢٦٩ ثلاث مجامع للنظر فى شأنه ، وانتهى الأمر بحرمانه وطرده . وقد بقى لمذهبه أتباع على الرغم من ذلك حتى القرن السابع الميلادى . ويذكر ابن

حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » عن بولس هذا « أنه كان بطريركا بأنطاكية ، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبدالله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلاهية فيه . وكان يقول لا أدرى ما الكلمة (أى الابن) ولا روح القدس » . ويقول ابن البطريق فى بيان مذهبه : « أن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وإن لبتداء الابن من مريم (أى إنه محدث وليس قديما)؛... ويقولون إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد ولا يؤمنون بالكلمة (أى الابن) ولا بروح القدس ، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وهم البوليقانيون » .

٣ — وأما الأريوسيون فهم أتباع أريوس Arius . وكان أريوس هذا قسيسا فى كنيسة الإسكندرية ، وكان داعياً قوى التأثير ، واضح الحجة ، جريئا فى المجاهرة برأيه . وقد أخذ على نفسه فى أوائل القرن الرابع الميلادى مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما كانت تذهب إليه من القول بألوهية المسيح و بنوته للآب. فقام يقرر أن المسيح ليس إلاها ولا ابناً لله وإنما هو بشر « مخلوق L'arianisme وأنكر جميع ما جاء فى الأناجيل من العبارات التى توهم ألوهية المسيح . ويلخص ابن البطريق مذهبه فيقول : « كان يقول إن الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع وقد كان الآب حينما لم يكن الابن » . وقد تبعه مشايعون كثيرون . فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأى ، وعلى رأسها ميليتوس ؛ وكان أنصاره فى الإسكندرية نفسها كثيرين فى العدد أقوياء فى المجاهرة بما يعتقدون ؛ كما تبعه خلق كثير فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية ، وذلك على الرغم من أن كنيسة الإسكندرية لم تأل جهداً فى محاربته ومحاربة آرائه ، وعلى الرغم من حكمها عليه بالطرد من الكنيسة .

ثم أخذ هذا المذهب يضمحل و يتناقص عدد أتباعه بعد أن حكم مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بطرد أريوس وكفره وأصدر قراره بألوهية المسيح كما سيأتي بيان ذلك. ومازال يضمحل و يتناقص عدد أتباعه حتى انقرض كل الانقراض فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

المرحلة الثانية : من مجمع نيقية سنة ٣٢٥م

إلى الوقت الحاضر

فى سنة ٣٢٥م أمر قسطنطين إمبراطور الرومان بأن يعقد مجمع دينى مسكونى Oeucuménique أى يضم ممثلين لجميع الكنائس فى العالم المسيحى للفصل فى أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه ، ولبيان أى الرأيين يتفق مع الحق ؛ ولتقرير مبدأ صحيح يعتنقه المسيحيون فيما يتعلق بألوهية المسيح ، ولاتخاذ ما ينبغى اتخاذه من قرارات أخرى فى شئون العقيدة والشريعة . فاجتمع فى نيقية Concile de Nicée ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، ولكنهم اختلفوا اختلافاً كبيراً ولم يستطيعوا الإجماع على رأى . و يظهر أن قسطنطين كان يجنح للرأى القائل بألوهية المسيح فأختار من بين المجتمعين ثمانية عشرة وثلثمائة من أشد أنصار هذا المذهب، وألف منهم مجلساً خاصا . وعهد إليهم أمر الفصل فى هذا الخلاف واتخاذ ما يرون اتخاذه من قرارات أخرى فى شئون العقيدة والشريعة ، على أن تصبح قراراتهم مذهباً رسمياً يجب أن يعتنقه جميع المسيحيين . فانتهوا إلى عدة قرارات كان من أهمها القرار الخاص بإثبات ألوهية المسيح وتكفير أريوس وحرمانه وطرده وتكفير كل من يذهب إلى أن المسيح إنسان ، وتحريق جميع الكتب التى لا تقول بألوهية المسيح وتحريم قراءتها . وكان من أشد أنصار هذا القرار والداعين إليه

بطريرك الإسكندرية . ويذكر ابن البطريق نص هذا القرار فى العبارة الآتية : « إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تَحرِم (أى تحكم بالحرمان والطرد) كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه . وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شىء ، أو من يقول إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب ، وكل من يقر أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغير » .

ولم يعرض مجمع نيقية للعنصر الثالث من عناصر الألوهية فى العقيدة المسيحية الحاضرة وهو « روح القدس » ولم يبين حقيقة طبيعته أهو إلاه أم مخلوق . ومن ثم نشب خلاف كبير بين المسيحيين حول هذا الموضوع . وظهرت فرق تقول بأن روح القدس ليس بإلاه وإنما هو محدث مخلوق . وكان من أشهر هذه الفرق أتباع مقدونيوس Macedonius الذى كان بطريارك القسطنطينية فى القرن الرابع الميلادى . فاجتمع من أجل ذلك فى القسطنطينية سنة ٣٨١ م مجمع آخر اشتهر باسم المجمع القسطنطينى الأول . وكان عدد أعضائه مائة وخمسين أسقفاً . وانتهى المجمع بإقرار الرأى القائل بألوهية روح القدس . وكانت كنيسة الاسكندرية من أشد الكنائس تعصبا لهذا الرأى ، كما كانت من أشدها تعصبا للرأى القائل بألوهية المسيح . ولذلك كان لأقوال بطريريك الاسكندرية والحجج التى أدلى بها فى هذا المجمع أثر كبير فى توجيهه إلى هذا القرار . ويصف ذلك ابن البطريق فيقول : « قال تيموثاوس بطريارك الاسكندرية فى هذا المجمع ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئا غير حياته ، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن روح الله مخلوق ، وإذا قلنا إن روح الله مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حى ، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا ، ومن كفر به وجب عليه اللعن ... واتفقوا على لعن مكدونيوس ، فلعنوه هو وأشياعه ، ولعنوا البطاركة

الذين يكونون بعده ويقولون بمقالته » . ويوضح ابن البطريق نص القرار الذى اتخذه هذا المجمع بشأن ألوهية روح القدس فى العبارة الآتية : « زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية (يشير إلى ماقرره مجمع نيقية الأول بشأن ألوهية المسيح)الإيمان بروح القدس الرب المحيى .. وأثبتوا أن الآب والأبن وروح القدس ثلاثة أقانيم ،وثلاثة وجوه،وثلاث خواص، وحدية فى تثليث ، وتثليث فى وحدية ، كيان واحد فى ثلاثة أقانيم » .

وقد لخص عقيدة التثليث التى انتهت إليها قرارات المجمعين السابقين وما يتصل بها من الاعتقاد بصلب للمسيح لتكفير الخطيئة الأزلية وبعثه ورفعه إلى السماء ومحاسبته الخلق يوم القيامة نوفل بن نعمة الله بن جرجس فى كتابه سوسنة سليمان إذ يقول : « إن عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى [١] ، هى الإيمان :

١ — بالإله واحد ، آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، صانع ما يرى وما لا يرى ؛

٢ — وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله ، إلاه حق من إلاه حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للاب فى الجوهر الذى به كان كل شيء ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء . وصلب حيا على عهد بيلاطس Pilate [٢] وتألم وقبر . وقام من الأموات فى اليوم الثالث على مافى الكتب. وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب . وسيأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه .

---

(١) كان ينبغى أن يقول : « والمجمع القسطنطينى الأول »؛ لأن ألوهية روح القدس لم تتقرر إلا فى هذا المجمع .

(٢) الوالى من قبل الدولة الروما نية على فلسطين حينئذ Ponce Pilate

٣ — والإيمان بروح القدس الرب المحي ... »

ولخصه الشهرستانى في العبارة الآتية ، وهى لا تختلف كثيراً عن العبارة السابقة :

« نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شىء ، وصانع مايرى وما لا يرى ، وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، إلاه حق من إلاه حق ، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شىء من أجلنا . ومن أجل معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانا ، وحبل به ، وولد من مريم البتول ، وقتل وصلب أيام فيلاطوس ودفن ، ثم قام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه . وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والاحياء . ونؤمن بروح القدس الواحد ... وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية (كاثوليكية) وبقيام أبداننا ، وبالحياة الدائمة أبد الآبدين » .

* * *

وبذلك تقرر التثليث فى الديانة المسيحية ، وأصبح هو العقيدة الرسمية التى يجب أن يعتنقها كل مسيحى ، ويحكم بكفر من يقول بغيرها ، وأخذت المذاهب المسيحية الأخرى التى كانت منتشرة عند بعض الفرق المسيحية فى المرحلة الأولى ، والتى أشرنا إليها فيما سبق ، تتلاشى شيئاً فشيئا ، ويتضاءل عدد أتباعها ، حتى انقرضت كل الانقراض ، سواء فى ذلك مذاهب الفرق التى كانت محافظة على التوحيد ، أم مذاهب الفرق التى انحرفت عن التوحيد إلى عقائد أخرى غير عقيدة التثليث . ولانجد الآن أية كنيسة مسيحية ولا أية فرقة من المسيحيين لاتقول بالتثليث . — ولكنهم ، جميعاً ، مع ذلك يتسترون وراء كلمات التوحيد ، فيقولون « تثليث فى وحدية » أو « وحدية فى تثليت » ، مع أنه لايمكن أن

يكون التثليث وحدانية ولا الوحدانية تثليثا : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، ومامن إلاه إلا إلاه واحد » .

— ١٠ —

المصادر الأولى لعقيدة التثليث

ويظهر أن هـذه العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحـديثة Philosophie néo-platonicienne . وذلك أن أفلوطين Plotin زعيم مدرسة الإسـكندرية ، وهى المدرسة التى تنسب إليها الفلسفة الأفلاطونية الحديثة (وهو من رجال القرن الثالث الميلادى ــ ولد سنة ٢٠٥ وتوفى سنة ٢٧٠ م) كان يرى، فيما يتعلق بالـكون ومنشئه ، أن الله هو منشىء الأشياء لايتصف بوصف من أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ولا عرض،وليس فـكراً كفكرنا ولا إرادة كإرادتنا، يتصف بـكل كمال يليق به ، ويفيض على كل الأشياء نعمة الوجود ، ولايحتاج هو إلى موجد ؛ وأن أول شىء صدر عن هذا المنشىء هو العقل ، وقد صدر عنه كأنه يتولد منه ؛ ولهذا العقل قوة الإنتاج ، ولـكن ليس كمن يولد عنه ؛ ومن العقل تنبثق الروح التى هى وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شىء ومنه يتولد كل شىء .

فوجه الشبه واضح كل الوضوح بين هذا المذهب من جهة وعقيدة التثليث التى استقرت عليها المسيحية من جهة أخرى . و إذا لاحظنا أن هذا المذهب كان منتشراً ومعروفا قبل مجمع نيقية بأمد طويل ، وأنه كان المذهب الفلسفى لمدرسة الإسكندرية ، وأن بطريرك الإسكندرية الذى نشأ فى البيئة التى ساد فيها هذا المذهب كان من أكبر المدافعين عن عقيدة التثليث فى مجمع نيقية وفى المجمع

القسطنطيني الأول كما تقدم بيان ذلك ، إذ لاحظنا هذا كله ترجح الاحتمال الذى ذكرناه وهو أنه يظهر أن العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

ومن الممكن كذلك أن تكون قد تأثرت بالديانة البرهمية فى أوضاعها الأخيرة . وذلك أن الديانة البرهمية قد استقرت أوضاعها فى آخر الأمر على الاعتقاد بتثليث الآلهة ، و إن كان ثالوثها يختلف عن ثالوث المسيحيين فى نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته . وذلك أنها تقرر أن الإلاه براهما كان قبل الوجود ، وأنه خلق العالم وسمى نفسه الخالق ، ثم انبثق منه الإلاه سيڤا Civa وهو الإلاه المدمر الموكل بالخراب والفناء ، ولو ترك هذا الإلاه وشأنه لفنيت السماوات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما إلاه ثالث حافظ مجدد هو الإلاه فيشنو Vichnou . وسنعرض لهذه الديانة بشىء من التفصيل عندما يحين موعد الكلام عليها فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

— ١١ —

نشأة اختلافات فرعية بين طوائف المسيحيين فى مسائل العقيدة

تقرر التثليث إذن فى الديانة المسيحية على الوجه الذى سبق بيانه ، وأجمع على اعتناقه المسيحيون جميعاً . غير أنهم مع إجماعهم على هذه العقيدة ، قد اختلفوا فيما بينهم فى أمور فرعية أخرى من عقائدهم وانقسموا إلى طوائف كثيرة ، وأعطت كل طائفة لنفسها ، نتيجة لهذا الاختلاف ، لقباً خاصا بها . ولكنها

ما كانت تخرج فى ذلك عن أحد لقبين وهما الكاثوليكية والأرتودكسية (١).

فاختلفوا فى طبيعة المسيح : هل طبيعته طبيعة واحدة لأنه إلاه، أم إن له طبيعتين طبيعة إلاهية وطبيعة إنسية لأنه ابن الله وابن الإنسان معا (فقد جاء من مريم، ومريم من البشر) فيكون بذلك قد اجتمع فيه اللاهوت بالناسوت على حد تعبيرهم .

وقد أخذت بالمذهب الأول، وهو أن للمسيح طبيعة واحدة، وهى الطبيعة الإلاهية، ثلاث كنائس صغيرة من الكنائس التى سمت نفسها الأرتودكسية: إحداها الكنيسة الأرتودكسية فى مصر والحبشة (وتسمى نفسها كذلك الارتودكسية المرقسية نسبة إلى الرسول مرقص صاحب الإنجيل، لأن بطاركتها يعتبرون أنفسهم خلفاء لهذا الرسول، ورئيسها الحالى هو البابا كيرلس السادس، رئيس الكرازة المرقسية و بطريارك مصر وأثيوبيا ومعظم مناطق أفريقيا . ـ ومع أن مسيحيي الحبشة خاضعون لرياسة الكنيسة المصرية المرقسية فإنهم قد استقلوا أخيراً ببعض الاستقلال فى شئونهم الدينية)؛ وثانيتها الكنيسة الأرتودكسية السريانية التى يرأسها بطريرك السريان و يتبعها كثير من مسيحيي آسيا ؛ وثالثتها الكنيسة الأرتودكسية الأرمنية .ومع أن الأرمن يتفقون مع الكنيستين السابقتين فى القول بالطبيعة الواحدة للمسيح فإنهم يختلفون عنهما فى بعض التقاليد والطقوس، ولهم بطاركة يرأسونهم . ولا يندمجون مع الكنيسة السريانية ولا مع الكنيسة المصرية .

---

(١) كلمة كاثوليك **Catholique** مأخوذة من كلمة يونانية **Katholikos** بمعنى العام أو العالمى أى لأنها الديانة العامة العالمية . وكلمة أرتودكس **Ortodoxe** مأخوذة من كلمتين يونانيتين وهما **orthos** بمعنى الحق أو المستقيم و **doxa** بمعنى الرأى أو المذهب، فمعناها المذهب الحق أو المستقيم . وقد جاء انشعاب المسيحيين إلى هاتين الطائفتين نتيجة لاختلافهم فى الأمور الفرعية المتصلة بالعقيدة وفى أمور أخرى تتصل بالشرائع والعبادات . وسنعرض فى هذه الفقرة لأهم وجوه الخلاف بينهم فى فروع العقيدة، وفى الفقرة التالية لأهم وجوه الخلاف بينهم فى الشرائع والعبادات.

وبذلك انفصلت هذه الكنائس الثلاث عن بقية كنائس المسيحيين . وقد لخص هذا المذهب صاحب كتاب «خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر» فى العبارة الآتية : «إن كنيستنا المستقيمة الرأى (هذه ترجمة لكلمة الأرثوذكسية) ، ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية والسريانية الأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس ، وأن الأقنوم الثانى أقنوم الابن تجسد من روح القدس ومن مريم العذراء ، مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة على الاختلاط والامتزاج والاستحالة بريئة من الانفصال . وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ... » .

وقد أقر هذا المذهب معظم المجتمعين فى مجمع إفسوس الثانى Ephèse الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، واكتسب قوة بعد أن انتصر له فى القرن السادس الميلادى داعية قوى الحجة ، بليغ الأثر ، جرىء فى الجهر برأيه ، اسمه يعقوب البرادعى ، حتى لقد أطلق على هذا المذهب اسم « المذهب اليعقوبى » نسبة إليه ، وأطلق على المعتنقين لهذا المذهب إسم اليعاقبة أو اليعقوبيين ، وإن كان هذا المذهب قد نشأ قبل ظهور يعقوب البرادعى بأمد طويل ؛ ولا أدل على ذلك من أنه قد أخذ بهذا الرأى معظم المجتمعين فى مجمع إفسوس الثانى الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس الميلادى كما تقدم .

وأخذت بالمذهب الآخر ، وهو أن للمسيح طبيعتين طبيعة إلاهية وطبيعة إنسية أى اجتمع فيه اللاهوت بالناسوت ، جميع الكنائس الأخرى . وتقرر هذا المذهب فى صورة حاسمة فى مجمع خليكدونية Calcédoine المنعقد سنة ٤٥١ فقد انتهى هذا المجمع بعد خلاف كبير بين أعضائه إلى القول بأن للمسيح طبيعتين لا طبيعة واحدة ، وأن الألوهية طبيعة وحدها والناسوت طبيعة وحده التقتا فى المسيح . ويلخص ابن البطريق قرار مجمع

خليكدونية إذ يقول : « قالوا إن مريم العذراء ولدت إلاها ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلاهية ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية وشهدوا أن المسيح طبيعتان وأقنوم واحد ووجه واحد . . ؛ ولعنوا المجمع الثانى الذى كان بإفسوس » (أى مجمع إفسوس الثانى الذى قرر معظم أعضائه أن المسيح طبيعة واحدة كما سبق بيان ذلك ؛ وتسميه الكنيسة الكاثوليكية « مجمع اللصوص ») .

وقد انتصر لمذهب ازدواج الطبيعتين الامبراطور الرومانى ، بل إنه هو الذى عمل على اجتماع مجمع خليكدونية لينتهى إلى تقرير هذا الرأى فى صورة حاسمة ومن ثم يطلق على هـــــذا المذهب اسم المذهب الملكى أو الملكانى نسبة إلى الملك أى امبراطور روما . وقد أخطأ الشهرستانى إذ قرر أن هذا المذهب ينسب إلى شخص اسمه « ملكا »[٢] .

ومن قبل مجمع خليكدونية كان هذا المذهب قد تقرر ، وإن لم يكن فى صورة حاسمة ، فى مجمع آخر هو مجمع إفسوس الأول الذى انعقد سنة ٤٣١ م للفصل فى أمر نستور وبدعته (وكان نستور هذا nostorius بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨ م ومكث فى هذا المنصب أربع سنين وشهرين) . فقد ذهب نستور إلى القول بأن مريم العذراء لم تلد الإلاه ، بل ولدت الإنسان فقط ، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثانى اتحادا مجازيا لأن الإلاه وهبه المحبة والنعمة فصار بمنزلة الإبن . فللقضاء على هذا المذهب الذى ينكر ألوهية المسيح من أصلها وإن كان يقول بالأقانيم الثلاثه انعقد مجمع إفسوس الأول سنة ٤٣١ وقرر لعن نستور وطرده ، وكتب معظم أعضائه صحيفة قرروا فيها أن مريم العذراء ولدت إلاهنا وربنا يسوع المسيح ، وأن المسيح إلاه حق وإنسان ذو طبيعتين » .

---

(١) انظر ص ٢٢٢ من الجزء الأول من الشهرستانى « الملل والنحل » طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦١ .

غير أن النسطوريين قد انحازوا فى عصورهم الأخيرة إلى الرأى القائل بامتزاج اللاهوت فى الناسوت ، أى إلى القول بالطبيعتين ، فانحرفوا بذلك عن المذهب الأصلى لزعيمهم ، وأصبحوا متفقين فى ذلك مع الكنيسة الكاثوليكية . ويقيم معظمهم الآن فى بلاد العراق والموصل .

* * *

وقد ظلت الكنائس التى تقول بالطبيعتين متحدة فى جمع آرائها المتعلقة بشخص المسيح إلى أن ظهر فى القرن السابع الميلادى (سنة ٦٦٧) يوحنا مارون ، فذهب إلى أن المسيح ، مع أنه ذو طبيعتين ، له مشيئة واحدة وإرادة واحدة وهى المشيئة الإلاهية والإرادة الإلاهية ، لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد إلاهى وهو الابن أو الكلمة . وقد شايعه فى هذا الرأى بعض مسيحيى آسيا . ولم ترق هذه المقالة فى نظر بابوات روما رؤساء الكنيسة الكاثوليكية ، فأوعزوا إلى الأمبراطور أن يجمع مجمعاً ليقرر أن المسيح ذو طبيعتين وذو مشيئتين بعد أن استوثقوا من أن الأمبراطور يشاركهم هذا الرأى ، فاجتمع لذلك مجمع القسطينية السادس سنة ٦٨٠ م وكان مؤلفاً من ٢٨٩ أسقفاً وانتهى إلى إصدار قرار بكفر يوحنا مارون ولعنه وطرده وكفر كل من يقول بالمشيئة الواحدة ، وقرر « أننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإلاه فى أقنوم واحد ووجه واحد ، يعرف تاماً بناسوته تاماً بلاهوته فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح ، بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين فى أقنوم واحد . . . فهو يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمله فى طبيعته وما يشبه الإلاه أن يعمله فى طبيعته . . . وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها بمشيئتين غير متضادتين » .

وقد نزلت بعد ذلك بأصحاب المذهب المارونى القائل بالمشيئة الواحدة اضطهادات شديدة ، فأخذوا يفرون بدينهم من بلد إلى بلد إلى أن انتهى بهم

المطاف فى جبل لبنان ، واشتهروا بلقب المارون . وظلوا مستقلين فى شئونهم الدينية إلى أن قربتهم إليها كنيسة روما فأعلنوا فى سنة ١١٨٢ الطاعة لها مع بقائهم على مذهبهم القائل بالمشيئة الواحدة . ولا تزال هذه الطائفة متوطنة فى جبل لبنان ، وإن كان قد هاجر منها عدد كبير إلى قارة أمريكا وغيرها ، ولها بطريرك خاص (هو الآن البطريرك المعوشى) وإن كان يقر بالرياسة لبابا الكنيسة الكاثوليكية بروما .

* * *

وقد ظلت الطوائف القائلة بالطبيعتين وللمشيئتين متفقة فى آرائها إلى أن نشب بينها فى منتصف القرن التاسع خلاف بشأن الأقنوم الذى انبثق منه روح القدس . فذهب بعض هذه الطوائف إلى أن انبثاق روح القدس كان من الآب وحده ، وذهب بعضها الآخر إلى أن انبثاقه كان من الآب والابن معا .

وكان على رأس المنادين بالرأى الأخير ، وهو أن روح القدس منبثق من الآب والابن معا ، رئيس كنيسة روما . وقد عقد لذلك فى سنة ٨٦٩ مجمعا فى القسطنطينية ، وأصدر هذا المجمع قراراً بأن روح القدس منبثق من الآب والابن معا . واشتهر هذا المجمع باسم « المجمع الغربى اللاتينى » .

وكان على رأس المنادين بالرأى الأول ، وهو أن روح القدس منبثق من الآب وحده ، بطريرك القسطنطينية ، وقد عقد بدوره مجمعاً آخر فى القسطنطينية سنة ٨٧٩ ، وأصدر هذا المجمع قراراً بأن روح القدس منبثق من الآب وحده . واشتهر هذا المجمع باسم « المجمع الشرقى اليونانى » .

وكان ذلك سببا فى انقسام الكنائس القائلة بالطبيعتين والمشيئتين إلى كنيستين رئيسيتين :

(إحداهما) الكنيسة الشرقية اليونانية ويقال لها كذلك الكنيسة الشرقية فقط وكنيسة الروم الأرتودكسية ، وهى التى يذهب أتباعها إلى أن روح القدس منبثق عن الآب وحده . والمشايعون لها أكثرهم فى الشرق فى بلاد اليونان وتركيا وروسيا والصرب وغيرها ، ولهم بطاركة أربعة : أولهم بطريرك القسطنطينية وهو كبيرهم (وهو الآن البابا أثينا جوراس) ؛ ويليه بطريرك الاسكندرية للروم الأرتودكس ؛ ثم بطريرك أنطاكية ؛ ثم بطريرك أورشليم . وثمة مناطق تخضع للكنيسة الشرقية وتخضع لمجامع وأسقفيات مستقلة كالمجمع الروسى وأسقفية أثينا وأسقفية قبرص (التى يتولى رياستها الآن الأسقف مكاريوس ، وهو فى الوقت نفسه رئيس الدولة) .

(وثانيتهما) الكنيسة الغربية اللاتينية ، ويقال لها كذلك الكنيسة الغربية فقط ، وكنيسة روما ، والكنيسة الكاثوليكية ، وقد تسمى كذلك الكنيسة البطرسية أو كنيسة بطرس لأن مشايعيها يعتقدون أن مؤسسها هو الرسول بطرس كبير الحواريين ، وأن باباواتها خلفاؤه من بعده (ورئيسها الحالى هو البابا بولس السادس ، وهو فى الوقت نفسه رئيس دولة الفاتيكان) ، وهى التى تذهب إلى أن روح القدس منبثق عن الآب والابن معا . والمشايعون لهذه الكنيسة أكثرهم فى الغرب فى بلاد إيطاليا وفرنسا و بلجيكا وإسبانيا والبرتغال وأمريكا الجنوبية وبلاد أخرى كثيرة . وحتى فى البلاد التى يتبع معظم أهلها كنيسة الروم الأرتودكسية يوجد مسيحيون كاثوليك يتبعون كنيسة روما ويرأسهم بطاركة كاثوليك خاضعون لرياسة بابا روما . وحتى فى مصر نفسها يوجد مسيحيون كاثوليك يتبعون هذه الكنيسة ويرأسهم بطريرك (ورئيسهم الحالى الأنبا أسطفانوس الأول سيداروس بطريرك الأقباط الكاثوليك). — ويبلغ عدد الكاثوليك التابعين لهذه الكنيسة الآن زهاء ستمائة مليون .

ولما أحيط به رئيس كنيسة روما من تقديس بين مشايعيه وعند الملوك ورؤساء الدول ،ولكثرة معتنقى مذهبه ، تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان.—وتتابع كنيسة روما فى عهد رئيسها الحالى ماسارعليه رئيسها السابق من العمل على التقريب بين الكنائس المسيحية جميعاً وخاصة بينهاو بين الكنيسة الشرقية التى تعتبر أكبر كنيسة بعد كنيسة روما . وقد عقد بابا روما الحالى سنة ١٩٦٣ مجمعا مسكونيا كان من أهم أغراضه تحقيق الوحدة المسيحية والتقريب بين كنائس المسيحيين ، وخاصة بين الكنيستين الكبيرتين الغربية والشرقية .

* * *

وخلاصة ذلك أن الكنيسة الأرتودكسية فى مصر والحبشة والكنيستان الأرتودكسيتان الأرمنية والسريانيةقد انفصلت عن بقية الكنائس لقولها بالطبيعة الواحدة للمسيح (طبيعة واحدة إلاهية) وأن كنيسة المارونيين بلبنان قد انفصلت كذلك عن بقية الكنائس لقولها بالمشيئة الواحدة أى إن المسيح و إن كان له طبيعتان ليست له إلا مشيئة واحدة هى المشيئة الإلهية ، وأن من عدا هؤلاء وأولئك من طوائف المسيحيين يقولون بالطبيعتين والمشيئتين ، وهم القسم الأكبر من المسيحيين .

غير أنهم مع اتفاقهم فى القول بالطبيعتين والمشيئتين قد اختلفوا فيما يتعلق بالأقنوم الذى انبثق منه روح القدس أهو الآب وحده أم الآب والابن معا . وانقسموا لذلك إلى كنيستين : الكنيسة الشرقية اليونانية أو كنيسة الروم الأرتودكس التى يقول أتباعها بانبثاق روح القدس عن الآب وحده ؛ والكنيسة الغربية اللاتينية التى يقول أتباعها بانبثاق روح القدس عن الآب والابن معاً .

— ١٢ —

اختلاف فرق المسيحيين

فى مسائل الشرائع والعبادات

هذا ، وكان كل خلاف يحدث بين فرق المسيحيين فى هذه الأمور الفرعية المتصلة بالعقائد يصحبه وينضم إليه بمرور الزمن خلاف فى بعض الأمور المتصلة بالشرائع والعبادات .

فمن ذلك مثلا أن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية قد تجاوز شئون العقيدة السابق ذكرها إلى أحكام العبادة والتشريع ، وشمل اختلافهما فى هذه الأحكام أموراً كثيرة نذكر من أمثلتها ما يلى :

١ — حافظت الكنيسة الشرقية فيما يتعلق بالمحرمات من المأكولات على الرأى الذى استقر عليه مجمع أورشليم الأول المنعقد بعد رفع المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة والذى أشرنا إليه فيما سبق[١] فحرمت الدم ولحم المنخنقة ؛ بينما أجازتهما الكنيسة الغربية .

٢ — من عبادات المسيحيين ما يسمونه العشاء الربانى ، وهو الذى ورد ذكره فى الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى إذ يقول : « وبينما هم يأكلون أخذ يسوع قطعة خبز ، وبعد أن باركها كسرها وأعطاها لتلاميذه وقال خذوا وكلوا هذا هو جسدى ، ثم أخذ كأسا (من الخمر) وبعد أن باركها أعطاها لهم وقال اشربوا جميعا من هذه الكأس ، فهذا هو دمى دم العهد الذى يسفك من أجل كثيرين لمحو الخطايا[٢] » . وقد جرى المسيحيون على محاكاة

---

(١) انظر ص ٥٨ .

(٢) فقرات ٢٦ — ٢٨ من إصحاح ٢٦ من إنجيل متى .

هذا العشاء فى بعض أعيادهم على الأخص ، ويعتبرون ذلك من أهم عباداتهم .

وجرت العادة أن تُعدّ الكنائس خبزاً وخمراً بطقوس خاصة ليتناولهما المصلون . ويعتقدون أن الخبز والخمر قد أصبحا بعد إعدادهما على هذه الصورة أجزاء من جسد المسيح ودمه . فالخبز أصبح قطعة من جسده والخمر أصبح قطرات من دمه . وبذلك يمتزج لحم المسيح ودمه بلحم من يتناولهما و بدمه ، ويدعو تناولهما إلى تذكر الرب وما حدث له لتخليص الإنسانية من خطاياها واستحضار مجيئه يوم القيامة ومحاسبته للناس . فهو فى نظرهم امتزاج بالعنصر الإلاهى من جهة وتذكر الماضى وتخيل واستحضار للمستقبل من جهة أخرى[1] . وبذلك يصرح القرار الذى صدر من مجمعى ترنت المنعقدين سنتى ١٥٤٥ و ١٥٦٣ Concile de Trente

إذ يقول : « قد اعتقدت كنيسة الله دائما بأنه بعد التقديس يوجد ربنا الحقيقى مع نفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر ... لأن يسوع المسيح هو بكماله تحت شكل الخبز وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل ، كما أنه هو أيضاً تحت تحت شكل الخمر وجميع أجزائه . وقد اعتقدت الكنيسة أيضاً اعتقاداً ثابتاً بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز إلى جوهر جسد ربنا وكامل جوهر الخمر إلى جوهر دمه .... » .

فالكنيسة الشرقية تحافظ على حرفية النص السابق فى إنجيل متى فتوجب استخدام الخبز فى العشاء الربانى ؛ بينما تبيح الكنيسة الغربية استبداله الفطائر بالخبز .

---

(١) يظهر أن قصة هذا العشاء محرفة عن قصة المائدة التى ذكرها القرآن الكريم إذ يقول : « إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » .

٤ — يحرم المذهب الكاثوليكى الطلاق تحريما باتا ، ولا يبيح فصم الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه . وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد فى نظره مبرراً للطلاق . وكل ما يبيحه فى حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية — بحسب تعبيرهم — بين شخصى الزوجين séparation des corps مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما فى أثناء هذه الفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر . ويعتمد المذهب الكاثوليكى فى ذلك على ما ورد فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله » ؛ على حين أن المذهب الأرتودكسى يبيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة مع تحريمه الزواج على المطلق والمطلقة بعد ذلك . ويعتمد المذهب الأرتودكسى فى ذلك على ما ورد فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من طلق امرأته إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى »[(١)].

— ١٣ —

المذهب البروتستانتى

فى أوائل القرن السادس عشر ظهر فى العالم المسيحى ، بجانب النحل السابق ذكرها ، نحلة جديدة أطلق عليها اسم البروتستانتية Protestantisme أى نحلة الاحتجاج أو الاعتراض وأطلق على معتنقيها اسم البروتستانت Protestants أى المحتجين أو المعترضين . وقد دعا إلى ظهور هذه النحلة أمور كثيرة يرجع أهمها إلى مظاهر الفساد التى بدت فى كثير من شئون الكنيسة الكاثوليكية ومناهجها وطقوسها ، وما أحدثته من بدع ، ومسلك قسيسيها والقوامين عليها ، وإلى تحكمها

---

(١) عرضنا فيما سبق لهذا الموضوع وأوضحنا مبلغ مجافاة هذه الأحكام لشئون العمران ، انظر صفحة ٧٨ . وقد درسنا هذا الموضوع بشىء من التفصيل مع الموازنة بين موقف المسيحية فى هذا الصدد وموقف الإسلام فى كتابنا « حقوق الإنسان فى الإسلام » وفى كتابنا « بيت الطاعة وتعدد الزوجات والطلاق فى الإسلام » .

فى تفسير كل شىء ، ومحاولة فرض آرائها على جميع أتباعهـــا حتى الآراء التى لا علاقة لها بالدين كالآراء المتعلقة بظواهر الفلك والطبيعة وشئون السياسة ونظم الحكم وما إلى ذلك .

فمن ذلك ما اتخذه مجمع لاتيران الرابع المنعقد سنة ١٢١٥ "Ceoncile de Latiran" بشأن الهراطقة إذ أباح للكنيسة استئصالهم . وكانوا يعنون بالهراطقة كل من يرى رأيا يخالف رأى الكنيسة ولو كان فى أمور تتعلق بشئون السياسة ونظم الحكم أو بمسائل العلوم كظواهر الفلك والطبيعة والأحياء . وقد نفذ ذلك القرار بالفعل فى كثير من دعاة الإصلاح فى الدين وممن خالفوا آراء الكنيسة فى شئون السياسة ومسائل العلوم . فكان يحكم عليهم بالإعدام رجما أو حرقا و يحرق معهم ما عسى أن يكون لهم من بحوث ومؤلفات . وأنشىء لمحاكمة الهراطقة والمخالفين لآراء الكنيسة فى الشئون الدينية وغيرها وللمزاولين لأعمال السحر محاكم خاصة اشتهر معظمها باسم « محاكم التفتيش » وراح ضحية تفتيشها وتحقيقاتها الغريبة آلاف من الأنفس أخذ معظمهم بالظنة والوشاية والكيد . وحتى الملوك أنفسهم لم يكونوا بمنجاة من هذا العسف . فقد حكمت الكنيسة على بعضهم بالطرد والحرمان لجنوحهم لمخالفتها والخروج على طاعتها فى بعض الشئون .

ومن ذلك ما سارت عليه كنيسة روما من فرض إتاوات وضرائب باهظة على التابعين لها . وما كان ينفق إلا القليل من حصيلة هذه الإتاوات والضرائب على الشئون المسيحية العامة ، ومعظمه كان يتوزعه رجال الكنيسة بينهم وينفقونه فى شئون ترفهم وشهواتهم .

ومن ذلك تحريم الكنيسة الكاثوليكية على القسس والرهبان والراهبات الزواج ، وما أدى إليه ذلك التحريم من انتشار الفسق والفجور بين رجالها ونسائها ،

حتى لقد كان القسس والرهبان يتصلون بالراهبات أنفسهن ويبررون ذلك بأنه ضرب من « المساكنة الروحية » .

ومن ذلك ما كانت تذهب إليه الكنيسة فى صدد « العشاء الربانى » من تفسيرات غريبة لا يسيغها عقل سليم ، إذ تزعم أن الخبز والخمر اللذين تعدهما ليتناولهما المصلون فى بعض الأعياد على الأخص يستحيلان إلى أجزاء من جسم المسيح ودمه كما سبق بيان ذلك(١) .

ومن ذلك ما اتخذه أحد مجامعهم بشأن غفران الذنوب . فقد قرر أن من حق رجال الكنيسة الكاثوليكية أن يغفروا للمسىء ذنوبه فى حالة احتضاره وفى حالة صحته ، وأن يغفروا ما تقدم منها وما تأخر . وقد أفرط رجال الكنيسة الكاثوليكية إفراطاً كبيراً فى استخدام هذا الحق ، حتى لقد أنشئوا صكوكا للغفران تباع وتشترى ، واتخذتها الكنيسة مورداً هاما لكسب المال ، فلم يستكثر الناس بذل الأموال فى الحصول عليها ما دامت تكفل لهم غفران ما ارتكبوه وما يرتكبونه من معاص وآثام . وفيما يلى نص هذا الصك الغريب :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة . وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها ، وكذلك من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر(٢) ، وأردك حديثاً إلى الشركة فى أسرار

(١) انظر الفقرة السابقة .

(٢) انظر شرح هذه الكلمة بصفحة ٨١ .

الكنيسة ، وأقرنك في شركة القديسين ، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك[١] ، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة ، باسم الآب والابن وروح القدس » .

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة من هذا القبيل ظهر فى القرن السادس عشر دعاة للإصلاح الدينى وتخليص المسيحية من هذه الأدران ، وتكونت من إصلاحاتهم نحلة جديدة هى النحلة البروتستانتية . وكان على رأس هؤلاء المصلحين مارتن لوثر الألمانى **Martin Luther** وزونجلى السويسرى **Zwingli** وكالفن الفرنسى **Calvin**

أما مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) فهو أسبقهم جميعاً وإليه تنسب النحلة البروتستانتية أكثر مما تنسب إلى غيره . وقد ثار فى أول الأمر ضد صكوك الغفران وأعلن بطلانها وكتب فى ذلك احتجاجاً علقه على باب الكنيسة (ومن ثم سميت نحلته بالبروتستانتية أى نحلة الاحتجاج أو الاعتراض) . فأصدر البابا قراراً بحرمانه واعتباره كافراً زائغ العقيدة . فلم يأبه لوثر لهذا القرار بل عمد إلى الإنذار الذى أرسل إليه فى هذا الصدد فحرقه فى ميدان من أكبر ميادين المدينة فى جمع حاشد من الناس . فجمع البابا سنة ١٥٢٠ مجمعا قرر محاكمته . فلم يذعن مارتن لوثر لهذا القرار . ولما حاول الامبراطور فى سنة ١٥٢٩ أن ينفذ هذا القرار ثار أنصار لوثر واحتجوا على ذلك (ومن ثم سمى أتباع هذه النحلة بالبروتستانت أى المحتجين) . وأخذ لوثر من ذلك الحين ينشر مبادئه المعارضة للكنيسة

(١) انظر شرح هذه الكلمة بصفحة ٦٩.

الـكاثوليـكية والتى تـكونت منها النحلة البروتـستانتية ، وأخذ الناس يدخلون فى نحلته أفواجاً .

وأما زونجلى السويسرى (١٤٨٤ -- ١٥٣١) فقد ظهر فى العصر نفسه الذى ظهر فيه لوثر ودعا إلى كثير مما دعا إليه لوثر فى شئون الدين وثار على صكوك الغفران وغيرها من مفاسد الـكنيسة الـكاثوليكية وتبعه كذلك خلق كثير . ولـكنه مات قتيلا فى أثناء صراع وقع بين أنصاره وأنصار الـكنيسة الـكاثوليكية. وكانت دعوته منفصلة عن دعوة لوثر و إن التقت معها فى مبادئها .

وأما كلفن الفرنسى (١٥٠٩ — ١٥٦٤) فقد قام بعد لوثر بالدعوة إلى البروتستانتية ونشر مبادئها وألف فى ذلك بحوثاً ورسائل كثيرة نشر معظمها بعد فراره إلى جنيف بسويسرا — فإليه يرجع الفضل الأكبر فى تنظيم البروتستانتية وتحرير مبادئها .

* * *

وقد انتشرت البروتستانتية فى كثير من بلاد العالم و يعتنقها الآن معظم أهل ألمانيا والدانمرك وسويسرا وهولندا والسويد والنرويج وانجلترا واسكتلنده و إيرلنده الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية ؛ وأخذت الآن ، بفضل جمعيات التبشير البروتستانتية وعظيم نشاطها وواسع إمكانياتها المالية و إخلاص رجالها لمبادئها ، تغزو كثيرا من معاقل الـكاثوليكية والأرثودكسية ، وتنتشر فى السودان الجنوبى وأواسط أفريقيا والصين واليابان .

* * *

هذا ، ولا تختلف البروتستانتية عن النحال السابقة فيما يتعلق بجوهر العقيدة . فهى مثلها تؤمن بالتثليث وألوهية المسيح و بنوته لله وصلبه وقيامته ورفعه وحسابه

للعالم يوم القيامة و بأنه صلب لتكفير الخطيئة الأزلية التي ارتكبها آدم وعلقت بجميع نسله ... وما إلى ذلك من الأمور التى استقرت عليها العقيدة المسيحية والتى أشرنا إليها فيما سبق . و إنما تختلف البروتستانتية عن غيرها من النحل المسيحية بوجه عام وعن الكاثوليكية بوجه خاص فى أمور فرعية من أهمها ما يلى :

١ — تستمد البروتستانتية جميع الأحكام المتعلقة بالعقائد والعبادات والشرائع من الكتاب المقدس وحده ، ولا تقيم لغيره وزنا فى هذا الصدد إلا إذا كان تفسيرا معقولاً لما ورد فى هذا الكتاب ؛ على حين أن الكنائس الأخرى تستمد أحكامها من الكتاب المقدس ومن قرارات المجامع وآراء البابوات ورؤساء الكنائس . ومن ثم سميت الكنائس البروتستانتية الكنائس الإنجيلية لاعتمادها على الإنجيل خاصة وعلى سائر أسفار الكتاب المقدس بوجه عام ، بينما سميت الكنائس الأخرى الكنائس التقليدية لاعتمادها على التقاليد المستمدة من المجامع ومن رآراء رؤساء الكنيسة وجعلها لهؤلاء الرؤساء سلطاناً فى تقرير حقائق العقائد والعبادات والشرائع .

٢ — لا تقر البروتستانتية البابوية أو الرياسة العامة فى شئون الدين . ولذلك ليس لكنائسهم رئيس عام كما هو الشأن فى الكنائس الأخرى ، وإنما تجعل لكل كنيسة بروتستانتية رياسة خاصة بها ، وليس لها إلا سلطان الوعظ والإرشاد والقيام على شئون العبادات والواجبات الدينية الأخرى وعلى تعليم مسائل الدين. ولا يسمون رجال الدين قسساً كما هو الشأن فى الكنائس الأخرى ، و إنما يسمونهم « رعاة » Pasteurs لأنهم يرعون تابعى كنيستهم ويؤدون لهم ما يجب على الراعى أن يؤديه نحو رعيته من واجبات .

٣ — ليس فى البروتستانتية نظام الرهبنة ، وهى لا تحرم الزواج على رجال

الدين كما تحرمه الكاثوليكية على جميع الرهبان والقسس بمختلف درجاتهم[1].

٤ – تنكر البروتستانتية كل الإنكار أن يكون لرجل الدين الحق فى غفران الذنوب فى حالة الاحتضار وغيرها، وإنما تجعل ذلك الحق لله وحده، فيقبل إن شاء توبة العاصى ويغفر له ما تقدم من ذنبه، بل إن أهم ما اتجهت البروتستانتية فى نشأتها إلى القضاء عليه هو ما كانت تزعمه الكنيسة الكاثوليكية لرجالها من السلطان فى محو الذنوب، وما تبع هذا الزعم من نظام صكوك الغفران كما تقدم بيان ذلك[2].

٥ — تقرر البروتستانتية أن الغرض من أكل الخبز وشرب الخمر فى العشاء الربانى هو أن يكون وسيلة رمزية لتذكر ما قام به المسيح فى الماضى إذ قدم جسمه للصلب ودمه للإراقة لتخليص الإنسانية من الخطيئة الأزلية ولتذكر ما سيقوم به يوم القيامة إذ يدين الناس ويحاسبهم على ما كسبت أيديهم. وبذلك تنكر البروتستانتية كل الإنكار ما تذهب إليه الكنائس الأخرى إذ تزعم أن ما تجريه على الخبز والخمر من طقوس يحولهما إلى أجزاء من جسم المسيح ومن دمه كما تقدم بيان ذلك[3].

٦ – تنكر البروتستانتية إنكارا باتا جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أم المسيح من طقوس واحتفالات وعبادات وأعياد[4]، وتعتبر ذلك خروجا على أصول الدين.

٧ — تحرم البروتستانتية ما تسير عليه الكنائس الأخرى من وضع الصور والتماثيل فى أماكن العبادة واتجاه المصلين لها بالسجود، معتمدة على تحريم التوراة

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا «قصة الزواج والعزوبة فى العالم».

(٢) انظر فى أول هذه الفقرة الأسباب التى دعت إلى قيام البروتستانتية.

(٣) انظر صفحتى ١١٥، ١١٦.

(٤) انظر صفحة ٩٩.

لذلك وعلى أن شريعة موسى شريعة للمسيحيين إلا ما ورد نص صريح من المسيح بنسخه أو تعديله. فقد جاء فى الإصحاح الخامس من سفر التثنية، وهو من أهم الأسفار التشريعية فى التوراة المزعومة، : « لا تجعل لك تمثالا منحوتا يمثل شيئا ما من ظواهر السماء من فوق أو مما فى الأرض من أسفل أو مما فى الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن، فإننى أنا إلاهك الباقى إلاه غيور أعاقب الأولاد بظلم الآباء حتى الجيل الثالث والرابع وأسبغ نعمتى على من يخلصون لى ويتبعون أوامرى وعلى ذريتهم من بعدهم إلى ألف جيل »[١].

٨ — تحرم البروتستانتية أن تقام الصلاة بلغة غير اللغة المفهومة للمتعبد، كما تفعل الكنائس الأخرى إذ تقيمها بلغة ميتة كاللاتينية والقبطية[٢].

---

(١) فقرات ٨ — ١٠ من الإصحاح الخامس من سفر التثنية.

(٢) من أهم المراجع فى الموضوعات التى درسناها فى الفقرات الخمس الأخيرة من هذا الفصل (فقرات ٩ — ١٣) البحث القيم الذى نشره صديقنا العلامة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة تحت عنوان « محاضرات فى النصرانية ».

الفصل الثالث

أسفار الديانة الزرادشتية

سنمهد لهذا الفصل بفقرتين : نعرض فى أولاهما لشخصية زرادشت واختلاف الآراء بشأنها ، وفى الأخرى لتاريخ حياته ورسالته وانتشار دينه .

ثم نقف بقية فقرات هذا الفصل على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية (أسفار الأبستاق) وشروحها وما تقرره من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق .

— ١ —

شخصية زرادشت

يطلق العرب عليه اسم « زرادشت » ، وهو اسمه فى الفارسية الحديثة ؛ وكان اسمه فى الفارسية القديمة (لغة الأسفار المقدسة المسماه «الأبستاق») زراتسترا Zarathoustra أو سبيتاما زراتسترا Spitama Zarathoustra (والراجح أن سبيتاما هو اسم أحد أجداده) ، ويسمى فى الفهلوية (الفارسية فى مراحلها المتوسطة) زراتشت ، ويسميه المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » وابن النديم فى كتابه الفهرست زرادشت بن سبتمان ، ويسميه الفرنجة زوروآستر Zoroastre أخذا من اسمه فى اللاتينية . — ويذكر « الأبستاق » (مجموعة الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية التى سنتكلم عليها فى الفقرة الثالثة) أن أباه كان يسمى پوراشاسپ Pourashaspe وأن أمه كانت تسمى دُغذُهوا Dcughrd—Huova وتسمى فى الفهلوية دُغذَاڤو Doghdavo وفى الفارسية الحديثة دُغذَويه .

وقد اختلف الباحثون فى شخصية زرادشت ، وانقسموا فى صددها إلى ثلاث فرق :

١ — ففريق ينكر وجوده، ويقرر أنه شخصية أسطورية خيالية، قد نسجت حولها طائفة من العقائد والتقاليد والشرائع والعبادات التي كان يسير عليها الإيرانيون. ولا يقدم هذا الفريق بين مدى مذهبه دليلا يعتد به، بل لقد دلت الكشوف الحديثة على بطلان هذا الرأى، ولم يعد له وزن ما بين المحدثين من الباحثين.

٢ — وفريق يرى أنه شخصية حقيقية، وأنه هو إبراهيم الخليل الذى ورد ذكره فى التوراة والقرآن، وأن أسفار « الأبستاق » هى صحف إبراهيم التى تحدث عنها القرآن الكريم[١].

وقد ساد هذا الرأى لدى كثير من الزرادشتين خاصتهم وعامتهم. فالأسدى فى كتابه «لغت فرس» يقول «الأبستاق تفسير الزند وكان الزند صحف إبراهيم»[٢]. ويقول صاحب « برهان قاطع » : « كان إبراهيم زرادشت يدعى أن الزند نزل عليه من السماء، ويقول بعضهم إنه صحف إبراهيم»[٣].

ولعل التشابه بين ما تذكره الكتب المقدسة عن حياة إبراهيم وما تذكره التراجم والأساطير الفارسية عن حياة زرادشت، وخاصة ما يتعلق باتجاه كليهما إلى التأمل فى كواكب السماء وملاحظة بزوغها وأفولها والانتهاء من هذا التأمل وهذه الملاحظة إلى أن كائنات هذا شأنها لا يمكن أن تكون آلهة[٤]، ومايتعلق

(١) « إن هذا لفى الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى » ، آخر آية من سورة الأعلى.

(٢) يجعل الأسدى الأبستاق تفسيراً للزند، مع أن الأمر على العكس من ذلك، فالزند هو شرح الأبستاق كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرتين الثالثة والرابعة من هذا الفصل.

(٣) يخلط صاحب هذا الكتاب بين « الابستاق » « والزند ». فالكتاب الأصلى الذى يزعم الزرادشتيون أنه نزل من السماء هو « الأبستاق » ، وأما الزند فهو شرح للأبستاق كما سيأتى بيان ذلك. انظر الدكتور أمين عبد المجيد: «القصة فى الأدب الفارسى» ٣٦ ، ٣٧.

(٤) أشار القرآن الكريم إلى هذه التأملات والملاحظات إذ يقول : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً =

بمحاربة كليهما لما كان يعكف عليه قومه من عبادة الكواكب وما يمثلها ويرمز إليها من أصنام (١) ، وما يتعلق بإلقاء كليهما فى النار وجعلها بردا وسلاما عليه (٢) ، لعل التشابه بينهما فى هذه الأمور وما إليها هو الذى دعا هذا الفريق إلى القول بأن زرادشت هو إبراهيم الخليل وأن الأبستاق هو صحف إبراهيم . .

وليس لهذا الرأى أى سند يعتد به ، بل إن أدلة كثيرة تتضافر على القطع ببطلانه . فمن ذلك أن زرادشت قد ظهر فى أصح الروايات فى القرن السابع قبل الميلاد ، على حين أن إبراهيم الخليل كان ظهوره حوالى القرن السابع عشر قبل الميلاد أى قبل زرادشت بنحو عشرة قرون . ومن ذلك أن إبراهيم الخليل قد نشأ فى بلدة أور ببلاد الكلدان وأنه سامى الجنس ، على حين أن زرادشت قد نشأ بأذربيجان إحدى مقاطعات ميديا فى بلاد إيران وأنه آرى الجنس . ومن ذلك أن القرآن يحدثنا عن رحلة إبراهيم إلى مكة وإسكانه فيها ابنه إسماعيل

= قال هذا ربى ؟ فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ؟ فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر؟ فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون » (الأنعام ٧٥ — ٧٨) .

(١) أشار القرآن الكريم إلى محاربة إبراهيم لعبادة الأصنام فى عدة سور ، منها قوله تعالى فى سورة الأنبياء : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ... قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » (الأنبياء ٥١ — ٦٧) . ومنها قوله تعالى فى سورة الصافات فى قصة إبراهيم : « إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أئفكاً آلهة دون الله تريدون ؟... قال أتعبدون ما تنحتون ؟ ! والله خلقكم وما تعملون » (الصافات ٨٥ — ٩٦) . ومنها قوله تعالى فى سورة الأنعام : وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟! إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » (الأنعام ٧٤) .

(٢) ذكر القرآن الكريم قصة إلقاء إبراهيم فى النار وجعلها برداً وسلاماً عليه فى سورة الأنبياء إذ يقول : « قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » (الأنبياء ٦٨ — ٧٠) . وفى سورة الصافات إذ يقول : « قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » (الصافات ٩٧ ، ٩٨) .

وأمه هاجر وبنائه للكعبة ، بينما يدل تاريخ زرادشت على أنه لم يرحل إلى بلاد الحجاز ولم تكن له صلة ما بمكة ولا بالبيت الحرام .

٣ — والرأى الصحيح هو ما يذهب إليه الفريق الثالث الذى يقرر أن زرادشت شخصية حقيقية وأنه غير إبراهيم الخليل . وقد اختلف هؤلاء فى تحديد جنسيته وتحديد الزمن والمكان اللذين ظهر فيهما . وأرجح الآراء فى هذا الصدد أنه إيرانى الجنس ، وأنه ولد فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد حوالى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد بأذربيجان إحدى مقاطعات ميديا على مقربة من بحيرة أورميا ، وأنه قد هاجر منها إلى بختر فى شرق إيران فى مرحلة شبابه ، وأنه مات قتيلا فى بيت من بيوت النار فى بلخ حوالى سنة ٥٨٣ عندما أغار عليها الطورانيون . وقد اعتمد أصحاب هذا الرأى على أدلة تاريخية كثيرة يكاد بعضها يصل إلى درجة اليقين . وفى مقدمة المنتصرين لهذا الرأى من العلماء المحدثين دارمستيتير وهوارت من الفرنسيين وويست الإنجليزى وجاكسون الأمريكى[1] .

Darmesteter, Huart, West, Jackson .

ولا يعتقد أحد من العلماء الباحثين فى الوقت الحاضر بما كان يزعمه اليهود — حسب ما يروى عنهم الطبرى وابن الأثير وغيرهما من مؤرخى العرب — من أن زرادشت كان من أهل فلسطين ، وكان من خاصة الخدم لبعض تلاميذه أرمياء النبى ، فخانه وكذب عليه ، فأصيب بالبرص ، وفرّ من فلسطين ، ولحق ببلاد أذربيجان . وشرع بها دينه .

---

(١) انظر حامد عبد القادر : «زرادشت الحكيم» ٢٨ — ٣١ .

— ٢ —

حياته ورسالته وانتشار دينه

الراجح أن زرادشت ولد حوالى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد بأذربيجان إحدى مقاطعات ميديا على مقربة من بحيرة أورميا فى القسم الغربى من بلاد فارس كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ويروى عن مولده وعن الفترة السابقة لمولده قصص وأساطير كثيرة يشبه بعضها ما يقوله المسيحيون عن المسيح وأن روح الله قد حلت فيه أو أنه أحد الأقانيم المكونة للإلاه، ويشبه بعضها ما حدث لإبراهيم الخليل من إلقائه فى النار بدون أن يمسه منها ضرر ، ويقص بعضها نبأ حوادث كونية وفلكية وحيوانية غريبة كانت إرهاصا لبعثته وبشيرا بقرب ظهوره . فمن ذلك ما ترويه أساطير الإيرانيين من أن ثورا قد ظهر قبل مولده وتكلم منبئاً بقرب ظهور منقذ للعالم من سيطرة قوى الشر؛ وتنسب أساطير أخرى هذه البشارة إلى ثورين اثنين لا إلى ثور واحد . ومن ذلك ما شاع اعتقاده عند قدامى الإيرانيين من أن الله قد نفخ فى رحم أمه من روحه . فتقمصت روح الله جسد زرادشت ، فنشأ جامعاً بين اللاهوت والناسوت ، على نحو ما يعتقده المسيحيون فى المسيح ، وأنه لما ولد أحاط بالدار التى ولد بها نور قدسى وهاج ، وهبط من السماء نجم عظيم ودنا من الأرض وأعلن النبأ السار ، وظهر فى عرض الأفق فى السماء كوكب عظيم ملأ ضياؤه جميع أنحاء الفضاء ، وأنه قد ضحك عقب ولادته بصوت مرتفع سمعه جميع الحاضرين ، وكان المنجمون قد أخبروا حاكم أذربيجان أن نبيا سيظهر قريبا وأنه سيتم على يديه إلغاء دين الفرس و إبطال السحر وأنه ستبدو منه أمور

خارقة للعادة عقب ولادته، ولما سمع الحاكم بولادة زرادشت وأنه ضحك عقب ولادته ذهب فى طلبه إلى دار أبيه پوراشاسب وهم بقتله بخنجره ، ولكن يده قد جمدت ولم تستطع تحريك السيف ، فأشار عليه السحرة بأن يبنى بنيانا كبيرا و يملأ ه وقودا و يشعل فيه النار و يلقى فيه زرادشت ، فأنفذ ما أشاروا به، ولكن النار لم تحرق الطفل ، بل كانت برداً وسلاماً عليه . وأخذته سنة من النوم فنام فى وسط الرماد ؛ وما برح نائما حتى جاءت أمه مستخفية على حين غفلة من الناس فحملته إلى دارها سليما[١] .

ولما بلغ زرادشت العشرين من عمره أحس رغبة شديدة فى الوقوف على حقيقة الكون وخالقه ومحتويات الطبيعة وما وراءها ، فآثر العزلة والرياضة الروحية والتأمل العميق فى ملكوت السماوات والأرض، لتصفو روحه ، و يوقن بقدرة الإلاه ، وتتطهر نفسه من جميع عقائد الشرك والسحر ونسبة الأفعال للكواكب والمخلوقات ، ويتهيأ لتلقى الإشراق والاهتداء إلى معرفة الحق ، وأخذ يطوف بمختلف بلاد إيران لتزداد تجاربه وتزداد معرفته بالمجتمعات وشئون حياتها. وقد استغرقت هذه المرحلة عشر سنين ، فبلغ فى نهايتها الثلاثين من عمره وكان حينئذ قد وصل إلى أرقى درجات الصفاء الروحى .

وتروى أسفار الديانة الزرادشتية أنه حينما بلغ هذه المرحلة نزل عليه الوحى من السماء . فبينما هو واقف على شاطىء نهر ديتى Daiti فى مقاطعة أذربيجان إذا به يرى كائناً مضيئاً يهبط من السماء ، وكأنه عمود من نور ، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان ، ويحمل فى يده عصا من اللهب ، ولما دنا منه أنبأه أنه ڤاهومانا Vahumana كبير الملائكة أرسله الله إليه ليعرج به إلى الملأ الأعلى ليحظى بشرف المثول أمام رب العالمين « أهورا مزدا » . وهنالك أشرقت عليه معرفة

---

(١) حامد عبد القادر ، زرادشت الحكيم ٣٦ — ٣٩ .

الحق ، وتكشفت له أسرار الكون ، ورفعت عن بصره الحجب ، ووقف على ما كان يسعى للوقوف عليه وأصبح نبيا مرسلا ، وأوحى الله إليه بتفاصيل دين كامل يبلغه للخلق ، و بكتاب مقدس هو « الأبستاق » الذي سنتكلم عليه فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

وقضى زرادشت عشر سنين يطوف فيها ببلاد إيران، و يبلغ الناس رسالته ، بدون أن يجد مستجيبا لما يدعو إليه . وقد قاسى فى أثناء ذلك من المتاعب والأهوال مالا يصبر على احتمال مثله إلا أولو العزم من الرسل . ولما لم يظفر فى بلاده بأتباع يدخلون فى دينه رحل إلى بلاد الطورانيين ، فلم يجد منهم خيرا مما وجده من أهله ، بل لقد كانوا شرا عليه من أهله ، فقد لقى منهم عنتا وأذى شديدين ، بل لقد تعرض للهلاك أكثر من مرة .

ولم يودعه أهورا مزدا ولم يحرمه عنايته فى هذه المدة ، بل ظل يؤيده و يقوى عزيمته و يربط على قلبه ، ويثبت عقيدته بالوحى المتوالى ، و يعده بأن الآخرة ستكون خيراً له من الأولى وأن ربه سوف يعطيه حتى يرضى . وقد نزل عليه الوحى فى أثناء هذه السنين العشر سبع مرات ظهر له فيها الملائكة الستة كبار الملائكة .

وفى السنة الحادية عشرة بعد نبوته أى حينما جاوز الأربعين من عمره بدت فى أفقه طلائع النجاح ، فآمن به ابن عمه مِتيوماه Metyomah ، وانتصر لدينه ، فشدّ الله به أزره ، وقوى به دعوته .

ومضت سنتان بعد ذلك لم يؤمن به فى أثنائهما أحد ، و إن كانت محتويات رسالته قد انتشرت وأصبحت معروفة لكثير من الناس .

و بعد أن بلغ الثانية والأربعين أوحى الله إليه أن يذهب إلى كشتاسب (أو بوشتاسف أو يُستاسف كما يسميه العرب) ملك إيران حينئذ ليبلغه رسالة

ربه لعله يتذكر أو يخشى . فصدع بما أمر به ، وشخص إلى عاصمة الملك بيلخ ودعا الملك إلى الدخول فى دينه ، بعد أن وقفه على أصوله ، وتلا عليه آيات من كتابه المقدس الذى أوحى إليه به . فتأثر الملك بما سمع ورق قلبه لهذا الدين وإن كان لم يدخل فيه ، وأنزل زرادشت منزلا كريما ، وأحاطه بحفاوة عظيمة ، وأعد لإقامته جناحا خاصاً فى قصره زوده بفاخر الأثاث والرياش والخدم والأتباع . ويروى الطبرى وابن الأثير وغيرهما من مؤرخى العرب أن المجوس يزعمون أنه نزل على الملك كشتاسب من سقف إيوانه وبيده كبة من نار يلعب بها ولا تحرقه .

وقد أثارت حفاوة الملك بزرادشت حسد كثير من رجال الحاشية والمقربين الملك ، فأخذوا يأتمرون بزرادشت ، ويسعون ضده بالوشاية ، ويدبرون له المكايد ويتربصون به الدوائر . ولكن انتهى الأمر بعد محن كثيرة أصابت زرادشت بانتصاره على أعدائه وإقامة الحجة عليهم وإثبات نبوته بظهور معجزات كثيرة على يديه وإبرائه لأمراض وعاهات يعجز الطب العادى عن شفائها : فمن ذلك شفاؤه لجواد الملك كشتاسب . فقد كان لهذا الملك جواد أسود يحبه ويعتز به ، فأصابه مرض تقلصت من جرائه قوائمه الأربع جميعاً ودخلت فى بطنه ولم يظهر منها إلا أطرافها ؛ وعجز جميع بياطرة الدولة عن علاجه ، فأشير على الملك أن يعرضه على زرادشت ، وكان حينئذ سجينا ، فأخرجه من السجن وطلب إليه أن يدعو ربه أن يبرىء الجواد من مرضه ، فاشترط زرادشت لذلك أربعة شروط ، وهى : أن يؤمن الملك والملكة برسالته ؛ وأن يعلن الملك الحرب على الطورانيين ، ويكون ولى العهد على رأس جيشه ؛ وأن يعاقب من تسببوا فى سجن زرادشت عقاباً صارماً . فقبل الملك شروطه ، وكان كلما حقق شرطا منها توجه زرادشت بالدعاء إلى ربه فتخرج إحدى قوائم الجواد من بطنه ، وهكذا حتى خرجت قوائمه كلها ، وعاد كأن لم يكن قد أصابه شىء من قبل . ومن ذلك أيضا أنه أعاد

البصر إلى أعمى من بلدة الدينور بأن وصف له حشيشة وطلب أن يُعصر ماؤها في عينيه فأبصر[1].

فآمن به الملك والملكة وولى العهد وتبعهم رجال الحاشية والجيش والخاصة .

« وكان فى مقدمة من اعتنقوا الدين الجديد من حاشية الملك رجلان قدر لهما أن يكونا الحواريين العظيمين المخلصين للزرادشتية ، المجاهدين فى سبيل نشرها والدفاع عنها ، وهما « جاماسب » وزير الملك ونجيّه « وفراشا أوسترا » وزير الملك الثانى . وقد رأى زرادشت أن يوثق الصلة بينه و بين حاشية الملك بإيجاد رابطة نسب بينه و بين هذين الحواريين . فزوج أخته من « جاماسب » ، وتزوج هو من أخت « فراشا أوسترا » . فحين انضمت رابطة النسب إلى رابطة الدين توثقت العلاقة بين زرادشت ووزيرى الملك . ولا ريب أن هذا كان من أسباب سرعة انتشار الزرادشتية »[2] .

وأخذ الناس بعد ذلك يدخلون فى هذا الدين أفواجا ، ولم تمض بضع سنين حتى اعتنق الزرادشتية معظم أهل إيران ، بل يقال أنه قد دخل فى هذا الدين كثير من أهل البلاد المجاورة لإيران ، وخاصة بعض بلاد من الهند ، بل يقال إنه انتشر كذلك فى بعض بلاد اليونان نفسها .

وشن كشتاسب ورجال دولته حربا دينية لا هوادة فيها على مخالفيهم فى العقيدة . فاضطر فريق ممن لم يؤمنوا بزرادشت ودعوته إلى الهجرة عبر جبال

---

(١) من الطريف أن الشهرستانى لا يسلم بأن هذه معجزة ، بل يرى أنها خاصة من خواص الحشائش التى عصر ماؤها ، فيقول : « وهذا من جملة معرفته بخاصية الحشيش وليس من المعجزات فى شىء » ! ! مع أنه من الواضح أن الرابطة بين الحشيش والإبصار فى هذا الحادث — إن صحت هذه القصة — ليست رابطة سبب بمسبب ، بل مجرد مصاحبة اتفاقية ، كضرب قتيل بنى إسرائيل بجزء من البقرة المذبوحة وبعثه إلى الحياة بعد هذه الضربة . ولو أن شخصاً آخر غير زرادشت وصف هذا الإجراء ما أدى إلى هذه النتيجة .

(٢) حامد عبد القادر ، زرادشت الحكيم ، ص ٥٧ .

هندوكوش ونزلوا أرض البنجاب ، وبقى الفريق الآخر بإيران نفسها محتملين آثار الاضطهاد[١] . ولم تصبح الزرادشتية ديانة رسمية للدولة إلا أيام الساسانيين فى القرن الثالث الميلادى. ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن عقيدة الإيرانيين عامة ؛ بل كانت تقوم إلى جانبها وتتصارع معها عقائد شتى تعتنقها أقليات من الإيرانيين؛ ومن أهم هذه العقائد اليهودية والبوذية والنصرانية والمانوية والمزدكية . ثم جاء الإسلام فدخل فيه معظم أهل إيران ولم يبق على الزرادشتية إلا نفر قليل هاجر بعضهم إلى بلاد الهند ولا تزال منهم فى الوقت الحاضر طائفة فى بومباى تعرف بالفرسيين وتتمسك بهذا الدين إلى يومنا هذا ، وبقيت فئة منهم فى فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار فى المعابد فى كثير من الولايات الفارسية . وعاشت هذه الفئة مع الأقليات الدينية الأخرى فى أمان واطمئنان فى ظل المسلمين . ثم أخذ أتباع الزرادشتية فى إيران يتناقص عددهم شيئاً فشيئاً منذ القرن الثالث الهجرى حتى أوشكوا على الانقراض ولم يبق منهم فى العصر الحاضر إلا عدد قليل .

* * *

هذا ، وقد قضى زرادشت نحبه حوالى سنة ٨٥٣ قبل الميلاد على أرجح الأقوال وهو فى نحو السابعة والسبعين فى أحد الهياكل المقدسة فى بلخ. ومات قتيلا وهو يقوم على خدمة النار فى أثناء غارة الطورانيين على بلاد إيران . فقد وصلوا إلى بلخ بينما كان زرادشت وثمانون من كبار الكهنة يقدمون الوقود للنار فى هيكل هذه المدينة ، فهجم عليهم الأعداء وطعنوهم بسيوفهم ، فخر الجميع صرعى ، وسالت دماؤهم فلطخت جدران موقد النار ، وامتدت إلى النار المقدسة نفسها فأخمدتها .

---

(١) أمين عبد المجيد ، القصة فى الأدب الفارسى ص ٩٦ .

— ٣ —

الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية

« الأبستاق »

يطاق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية اسم « الأبستاق » وهو تعريب لكلمة « الأفستا » Avesta (ومعناها الأساس أو الأصل أو المتن أو السند). والمقرر فى هذه الديانة أن الأبستاق موحى به من الإلاه المسمى عندهم « أهورا مزدا » وليس من وضع زرادشت .

وكان الأبستاق يشتمل على واحد وعشرين سفراً ، وكان مجموع الفصول التى تشتمل عليها هذه الأسفار ألف فصل . ويحوى تفصيلا لعقائد الديانة الزرادشتية وعباداتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها .

ويقال إنه سجل على اثنى عشر ألف جلد من جلود البقر أو الثيران أو المعز [1] ، وأنه قد كتب حفراً فى الجلد ونقشا بالذهب. وفى هذا يقول المسعودى فى « مروج الذهب » : « إن الأبستاق كتب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب، فيه وعد ووعيد وأمر ونهى وغير ذلك من الشرائع والعبادات » [1].

وقد فقدت جميع نسخ الأبستاق بعد غزو الإسكندر لفارس سنة ٣٣٠ قبل الميلاد وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التى كانت تشتمل على شىء من أجزائه . والراجح أن اليونانيين قد تعمدوا إعدامها لما عرف عنهم من الاعتزاز بحضارتهم

---

(١) يرى صديقنا الفاضل الأستاذ العلامة حامد عبد القادر فى كتابه القيم « زرادشت الحكيم » أن رواية كتابته على جلود المعز هى أصح الروايات وأكثرها اتفاقاً مع العبارة الفارسية ، (انظر « زرادشت الحكيم » ص ٦٦) .

(٢) أمين عبد المجيد ، المرجع السابق ص ٣١ .

وعدائهم لحضارة الفرس وثقافتهم، ولما طبعوا عليه من ميل للانتقام من الإيرانيين، ومجازاتهم على مافعلوا بالآثار اليونانية إبان انتصارهم على اليونان قبل ظهور الإسكندر. ومن ثم يوصف الإسكندر فى الأساطير الزرادشتية بأنه « الرومى الملعون الذى يستهويه الشيطان فيخرب البلاد و يسفك دماء الأبرياء ويحرق برسبوليس عاصمة فارس و يقضى على كتب الزرادشتية المقدسة المدونة على اثنتى عشرة ألف قطعة من جلود المعز؛ وأنه لذلك سيذهب إلى الجحيم بعد أن يقضى على نفسه بنفسه (١) ».

وظلت بعد ذلك نصوص الأبستاق أو بعضها فى حوافظ الموابذة (كبار رجال الدين عند الفرس) والفقهاء يتناقلونها و يتناقلها الناس عنهم مشافهة. فلا بد أن يكون قد دخلها من جراء ذلك كثير من التحريف والتغيير والزيادة، وأن يكون حظ كبير منها قد عدت عليه عادية النسيان.

وفى النصف الأخير من القرن الأول الميلادى (٥١ — ٨٧) شرع ڤولوجيسس الأول Vologeses (بلاش الأول) ملك فارس من الأسرة البارثية فى تدوين مابقى من حوافظ الناس من الأبستاق. وأكمل عمله هذا فى القرن الثالث الميلادى الملك أردشير مؤسس الدولة الساسانية. و بلغ ما تم تدوينه فى هذين العهدين واحداً وعشرين سفراً تشتمل على ٣٤٨ ثلثمائة وأربعين وثمانية فصول من فصول الأبستاق التى كانت تبلغ ألف فصل كما قدمنا، أى إنه قد فقد منه نحو الثلثين، هذا إلى ما اعتور الفصول المدونة من نقص وزيادة وتحريف وتغيير عن أصولها نتيجة لتقادم العهد بها وتناقلها مدة طويلة عن طريق المشافهة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وكما فقد الأبستاق القديم الأصلى، فقد كذلك هذا الأبستاق الذى دون

---

(١) حامد عبد القادر، المرجع السابق ص ٦٧ .

من حوافظ الناس فى عهد البارثيين والساسانيين . وجاء فى أثناء ذلك الإسلام واعتنقه معظم الإيرانيين ، ولم يبق على الزرادشتية إلا أقليات ضئيلة لا يؤبه لها. وكان من جراء ذلك أن نسى الإيرانيون معظم ما يتصل بالأبستاق ، ولم يبق منه فى ذكرياتهم إلا رواسب قليلة يتناقلها الخلف عن السلف . ومن هذه الرواسب دون المؤرخون فى هذه العصور ، ومنهم القدامى من مؤرخى العرب ، جميع ما كتبوه عن الديانة الزرادشتية .

وفى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى عثر أحد علماء الآثار الفرنسيين وهو العلامة دو پرون Duperron ، فى أثناء بحثه فى مكتبه بودليان بمدينة أكسفورد Bodlienne[1] ، على قسم من الأبستاق الذى دون فى عهد البارثيين والساسانيين، فقام بنشره وترجمته ؛ وترجم بعد ذلك إلى كثير من اللغات الحية . وهذا القسم هو كل ما وصل إلينا وما نعرفه عن الأبستاق . وهو يشتمل عن خمسة أسفار لا تكاد تتجاوز فى مجموع فصولها ربع الأبستاق الذى دون فى عهد البارثيين والساسانيين

وهذه الأسفار هى :

١ — سفر اليسنا Yasan (ومعناها العبادة أو التسبيح). و يشتمل على أدعية وصلوات كان يتجه بها إلى الله و إلى الملائكة والكائنات المقدسة و إشارات إلى تاريخ الدعوة الزرادشتية فى مراحلها الأولى .

ومن بين فصول اليسنا سبعة عشر فصلا تعرف باسم « الكاتاها » وهى أقدم أجزاء الأبستاق وأكثرها قداسة . و يسوق الباحثون عدة أدلة على أنها

(١) هى مكتبة من أشهر مكتبات العالم ، تشتمل على أكثر من نصف مليون مجلد وعلى ثلاثين ألف مخطوط ؛ وقد أنشأها توماس بودلى Thomas Bodley من رجال السياسة الإنجليز فنسبت إليه .

أقدم ما ألف من فصول الأبستاق جميعاً . ومن هذه الأدلة أنها هى وحدها التى كتبت فى الأصل باللهجة الميدية ، وهى لهجة المنطقة التى ولد فيها زرادشت ، فـكانت إذن أول لغة استخدمها فى حديثه وتأليفه، قبل أن يهاجر إلى زبختر فى شرق إيران ويأخذ عن أهلها لغتهم ، وهى اللغة التى كتب بها فى الأصل ما عدا الـكاتاها من أسفار الأبستاق .

وفيما يلى بعض نصوص من اليسنا ترجمها بشىء من التصرف الأستاذ حامد عبد القادر فى كتابه عن « زرادشت الحـكيم » :

« النجدة لهذا الإنسان ، النجدة له مهما يـكن أمره . ليتفضل على الخالق الأكبر ، والحاكم الأعظم ، الرب الحى . . . .

إنى أتوسل إليك يا أهورا أن تحمى حمى الهداية ، وعسى أن تتفضل علىّ بها . أنت يامن يبعث فى النفوس التقوى التى لهـا من العظمة مالها ، فهى النعمة المقدسة ، وهى حياة العقول الطيبة الصالحة . إنى أتصورك أيها المعطى الأكبر فرداً جميلا حينما أشاهد أنك القوة العليا (ذات الأثر الفعال) فى تطور الحياة ، وحينما أرى أنك تـكافىء الناس على الأعمال والأقوال . لقد كتبت الشر عقابا على الشر ، وجعلت السعادة جزاء وفاقا لمن يفعل الخير ، وذلك بفضلك العظيم الذى يظهر أثره حينما تتبدل الخليقة التبدل النهائى » .

ويتحدث زرادشت فى هذا السفر عن تاريخ الدعوة الزاردشتية فى مراحلها الأولى فيقول :

« مزدا أهورا إنى أتوسل إلى بركاتك وكرمك وعدلك أن تـكافىء من كانوا السابقين الأولين المسارعين إلى الدخول فى دين أهورا ... وأن تجزيهم الجزاء الذى وعد به زرادشت من يدخل فى دينه ويحفظ عهده . إن الملك كشتاسب قد قبل العقيدة التى أوجدها مزدا أهورا . إنه قبل العهد (الـكتاب المقدس) وأقر بحجته ، كما تقبل الدعوة إلى طريق الـكرم والإحسان ، فليتم

هذا وفق مشيئتك ... لقد وعدنى فراشا أوسترا أن يهب لى أخته الجميلة المحببة إلى - (هى أخت فراشا أوسترا وزير الملك كشتاسب التى تزوجها زرادشت كما تقدمت الإشارة إلى ذلك) . فتفضل أيها الملك العظيم أن تهديهـا الصراط المستقيم ، حتى تدرك تمام الإدراك معنى السلوك القويم فتصلح به نفسها . وقد تقبل جامسب (الوزير الأول للملك كشتاسب وقد تزوج بروجست أخت زرادشت كما تقدم) فى تقوى وطهارة هذه العقيدة الـكريمة العنصر . وكل من اشترك فى إسداء الإحسان والاتصاف بالـكرم فهو مخلص لهذه العقيدة خاضع لسلطانها ، فتفضل بالإنعام عليهم حتى يجدوا فيك حصنا منيعا يحميهم . وهذا الرجل متيوماه (هو ابن عم زرادشت الذى كان أسبق الناس إلى اعتناق الزرادشية والذى شدّ الله به أزر زرادشت كما سبقت الإشارة إلى ذلك) قد وضع هذه الطريقة الدينية نصب عينيه بعد أن أدركت روحه أسرارها . وكل من يدرك حقيقة الحياة وتتجلى له أسرار هذه الطريقة فسوف يوهب له العلم بمشيئة مزدا التى ترشد المؤمن إلى (إصلاح) شئون حياته . — تفضل بالوفاء بما وعدت ، فانشر لواء بركاتك على كل من يقرون بأن الاستقامة فى السلوك وإسداء المعروف ومزدا شىء واحد . وكذلك كل من يعبدك أنت يا أهورا ويسبحك ويوقرك»[1] .

٢ — سفر « الوسپرد » أو « الڤسپرد » Visperd . ويشتمل على أدعية وصلوات مكملة لما فى اليسنا وترتل فى مناسبات خاصة . ويبلغ عدد فصوله ثلاثة وعشرين أو سبعة وعشرين فصلا .

٣ — اليشتات أى الترنيمات أو المزامير Yashts وهى إحدى وعشرون ترنيمة تتلى فى مدح الملائـكة المشرفين على أيام الشهر . فقد كان يعتقد أن لكل

(١) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ص ٧١ — ٧٣ .

يوم من أيام الشهر الثلاثين حاميا وحارسا من الملائكة . وكان يسمى اليوم باسم حاميه وحارسه . وكان لكل ملك ترنيمة دينية خاصة تتلى باسمه . فلا بد أن يكون عدد هذه اليشتات فى الأصل ثلاثين وأن يكون قد فقد منها تسع يشتات .

ويذكر البيرونى فى كتابه «الجماهر فى معرفة الجواهر» فى صدد هذه اليشتات أنه كان للملوك الساسانيين سبحة من الدر الثمين عدد حباتها واحد وعشرون بعدد اليشتات ، وكانوا يسمونها « نسك شمارة » أى عدد الأسفار ، لأنها بعدد كتبهم المعروفة بالأبستاق[1] . — فبحسب هذه الرواية يكون عدد اليشتات فى الأصل واحداً وعشرين فقط ، وتكون الحكمة فى الوقوف عند هذا العدد هو مطابقته لعدد أسفار الأبستاق .

وقد كانت اليشتات نظما ، ثم شرحت نثرا ، وتداخلت شروحها فى المتن الأصلى ، فاختلط نظمها بالنثر ، فاضطربت أوزانها .

٤ — الخوردة أفستا أى الأبستاق الصغير . وهو سفر جامع لأدعية وصلوات خاصة بكل وقت من اليوم وبالأيام المباركة من الشهر والأعياد الدينية فى العام وأوقات الصحة والمرض التى تعرض فى الحياة . ويشتمل كذلك على بعض أحكام العبادات والزواج والزفاف .

٥ — الوانديداد أو الفانديداد Vendidad أى القانون المضاد للشياطين . ويتألف من اثنين وعشرين فصلا يعرض أولها للأمور نفسها التى تعرض لها الإصحاحات الأولى من سفر التكوين ؛ وهى خلق العالم والسماوات والأرض ،

---

(١) يتكلم البيرونى فى هذا الكتاب عن المعادن الثمينة والأحجار الكريمة . وقد عرض لليشتات بمناسبة الكلام على هذه السبحة المؤلفة من حبات من الدر الثمين . انظر أمين عبد المجيد المرجع السابق ص ٣٥ والتعليق الأول .

فيتحدث عما خلقه الله من الأراضى الطيبة المباركة واحدة بعد أخرى ، وعما أوجدته قوى الشر (أنكره مينو) من الأرواح الخبيثة . وتعرض بقية فصوله للنظم التى يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيين (وهو فى هذه الفصول يشبه سفر اللاويين فى العهد القديم) ولبيان العقائد والشرائع الزرادشتية المتعلقة بالموت والحياة والزواج وما إليه من نظم الأسرة ومشكلات الحياة الاجتماعية والنجاسة والغسل والطهارة وغسل الموتى وتطهير الملابس والبدن والصحة والمرض والقسم وحفظ العهود ونقضها ... وما إلى ذلك . ومن ثم يعد أهم مرجع للوقوف على محتويات الديانة الزرادشتية وتفاصيل شرائعها .

— ٤ —

شروح الأبستاق

ترجع شروح الأبستاق وشروح شروحه إلى ثلاث مجموعات يطلق عليها اسم « الزَّنْد » و « البازند » و « الإياردة » . — وقد فقد معظم هذه الشروح ولم يصل إلينا منها إلا القليل :

١ — أما « الزَّنْد » فهو الشرح المباشر للأبستاق ، وقد دون باللغة الفهلوية ، وهى اللغة الفارسية فى مراحلها الوسطى (وتختلف عن اللغة التى دون بها الأبستاق ، وهى الفارسية فى مراحلها القديمة) . وهذا دليل على أنه قد ألف فى عصر متأخر بأمد طويل عن العصر الذى ألف فيه الأبستاق لأول مرة . والراجح أنه بدىء فى تدوينه فى عصر ڤلوجيسس الأول (بلاش الأول ٥١ — ٨٧ م) حينما بدىء فى جمع الأبستاق وتدوينه للمرة الثانية[1] ؛ والراجح كذلك أنه لم يتم تدوينه إلا فى أواخر عهد بنى ساسان ، أى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى .

---

(١) انظر صفحتى ١٣٦ ، ١٣٧ .

هذا ، وكان كثير من قدامى الزرادشتيين يعتقدون أن الأبستاق والزند كليهما نزل من السماء ؛ بل لقد كان بعضهم يخلط بين الكتابين فيزعم أن الزند هو الكتاب الأصلى لزرادشت ؛ ومن هؤلاء صاحب كتاب « برهان قاطع » إذ يقول : « الزند كتاب كان إبراهيم زرادشت يدعى أنه نزل عليه من السماء ، ويقول بعضهم إنه صحف إبراهيم » ؛ ومنهم كذلك الأسدى فى كتابه «لغت فرس» إذ يقول : «الأبستاق تفسير الزند وكان الزند صحف إبراهيم»[(١)]. — وكان كثير ممن يعرفون حقيقة الزند ، وهو أنه شرح للأبستاق ، يذهبون إلى أنه من عمل زرادشت نفسه . وقد جارى المسعودى أصحاب هذا الرأى إذ يقول « ... ثم عمل زرادشت للأبستاق تفسيراً عند عجزهم عن فهمه وسموا التفسير زنداً » .

وبعض المتزمتين من الزرادشتيين كانوا يتمسكون بالأبستاق وحده ولا يعترفون بالزند ويعتبرون من يعول على هذا الشرح خارجا على أصول الشريعة ويسمونه « زنديا » . ولعل كلمة زنديق المستعملة فى لغتنا العربية معربة عن هذا الأصل الفارسى . وإلى هذا الرأى ذهب المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » إذ يقول : « وذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بن سبتمان بكتابهم المعروف بالنستا (الأفستا) باللغة الأولى (القديمة) من الفارسية ، وعمل له التفسير وهو الزند ... وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل ، وكان من أورد فى شريعتهم شيئا غير المنزل الذى هو النستا (الأفستا) وعدل إلى التأويل الذى هو الزند قالوا هذا زندى ، فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل . فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس ، وقالوا زنديق وعربوه »[(٢)].

---

(١) أمين عبد المجيد ، المرجع السابق ص ٣٦ — ٧٢ .

(٢) مروج الذهب على هامش نفح الطيب الجزء الأول ص ٢٨٧ وما بعدها . نقلا عن حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .

٢ — وأما « البازند » فهو تفسير للزند ، أى شرح لشرح الأبستاق . وقد كتب باللغة الفهلوية فى مراحلها التالية للفتح العربى حوالى القرنين الثانى والثالث الهجريين أى حوالى السابع والثامن الميلاديين على الأرجح .

وكان بعض الزردشتيين يعتقد أن البازند من عمل زرادشت نفسه وقد جارى المسعودى أصحاب هذا الرأى إذ يقول: « . . . ثم عمل زرادشت للتفسير تفسيراً وسماه بازند » .

٣ — وأما الإياردة بكسر الهمزة وفتح الراء وكسرها وفتح الدال فهو شرح للبازند ، أى شرح لشرح الشرح أو تفسير لتفسير التفسير . وإلى هذا يشير المسعودى إذ يقول «... ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحا لسائر ماذكرنا وسموا هذا التفسير ياردة ».

— ٥ —

العقيدة فى أسفار الزرادشتيين

كانت الديانة الزرادشتية فى أصلها ديانة توحيد تدعو إلى عبادة إلاه واحد هو « أهورا مزدا » وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة ، وكانت جميع أدعيتها وصلواتها وآيات أسفارها تتجه إلى هذا الإلاه وحده ، كما يظهر ذلك من التأمل فى النصوص التى نقلناها عن سفر «اليسنا[1]» وتصفه بصفات القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم والمخالفة للحوادث ، وأنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، ويعلم حقيقة ما فى السماوات والأرض ولا يصل أحد إلى معرفة حقيقته . فأهورا مزدا يطلق فى الأبستاق على الذات المتصفة بهذه الصفات . بل إن اسم « أهورا مزدا » نفسه يدل معناه فى الفارسية

(١) انظر صفحتى ١٣٨ ، ١٣٩ .

على ذلك . « فهو مركب من ثلاث كلمات وهى « أهو » و« را » و « مزدا » ومعناها على الترتيب : أنا — الوجود — خالق ؛ أى أنا وحدى خالق الوجود أو الكون »(١).

غير أنه يظهر أنه قد دخل الديانة الزرادشتية فيما بعد كثير من التحريف والتبديل ، فانتهى بها الأمر فى عصورها الأخيرة إلى أن أصبحت ديانة مثنوية أو ثنوية أى تعتقد بوجود إلاهين: أحدهما « أهورا مزدا » و تجعله إلاهاً للخير ؛ والآخر « أهريمان » و تجعله إلاها للشر ، وتعتقد أن بينهما صراعا دائما لأن كليهما يرمى إلى السيطرة على العالم ؛ مع أن « أهريمان » هذا — وهو فى الأصل « أنكره مينو » ومعناه الخبث أو الشر — لايذكر فى الأسفار المقدسة للزرادشتيين فى مقابل « أهورا مزدا » على أنه شريك له ، ولكنه يذكر فى مقابل « سبنتامينو » ومعناه القدسية أو الخيرية . فلم يكن فى أصل العقيدة الزرادشتية إلاهان ، و إنما كان فيها قوتان متضادتان أو مجموعتان من القوى المتضادة : إحداهما مجموعة قوى الخير والنور والحياة والحق ، و يرمز إليها جميعاً « سبنتامينو » ويعمل على تحقيق أغراضها سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليا وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم ؛ والأخرى قوى الشر والظلام والموت والخداع ، و يرمز إليها جميعاً « أنكره مينو » الذى تحول اسمه إلى « أهريمان » و يقوم على تحقيق مقاصدها الآثمة سبعة شياطين خبيثة تمثل الرذائل الإنسانية الرئيسية وهى النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل والظلم و إزهاق الأرواح(٢) .

وكلتا المجموعتين من القوى أو الدوافع مع توابعها وملحقاتها كانت خاضعة

---

(١) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ٨٠ ، ٨١ .
(٢) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ص٨٣ .

للإله الواحد المسيطر على كل شيء فى الوجود وهو « أهورا مزدا ». — وقد يكون العلامة الشهرستانى فى مقدمة المدركين لحقيقة الديانة الزرادشتية فى نشأتها الأولى وأنها كانت ديانة توحيد ، وذلك إذ يقول فى كتابه الملل والنحل : « وكان دين زرادشت عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث » ، وإذ يقول فى موضع آخر : « وقال زرادشت إن البارئ تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند »(١).

ولما كانت ذات « أهورا مزدا » ذاتا روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة لاتدركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول ، ولما كان كثير من الناس لا يستطيعون الإيمان بذات هذا شأنها إلا إذا رمز إليها برموز مادية يستطيعون تصورها ، فقد رمزت الديانة الزرادشتية إلى الذات العلية برمزين ماديين مشاهدين تقوى عقول الجماهير على إدراكهما ، ويشتمل كلاهما على بعض مظاهر من صفات الخالق ، فيستطيع الناس بالتأمل فى صفاتهما تصور شيء من صفات أهورا مزدا على وجه التقريب والتمثيل ؛ وهذان الرمزان أحدهما سماوى وهو الشمس والآخر أرضي وهو النار . فكلاهما عنصر متلألىء مضيء طاهر مطهر لا يتطرق إليه الخبث ولا الفساد ، وتتوقف عليه الكائنات . وهذه الصفات تشبه طائفة من صفات الخالق نفسه وترمز إليها .

ومن ثم حرصت الديانة الزرادشتية على أن يوقد فى كل هيكل من هياكلها شعلة من النار ، وأن تظل هذه الشعلة متوهجة مضيئة ، يتعهدها الموابذة (كبار رجال الدين) والهوابذة (صغار رجال الدين) ورجال الكهنوت ، فيقدمون لها ، خمس مرات فى اليوم وقودا من خشب الصندل وما إليه من الأعشاب والمواد العطرية

(١) الملل والنحل للشهرستانى ، الجزء الأول ، ٢٣٧ طبعة مصطفى الحلبى .

فيمتلىء الهيكل بعرفها الطيب وريحها الزكى، وترتل حولها الأدعية وتقام الصلوات. وكان من عادة الزرادشتيين إذا أقاموا هيكلا جديداً للنار أن يحملوا إليه من كافة النواحى شعلات موقدة ، وأن يبالغوا فى تطهير هذه الشعلات ، فيقتبسوا من الشعلة الأولى شعلة ثانية ومن الثانية ثالثة وهكذا حتى يصلوا إلى التاسعة فيعتقدوا أنها قد وصلت إلى أرقى درجات الطهارة ، فيوقدوا بها نار الهيكل الجديد[١] .

وقد بالغ الزرادشتيون فى تقديس نار الهيكل فأوجبوا على رجل الدين أن يتلثم عند اقترابه من النار خشية أن يصل زفيره إليها فيلوثها . وكان عليه أن يتذكر حينما يدنو من هذه القوة الأرضية أن هذا النور الفياض إنما يرمز إلى أهورا مزدا[٢] .

غير أنه يظهر أنه قد دخل الديانة الزرادشتية ، فيما بعد ، التحريف والتبديل فيما يتعلق بتقديس النار ، فانتهى بها الأمر فى عصورها الأخيرة إلى أن أصبحت ديانة مجوسية يعبد أهلها النار لذاتها، بعد أن كانت مجرد رمز للإلاه ، تشتمل على شىء من صفاته ، وتقرب تصوره للأذهان .

وكان يشارك النار فى صفة التقديس ثلاثة عناصر أخرى من العناصر الأرضية وهى التراب والهواء والماء ، وإن كانت فى مستوى أقل من مستوى النار .

وأما الكائنات الأخرى فقد كان من بينها فى العقيدة الزرادشتية الطيب والخبيث . ويعرف كل نوع بعمله وآثاره . فالطيب ما حسنت أعماله والخبيث ما كان مصدر شر وضرر كالثعابين والعقارب وكل ضار من الحيوانات. والعناصر الخبيثة تظل خبيثة ما دامت على قيد الحياة ؛ فإذا ماتت طهرت وجاز اتصالها

---

(١) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ٨٦ ، ٨٧ .
(٢) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ٨٧ .

بالعناصر المقدسة ، فيجوز دفنها فى التراب و إلقاؤها فى الماء . والعناصر الطيبة تظل طيبة ما دامت على قيد الحياة ؛ فإذا فارقتها الحياة استحالت أجسامها إلى رجس ونجس فلا يجوز لمسها إلا بطقوس خاصة ولا يجوز اتصالها بالعناصر المقدسة . ومن ثم كانت جثة الميت من الأناسى منجسة لكل من يقربها ولكل طريق تمر به ، ولا يجوز أن تدفن فى باطن الأرض ولا تحرق بالنار ولا تلقى بالأنهار ، لأن التراب والنار والماء عناصر مقدسة لا يصح إلقاء نجس فيها . ولذلك أقيم لجثث الموتى فوق قمم الجبال أبراج منعزلة عالية الجدران لا سقف لها يسمى كل برج منها « دِخْما » Dekhuma أو برج الصمت ، وتحمل إليها جثث الموتى نهاراً على نعوش من حديد ثم تلقى فيها طعاماً لجوارح الطيور . وكان كل من يلمس جثة ميت أو تلمسه جثة ميت يعد ملوثا ولا يطهر إلا بعد طقوس دينية معقدة كل التعقيد . بل إن نجاسته هذه كانت تنتقل إلى كثيرين من المجاورين له و إلى غيرهم . فقد ورد فى أسفار الأبستاق أنه إذا مات شخص وكان جالساً بجواره وقت موته شخص آخر ، فإن هذا الشخص الآخر يصبح متلبسا بجريمة ملامسة الميت (على الرغم من أنه لم يقصد هذا اللمس ولا أحدثه) ، و يجب عليه أن يولى مسرعا حتى يصادف فى طريقه أول رجل حى فيقف على بعدٍ منه و يطلب إليه بصوت مرتفع أن يطهره من خطيئته بعد أن يظهره على مجمل ماحدث له ، فيخاطب قائلا : « إنى قد لمست ميتاً لا حراك به ولا قدرة له على التفكير ولا على النطق والتمس منك أن تطهرنى »[1] . وورد فى الأبستاق كذلك أنه إذا مات شخص بين جماعة متلاصقين فإن إثم الملامسة لجثة الميت لا يقتصر على المجاور له فحسب ، إنما ينتقل إلى عدة أفراد من المجتمعين : فإن كان الميت من رجال الدين انتقل إثم الملامسة من المجاور له مباشرة إلى تسعة الأشخاص الذين يلونه ؛ و إن كان من رجال الحرب انتقل من المجاور له إلى ثمانية الأشخاص الذين يلونه ؛ و إن كان مزارعا انتقل من

(١) انظر كتابنا فى « المسئولية والجزاء » الطبعة الثالثة ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

المجاور له إلى سبعة الأشخاص الذين يلونه . وورد فيها كذلك أن المتلبس بهذا الإثم عن طريق الملامسة المباشرة أوعن طريق الانتقال يجب عليه أن يولي مسرعاً حتى يصادف في طريقه أول رجل حي ، فيقف على بعد منه ويطلب إليه بصوت مرتفع أن يطهره من خطيئته بالصيغة التي سبق نصها ، فإن قام بإجراءات التطهير المعهودة طهر الملامس وأثيب المطهر على ما فعل . وإن رفض تطهيره انتقل إليه ثلث الجرم . وفي هذه الحالة يجب على الملامس أن يوالي سعيه حتى يصادف رجلا آخر فيطلب إليه ما طلبه إلى الأول ، فإذا رفض تطهيره انتقل إليه نصف الباقي من الإثم (ثلث مجموع الإثم) ؛ ثم يغادره إلى ثالث فإن رفض الثالث تطهيره انتقل إليه جميع ما بقي الإثم (الثالث الباقي)[1] .

وقد خصصت الزرادشتية طائفة معينة من الناس لإعداد جثث الموتى وحملها إلى برج الصمت كما كانوا يسمونه ، وقررت أنه « لا يجوز أن يستقل شخص واحد من هذه الطائفة بهذا العمل ، بل يجب أن يشاركه اثنان آخران يشهدان عليه . وعلى الثلاثة أن يتطهروا بعد الانتهاء من عملهم ، ولا يجوز لهم مع ذلك أن يختلطوا بالناس... ومن التقاليد الزرادشتية المترتبة على الاعتقاد بأن جثة الميت نجسة أنه إذا مرت جثة ميت بأحد الطرق العامة فإنه لا يجوز لأحد أن يسير فيه إلا بعد تطهيره . ومن وسائل تطهيره تلاوة دعاء آهونا أو دعاء كمتا مزدا Kemta mazda الذي يعد أشد الأدعية قداسة ، وترجمته :

« مزدا من يستطيع أن يحمي شخصا ضعيفا فانيا مثلي حينما يستعد الكافرون الاعتداء علي ؟ ! أي كائن آخر غيرك — بما لك من عقل وقوة نارية — يقوي نشاطه على تنفيذ مبدأ التقوى والاستقامة ؟ ! مزدا ! اكشف لي عن أسرار هذه المعرفة كي تساعدني على نشر دينك . من غيرك يقدر على لطم الأعداء ، ويمدني

(١) انظر كتابنا في « المسئولية والجزاء » ص ١١٢ .

بكلماتك الصادقة التى هى درعى والمِجَنّ الذى يحمينى ؟ دلنى — مزدا — على قائد مخلص حكيم متلطف يقودنى إليك ، ثم اجعل زعيم ملائكتك المزود بالعقل الخير المستنير يدنو ممن تحب كائنا من كان. تفضل فاحمنا جميعا من أعدائنا أيها الإلاه المقدس مزدا . وهلا كا لإدرج (إدرج أو دروج Druj هو رمز لقوى الشر مجتمعة أو لإبليس) الشيطانى ، وهلا كا لجميع الشياطين ، وهلا كا لجميع أشياع الشياطين ؛ الهلاك التام لك يا إدرج ! اخسأ واذهب بعيداً عنا إلى الشمال حتى لا تعبث بخلق مزدا ، المبدأ المقدس »[١] .

وتوجب الديانة الزرادشتية الإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار على وجه لا يختلف كثيراً فى جملته بل لا يختلف كثيراً فى تفاصيله نفسها عما يقرره الإسلام . فتقرر عقائدهم أن الساعة ستقوم على أثر حادث فلكى. وذلك أن كوكبا يصطدم مع الأرض ، فتميد بالناس ، وتخر الجبال هـدا ، وتذوب العناصر ، و يصهر النحاس ، و يسيل إلى جهنم ، و يفنى أهريمان وأنصاره من الشياطين ، و يغسل الناس فى منصهر النحاس ، و يجده الصالحون برداً وسلاماً. ثم بعد ذلك يجمع هرمز (أهورا مزدا) الخلائق ، و يمدهم بحياة جديدة و يجازيهم بأعمالهم . وهذا فيما يتعلق بمن يكونون على قيد الحياة وقت قيام الساعة . أما الذين يموتون قبـل ذلك فتحاسب أرواحهم عقب موتهم مباشرة . وذلك أن الروح تحوم عقب الوفاة فوق الجسد ثلاثة أيام تشقى فيها أو تنعم وفقا لسيرة صاحبها فى الحياة : إن خيرا فخير ؛ و إن شرا فشر . وفى اليوم الرابع تهب من الجنوب على الروح الصالحة ريح طيبة تتضوع بالمسك وتتلقى روح الميت عند أول الصراط (بل جنوات) أى جسر المفارقة المضروب فوق جهنم ، بفتاة بيضاء الذراعين منقطعة النظير فى جمالها ، فتسألها من أنت فتقول : أيها الشاب الطيب السريرة

---

(١) حامد عبد القادر المرجع السابق ، صفحتى ٧٧ ، ٧٨ .

الطيب القول الطيب العمل (يلاحظ أن قوام الأخلاق عند زرادشت كما سيأتى بيان ذلك فى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل ثلاثة أمور : الفكر الطيب ؛ والكلم الطيب ؛ والعمل الطيب) أنا وجدانك وضميرك، كنت محبوبة فزدت الناس محبة فى ، وكنت جميلة فزدتنى جمالا ، ورفعت من شأنى بفكرك الصالح وقولك الطيب وعملك المبرور. ثم تمضى الروح بإرشاد هذه الفتاة وهدايتها إلى حضرة أهورا مزدا، فتعبر الصراط إلى الجنة حيث يستقبلها ملك جالس على كرسى من ذهب عند باب الجنة فيفتح بابها و يقول لصاحبها ادخل سالما آمنا وتمتع بحياة هنيئة . أما روح الشقى فتلتقى بمخلوق بشع المنظر نتن الرائحة ، ولا تستطيع العبور على الصراط فتهوى فى دركات النيران . — وجنة زرادشت تقع أقصى شرقى جبال البرز (هرابيرازيتى Haraberasiti) و يرتفع الجبل متجاوزا النجوم إلى عالم النور اللانهائى و يصل إلى جنة أهورامزدا فى منزل النغم وهو أم الجبال وقمته سابحة فى العزة الأبدية حيث لا ليل ولا برد ولا مرض[1] . - وتذكر بعض الأسفار المقدسة لدى المتأخرين من الزرادشتيين أن الروح بعد أن تعبر صراط الحساب « تحتل إحدى منازل ثلاث : منزلة الأشقياء فى جهنم دار الجحيم ؛ ومنزلة السعداء فى الجنة فردوس النعيم ؛ ومنزلة وسطى بين هؤلاء وهؤلاء . فمن ثقلت موازينه ورجحت حسناته سيئاته احتلت روحه المنزلة الأولى ؛ ومن خفت موازينه ورجحت سيئاته حسناته ذهبت روحه إلى المنزلة الثانية ؛ ومن تساوت حسناته وسيئاته احتلت روحه المنزلة الثالثة »[2] .

---

(١) أمين عبد المجيد ، المرجع السابق ص ٢٢ نقلا عن دكتور محمد معين : « مزديسنا وتأثير آن در أدبيات فارسى » ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ص ٩٢ .

— ٦ —

العبادات والشرائع والأخلاق
فى أسفار الزرادشتيين

١ — العبادات : من أهم العبادات فى الديانة الزرادشتية تقديس النار على النحو الذى سبق شرحه ، والأدعية التى يتجه بها إلى الإلاه والملائكة والأرواح المقدسة وقوى الخير ، والصلوات التى كانت تقام فى الهياكل خمس مرات حول النار المقدسة ، وتختم كل صلاة منهـا بعظات يلقيها رجال الدين على المصلين ليبينوا لهم معالم دينهم ويرشدوهم إلى طرق الخير والفضيلة ويحذروهم من المعاصى وتعدى حدود الله . وتقام واحدة من هذه الصلوات عند بزوغ الشمس ، وواحدة عند الزوال ، وواحدة عند الغروب ، وتقام الصلاتان المكملتان للخمس بين هذه الصلوات الثلاث . والصلاة فى الزرادشتية دعاء يوجه إلى أهورا مزدا ، وترجمته ما يلى : أرجو منك أيها الرب الخالق المطلق القدير أن تغفر لى ما ارتكبت من سيئات وما دار بخلدى من تفكير سيء وما صدر عنى من قول أو عمل غير صالح . إلاهى أرجو منك أن تباعد بينى وبين الخطايا حتى أحشد يوم الدين مع الأطهار الأخيار »(١) .

« وكان الزرادشتى مقيدا بعدة طقوس وعبادات فى كثير من شئون حياته الخاصة كالأكل والنوم والاستيقاظ منه وإضاءة المصابيح . وكان عليه أن يبقى نار الموقد فى داره مشتعلة لا تخبو ، وألا يسمح لضوء الشمس أن يقع على النار ، ولا للماء أن يلقى على النار ، ولا ليده أن تمس جثة ميت ، أو جسد امرأة حائض ، وألا يلوث الماء ، وألا يتكلم ولا يبكى فى أثناء الطعام . — وكان

(١) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ص ٩١ ، ٩٢ .

عليه إذا أشكل عليه أمر من أمور الدين أن يرجع إلى رجال الدين . وكان الزرادشتيون يذهبون إلى هياكل النار فى أيام أعيادهم الرئيسية ليقيموا الصلوات ويبتهلوا إلى أهورا مزدا بالدعوات ، وبخاصة يوم التوبة ، وهو عيد النيروز . ففى هذا اليوم يفعل الزرادشتيون مثل ما يفعل المسلمون يوم عيد الفطر مثلا ، فيتزاورون للتهنئة بالعيد الجديد ، ويستيقظ الواحد منهم من نومه مبكرا فيستحم ويلبس ملابسه الجديدة ، ويبتهل إلى الإلاه بالدعاء أن يغفر له ولأهله سيئاتهم التى اقترفوها فى العام المنصرم . ثم يذهب إلى هيكل النار فيجتمع هو وإخوانه هناك ، ويستأنف معهم الدعاء ، ويطلب من الإلاه الرحمة والرضوان ، ثم يتصدق على الفقراء والمساكين . — هذا فى الأعياد . أما فى المآتم فكان من عاداتهم بعد إلقاء جثة الميت فى برج الصمت أن يعزى أهله ثلاثة أيام ، وأن يقام فى المساء السابق لليوم الرابع حفل دينى يحضره أهل الميت وأصدقاؤه ، وأن توزع الصدقات رجاء أن يغفر الله له ، وأن تجلس قريباته على مقربة من المكان الذى مات فيه على بساط يفرش على الأرض لتقبل العزاء من صديقاتهن ، من ثلاثة أيام إلى عشرة بعد الوفاة»[1] .

وليس فى الديانة الزرادشتية رهبانية ، بل إنها لتكره كل ما يؤدى إلى الخمول وإضعاف الجسم ، ولذلك تنهى عن الصوم إلا فى ظروف خاصة نادرة .

وكان يشرف على شئون العبادات وما إليها من الشئون الدينية طبقتان من رجال الدين : إحداها طبقة الموابذة ، ويسمى كل واحد منهم موبذان . وكانوا يتولون الوظائف الدينية العليا ويرأسهم الموبذ موبذان أى رئيس الموابذة ، وكانت وظيفته تعد أرقى الوظائف الدينية جميعا ، وهو الذى يوجه رجال الدين على اختلاف درجاتهم ويوليهم ويعزلهم . ولم يكن نشاط الموابذة مقصورا على

---

(١) حامد عبد القادر المرجع السابق ٩٧ ، ٩٨ .

الشئون الدينية بل إنهم كانوا يمارسون كذلك شئون الطب والقضاء والتعليم ويشتركون فى إدارة الشئون السياسية للدولة وفى شئون التشريع والتنفيذ . ومن ثم كان لهم سلطان كبير حتى على الملوك أنفسهم . فقد كان زرادشت نفسه موجها سياسيا للملك كشتاسب ، يرجع إليه فى شئون السياسة ويستمع إلى نصائحه . والطائفة الأخرى طائفة الهوابذة ، وكانت منزلتهم دون منزلة الموابذة وكانوا يتولون إقامة الشعائر الدينية فى هياكل النار (١).

٢ — الشرائع : تحث الشريعة الزرادشتية على العمل والسعى فى مناكب الأرض لكسب الرزق و إنتاج الثروة ، وخاصة الإنتاج الزراعى وتربية الماشية . فمن نصوصها المقدسة أن من يشق الأرض بمحراثه خير ممن يقدم ألفا من القرابين وممن يقدم عشرة آلاف من الأدعية والصلوات . وتحث على النظافة والقضاء على الحيوانات المؤذية والهوام ، وتضع على كاهل الفرد واجبات نحو نفسه وجسمه وأفراد أسرته وأفراد مجتمعه والإنسانية جمعاء ، وتوجب صيانة النفس والمحافظة على الصحة ، وتحرم الانتحار تحريما باتا ، لأنه جناية على النفس والوطن ، وتجعل الزواج واجبا على كل قادر عليه ، وتحث على تعدد الزوجات ليكثر النسل و يزداد عدد الجنود المحاربين فى سبيل النور .

وقد ورد فى الأبستاق أن أهورا مزدا قد أوحى إلى زرادشت أن المتزوج أعلى منزلة من الأعزب ولو كان تقيا عفيفا ، وأن من له بيت (أسرة وزوجة) أعلى منزلة عند الله ممن ليس له بيت ، وأن من له خلف أعلى منزلة ممن ليس له خلف» (٢) . وكانت أكبر كارثة تحل بالرجل عند الزرادشتيين ألا تكون له ذرية . وكانوا يعتقدون أن من يدركه الموت من قبل أن ينجب أولادا لا يلج

(١) المرجع السابق ٩٨ .

(٢) V. Westermarck : Idées Morales (trad. fr.). T. II, 386.

باب الجنة ، وأن أول سؤال يلقيه خزنة الجنة على من يقف ببابها هو سؤاله عما إذا كان قد ترك فى الدنيا من يخلفه ، فإن أجاب بالنفى حيل بينه و بين دخولها ، إذ لا يدخلها إلا من ترك من بعده خلفا يخلد اسمه و يقدم لروحه ما تقرر الشريعة تقديمه من صلوات وقرابين ، وأن أشهى فانجوهى Ashi Vanguhi (وهى لديهم رمز العفة ومصدر الخير والبركة والنماء) لا تقبل قربانا يقدمه إليها العقيم من الناس ، وأن أكبر جرم يرتكبه الأفراد والرؤساء هو أن يعضلوا الفتيات عن الزواج ، و يحولوا بذلك بينهم و بين إنجاب الأولاد[١] .

وتشبه أسفار الأبستاق وشروحها أسفار اليهود فى استيعابها لجميع فروع الشريعة فهى لا تغادر أى فرع من فروع الحياة الفردية والاجتماعية إلا وضعت له قواعد يسير عليها حتى شئون الأكل والشرب وحلق الشعر وتقليم الأظافر . ومن الغريب أن سفر « الونديداد »[٢] يضع فى صدد قلامات الأظافر والشعر تعاليم واحتياطات تشبه مايعتقده الآن كثير من العامة فى مصر وغيرها ، فيذكر أنه من الواجب على الإنسان أن يضع قلامات أظفاره وقصاصات شعره على منضدة أمامه ، و يحرص عليها كل الحرص حتى لا يضيع منها شىء ، ثم يحملها بعناية و يخفيها فى حفرة عميقة ، و إلا كانت عرضة لأن تمتد إليها أيدى السحرة والمشعوذين فيستخدموها فى سحر صاحبها .

وتدل هذه التعاليم على تأثر الزرادشتية بعقيدة قديمة مؤداها أن شعر الشخص وأظفاره تتجمع فيها جميع صفاته الشخصية . ولذلك كان للتأثير فيها بخير أو شر وسيلة للتأثير فى الشخص نفسه[٣] .

---

(١) انظر كتابنا « قصة الزواج والعزوبة فى العالم » ص ١٠ .
(٢) انظر الفقرة الثالثة من هذا الفصل .
(٣) حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، ٧٣ ، ٧٤ .

هذا ، وفى كثير من الأمور السابق ذكرها وما إليها يختلط التشريع فى شئون الحياة الدنيا بالعبادة التى يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، فيكون الشىء الواحد شريعة وعبادة فى آن واحد .

٣ — الأخلاق : تدعو الديانة الزرادشتية إلى الفضائل نفسها التى يدعو إليها الإسلام وتنهى عما ينتهى عنه من مظاهر الرذائل والفحشاء والمنكر والبغى .

وقوام الأخلاق عند زرادشت ثلاثة أمور: الفكر الطيب ؛ والكلم الطيب ؛ والعمل الطيب . وكان لا يقبل دخول أحد فى الدين الزرادشتى إلا بعد أن يؤخذ عليه بهذه الأمور ميثاق مدونة صيغته فى الأبستاق وينتهى بالعبارة الآتية :

«لن أقدم على سلب أو نهب أو تدمير، أو تخريب. أقر أنى أعبد أهورا مزدا، وأعتنق دين زرادشت ، والتزم التفكير فى الخير والكلام الطيب والعمل الصالح»[١] .

---

(١) حامد عبد القادر ، المرجع السابق .

الفصل الرابع

أسفار الديانة البرهمية[1]

تعد الديانة البرهمية من أقدم الديانات فى الأمم الآرية؛ فإن تاريخها يرجع إلى عصر سحيق يصعد به بعضهم إلى نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد. و يعتنقها الآن معظم سكان الهند و بعض سكان الباكستان.

وهى منسوبة للإلاه براهما Brahmâ، وهو عند معتنقى هذه الديانة اسم الإلاه الخالق. ولا صحة لما ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل من أنها تنسب إلى رجل عظيم منهم يقال له براهم[2].

و يطلق على الأسفار المقدسة لهذه النحلة اسم «الڤيدا» Védas، ومعناها المعرفة أو العلم[3].

ومن أسفار «الڤيدا» استمدت «قوانين مانو» Lois de Manou التى تنسب لمشرع هندى قديم اسمه مانو أو ماناڤا وهى تفصيل وشرح و بيان لما اشتملت عليه أسفار الڤيدا من قصص دينى وعقائد وعبادات وشرائع وأخلاق. و ينزل البرهميون هذه القوانين منزلة التقديس كذلك، حتى لقد اعتقدوا أن مؤلفها أحد الآلهة المنبثقين عن الإله الخالق «براهما».

---

(١) من أهم مراجعنا فى هذا الفصل :

Loiseleur — Delongchamps : traduction du sanscrit des «Lois de Manou» accompagnée de notes explicatives et d'une notice sur les Védas

وسنكتفى فى الإحالة على هذا المرجع فيما يلى بكلمة لوازلير.

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل، الجزء الثانى، ص ٢٥١، طبعة مصطفى الحلبى ١٩٦١.

(٣) يعرب البيرونى فى كتابه «تحقيق ما للهند ... الخ» كلمة «ڤيدا» إلى «بيذ» بياء فياء فذال.

وسنقف الفقرة الأولى من هذا الفصل على التعريف بأسفار « الڤيدا » ، والفقرة الثانية على التعريف « بقوانين مانو » ، ثم نلقى فى بقية فقرات هذا الفصل نظرة على ما تشتمل عليه هذه الأسفار من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق[١] .

— ١ —

أسفار الڤيدا

يطلق البرهميون اسم الڤيدا Védas (ومعناها فى اللغة السنسيكريتية القديمة المعرفة أو العلم) على مجموعة أسفار قديمة يعتقدون أنه موحى بها من الإلاه براهما نفسه، وأنه قد جمعها حكيم من حكمائهم اشتهر باسم «ڤيدا ڤياسا» Védas — Vya'sa أى جامع الڤيدا[٢] . وهى أربعة مجموعات من الأسفار ، تنقسم كل مجموعة منها قسمين : قسم للأدعية والصلوات وتسمى « منترا » Mantras ؛ وقسم للتعاليم المتعلقة بالعبادات والشرائع وما إلى ذلك ويسمى « براهمانا » Brâhmanas[٣] . وهذه المجموعات الأربع هى:

١ — « ريج ڤيدا » أو « ريتش ڤيدا » Rig—Véda, ou, Ritch — Véda (ومعناها الڤيدا النارية أى المنسوبة للنار) . وهى قسمان : يتمثل أحدهما فى أدعية وصلوات وأوراد منظومة تتلى فى بعض المناسبات (منترا) ، ويشتمل الآخر على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية (براهمانا) .

٢ — «ياچور ڤيدا» أو «ياجوش ڤيدا» Yadjour—Véda, ou, Yadjouch — Véda (ومعناها الڤيدا الهوائية أى المنسوبة للهواء) وهى مجموعتان : يطلق على إحداهما

---

(١) سنعرض فى أثناء كلامنا على هذه الأمور لشىء من القصص الدينى فى أسفار هذا الدين.
(٢) لوازلير ٣٨٠ .
(٣) لوازلير ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

اسم « ياچور — ڤيدا البيضاء » ؛ وعلى الأخرى اسم « ياچور — ڤيدا السوداء ». وكل مجموعة منهما تنقسم قسمين . يتمثل أحدهما فى أدعية وصلوات وأوراد نثرية تتلى فى بعض المناسبات (منترا) ؛ ويشتمل الآخر على تعاليم تتعلق بالواجبات الدينية (براهمانا) .

٣ — « سامان ڤيدا » أو « ساما ڤيدا » Saman—Véda, ou, Sama—Véda (ومعناها الڤيدا الشمسية أى المنسوبة للشمس) ، وهى قسمان كذلك: يتمثل أحدهما فى مزامير دينية يتغنى بها فى بعض المناسبات (منترا) ؛ ويشتمل الآخر على تعاليم متعلقة بالعبادات والواجبات الدينية (براهمانا) .

٤ — « أتارڤانا ڤيدا » (لعلها نسبة لحكيم من حكماء الهند يدعى «أتارڤانا»)، وهى كذلك تنقسم قسمين: يتمثل أحدهما فى أوراد وأدعية للاستغفار والرقى ضد السحر وضد الأرواح المدمرة الخبيثة (منترا) ؛ و يشتمل الآخر على طائفة من شرائع الديانة البرهمية (براهمانا) و بخاصة ما يتعلق منها بالتفرقة العنصرية بين الطبقات ، وهو النظام الذى تقوم عليه أهم العلاقات الاجتماعية بين طبقات الناس والذى يحدد مركز كل طبقة ووظائفها عند البرهميين، وسنعرض لهذا النظام بشىء من التفصيل عندما نتكلم على الشريعة فى الديانة البرهمية. — و بهذه الطائفة من الشرائع الاجتماعية يمتاز هذا السفر عن الأسفار الثلاثة السابقة .

هذا ، وقد ظهر للمحققين من المشتغلين بالدراسات الهندية ، وعلى رأسهم العلامة وليم چونس Wiliam Jones أن الكتب الثلاثة الأولى هى أقدم هذه الكتب جميعاً فى تاريخ تأليفها ، وأن أقدمها هو الريج ڤيدا الذى يصعد تاريخ تأليفه ، فى نظر بعضهم ، إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وأن السفر الرابع هو أحدثها جميعاً . بل إن المشرع الهندى الشهير « مانو » ، الذى سنتحدث عنه فى الفقرة التالية ، وغيره من قدامى المشرعين الهنود ، حينما يتكلمون على الڤيدا

لايكادون يذكرون إلا الأسفار الثلاثة الأولى ، وقلما يرد للسفر الرابع ذكر فى كلامهم ؛ فلم يرد له ذكر فى قوانين « مانو » إلا مرة واحدة فحسب ؛ وحينما يشيرون إليه لايذكرونه على أنه جزء من « الڤيدا » أى لايضيفون إليه كلمة «ڤيدا» . ويمكن أن يستنتج من هذا أنه لم يكن فى الأصل من الكتب المقدسة ، وأنه قد أقحم عليها فيما بعد ، وأنه أحدث منها كثيراً فى تاريخ تأليفه . ولكن العلامة كولبروك Colebrook — وهو من ثقات الباحثين فى أسفار البرهميين — يذهب إلى أن قسما غير يسير من «الأترڤانا» يرجع تاريخه إلى العصر نفسه الذى ألفت فيه الأسفار الثلاثة السابقة[1].

وقد اكتسبت أسفار الڤيدا بتقادم العهد قداسة عند الهنود ، واعتقدوا أنها وحى منزل من الإلاه براهما ، وحرصوا أيما حرص على صيانتها . ولذلك سلمت من الأحداث التى أصابت أسفار «الأبستاق» وأضاعت قسما كبيراً منها، كما سبق بيان ذلك فى الفصل الثالث من هذا الكتاب.

هذا ، ويضيف بعضهم إلى هذه الكتب الأربعة كتابا خامسا يتألف من قسمين ، وهما « الإيتيهازا » Itihasa و «الپورانا » Pouranas ، ويسمونه «الڤيدا الخامس » . ولكن الصحيح أن هذين السفرين وأسفاراً أخرى مثل «السوترا» Les Soutras والبرهمانا واليوبانيشاد Oupanichade والڤيدانتا Vedanta هى شروح وتعليقات على الڤيدا ، وليست من أسفار الڤيدا نفسها ، وأنها قد ألفت فى عصور متأخرة عن العصور التى ظهرت فيها أسفار الڤيدا الأصلية .

* * *

(١) لوازلير ص ٢ ، تعليق ١ .

وقد كتبت أسفار الفيدا فى الأصل بإحدى اللهجات السنسيكريتية القديمة. وقد انقرضت هذه اللهجة منذ أمد بعيد من لغة الكتابة ولغة التخاطب، وأصبحت غير مفهومة إلا لطائفة من كبار رجال الدين. وكانت عقائدهم تحرم عليهم أن يعلموا هذه الأسفار أو يبوحوا بحقائقها لغير أهل ملتهم. ومن أجل ذلك ظلت هذه الكتب مجهولة للعلماء حتى القرن العاشر الميلادى. وفى أواخر هذا القرن استطاع العلامة أبو الريحان البيرونى (محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونى المولود سنة ٣٦٢ هـ الموافقة لسنة ٩٧٣ ميلادية والمتوفى سنة ٤٤٠ هـ) أن ينقل إلى العربية طائفة كبيرة من محتويات الڤيدا (وجرى على تعريبها بكلمة «بيذ») فى كتابه الشهير الذى ألفه حوالى سنتى ٣٩٠، ٣٩١ هجرية وجعل عنوانه:

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة

وذلك أنه ذهب فى سن مبكرة إلى بلاد الهند مرافقا للسلطان محمود الغزنوى فى حملاته وغزواته، وعكف هناك على دراسة اللغات الهندية القديمة والحديثة وعلى دراسة آداب الهنود وثقافتهم حتى أتقنها جميعاً، واستطاع بفضل ذلك أن ينقل فى كتابه القيم المشار إليه أهم مايتعلق بأسفار الڤيدا و بعقائد الهنود وفلسفتهم وآدابهم وعلومهم وثقافتهم على العموم، وقسمه ثلاثة أقسام: قسم خاص بالفلك؛ وقسم خاص بالرياضة؛ وقسم خاص بالفلسفة ومايتصل بها من العقائد. والقسم الأخير هو أشد أقسام الكتاب علاقة بأسفار الڤيدا وشروحها. فكان كتابه هذا أول مفتاح لدراسة هذه الأسفار وأول كاشف لأسرارها[1].

---

(١) نشر هذا القسم على حدة وحققه وقدم له صديقنا الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود تحت عنوان الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلامى. وسنحيل على هذا الكتاب فيما ننقله عن البيرونى.

وفى منتصف القرن السابع عشر الميلادى استطاع أحد علماء الفرس وهو داراشيكو Dara - Chékou أن يحصل على بعض أجزاء من الفيدا ، واستطاع كذلك ، بفضل إتقانه للغةالسنسيكريتية المدونة بها أسفار الفيدا ، أن يترجم هذه الأجزاء إلى اللغة الفارسية ، وظهرت هـــذه الترجمة سنة ١٠٦٧ هـ الموافقة لسنة ١٦٥٧ الميلادية . ثم أتيح بعد ذلك فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لـكثير من العلماء الأوربيين المشتغلين بدراسة الثقافة الهندية أن يعثروا فى المكتبات الهندية القديمة على نسخ مخطوطة لأسفار الفيدا ، وأتيح لهم كذلك بفضل دراساتهم اللغوية وتمـكنهم من معرفة اللغة المؤلفة بها هذه الأسفار ، بعد أن اهتدوا إلى حل جميع رموزها ، أن يترجموها إلى اللغات الأوربيةالحديثة. ويرجع أكبر قسط من الفضل فى هـذا الصدد إلى عالمين انجليزيين وهما سير وليم چونسWiliam Jones وكولبروك Colebrook .

— ٢ —

قوانين مانو

تشتمل« قوانين مانو » أو « ماناڤا دهارما ساسترا Manava - Dharma Sastra» (أى كتاب قوانين مانو) على تفصيل للدين البرهمى عقائده وعباداته ومعاملاته ونظمه الاجتماعية بمختلف فروعها (نظم السياسة والاقتصاد والأسرة والقضاء والحرب والقوانين المدنية وقوانين العقوبات ونظم التربية والأخلاق ... وهلم جرا)، كماتشتمل على تاريخ الـكون ونشأته وخلق الإنسان وتقسيم الطبقات.

وينسب هذا السفر لمشرع قديم اسمه « مانو » أو « ماناڤا » . ولا نعلم تاريخه على وجه اليقين . وأرجح ما قيل فى هذا الصدد من آراء أنه عاش حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وينزل البرهميون هذا السفر منزلة التقديس ، حتى لقد اعتقدوا أن مؤلفه هو أحد الآلهة الستة المنبثقين عن الإلاه الخالق (براهما) ، والذين تتابعوا فى حكم العالم .

وهو أهم مرجع للباحثين فى الدين البرهمى ، لأنه قد استوعب جميع نواحى هذا الدين قصصه وعقائده وعباداته وشرائعه ، ولم يغادر أى فرع من هذه الفروع إلا فصله تفصيلا . ويستمد أحكامه من أسفار الڤيدا نفسها ، كما يصرح بذلك فى مقدمته .

وقد ألف فى شعر منظوم ، ويشتمل على ٢٦٨٤ مادة ، تندرج تحت اثنى عشر كتاباً :

الكتاب الأول فى الخلق ويعرض لخلق براهما للكون والعالم والإنسان وتقسيمه للطبقات ويشتمل على ١١٩ مادة ؛

والكتاب الثانى فى الأدعية والصلوات والأخلاق ويشتمل على ٢٤٩ مادة ؛

والكتاب الثالث فى نظم الأسرة والزواج وما يتصل بذلك ويشتمل على ٢٨٦ مادة ؛

والكتاب الرابع فى النظم الاقتصادية وشئون العمل والمعاش ويشتمل على ٢٦٠ مادة ؛

والكتاب الخامس فى شئون الاستغفار والتكفير والتقوى والطهارة وواجبات المرأة ويشتمل على ١٦٩ مادة ؛

والكتاب السادس فى شئون التصوف والزهد ... وما إلى ذلك ويشتمل على ٩٧ مادة ؛

والكتاب السابع فى النظم السياسية والحربية وواجبات الملوك والحكام ورجال الجيش ويشتمل على ٢٢٦ مادة ؛

والكتاب الثامن فى النظم القضائية والشئون المدنية وقانون العقوبات ويشتمل على ٤٢٠ مادة ؛

والكتاب التاسع تكملة للقوانين المدنية وقانون العقوبات وواجبات طبقة التجار وطبقة الخدم والعبيد ويشتمل على ٣٣٦ مادة ؛

والكتاب العاشر فى طبقات المجتمع والنظم الخاصة بكل طبقة منها وما تجب مراعاته فى أوقات المجاعة ويشتمل على ١٣١ مادة ؛

والكتاب الحادى عشر فى قوانين التكفير والاستغفار من الخطايا والذنوب ويشتمل على ٢٦٥ مادة ؛

والكتاب الثانى عشر فى تناسخ الأرواح وتجوالها والسعادة الأخروية ويشتمل على ١٢٦ مادة .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الحية . ومن أهم تراجمه ترجمته

الفرنسية التى نشرها العلامة لوازلير دولونشان A. Loisleur - Delongchamps مصحوبة بتعليقات هامة كثيرة، ومذيلة ببحث قيم عن أسفار الڤيدا التى استمدت منها هذه القوانين .

- ٣ -

العقيدة فى أسفار الدين البرهمى وتطورها

تقوم العقيدة البرهمية فى أسفار الڤيدا وقوانين مانو على الدعائم الثلاث الآتية:

١ - وحدانية الله ووحدة الوجود . تقرر أسفار الدين البرهمى أن الله واحد لا شريك له ، وأنه قد صدرت عنه جميع الكائنات ، وسرت منه روح فى الجماد والنبات والحيوان. فالموجود بحق هو الله وحده ، وليست هذه الكائنات إلا مظاهر منه ؛ وهذا هو ما يعبر عنه بنظرية وحدة الوجود التى انتقلت إلى التصوف الإسلامى ونظريات رجاله وخاصة ابن عربى والحلاج .

وإلى هذا تشير أسفارهم المقدسة وهى الڤيدا إذ تقول على لسان براهما : « إننى أنا الله نور الشمس وضوء القمر ، وبريق اللهب ، ووميض البرق ، وصوت الرياح ، والعَرف الطيب ينبعث فى الأرجاء ، والأصل الأزلى لجميع الكائنات ، وحياة كل موجود ، إننى صلاح الصالح ، أنا الأول والآخر ، أنا الحياة والموت لكل كائن . إننى أنا الله الذى لا إله غيرى ، رب الأرباب ، مالك السمٰوات والأرض » . — وتقول فى موضع آخر : « إن الله واحد لأنه الجميع (أى جميع الكائنات ، فهى كلها مظاهر منه) ، وهو الله الذى لا إله غيره ، رب الأرباب ، مالك العالمين وخالق السماوات والأرضين » .

ويقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه القيم « تحقيق ما للهند من مقولة .. » : « واعتقاد الهند (يقصد البراهمة) فى الله سبحانه أنه الواحد الأزلى ، من غير

ابتداء ولا انتهاء، المختار فى فعله، القادر الحكيم، الحى المحيى، المدبر المبقى، الفرد فى ملكوته عن الأضداد والأنداد، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شىء».

ثم أخذ يورد نصوصا كثيرة من كتبهم تؤيد ما ذكره عن اعتقادهم بوحدانية الله وقدمه و بقائه ومخالفته للحوادث[1].

هذا، وتبدو فكرة التوحيد واضحة كل الوضوح فى شرحين من شروح الڤيدا وهما اليوپانشاد والڤيدانتا. وفى هذا الكتاب الأخير (الڤيدانتا) تتبلور فكرة وحدة الوجود التى يقوم عليها الدين البرهمى وتصل إلى ذروتها، فيقرر هذا السفر فى عبارة صريحة أن الله والنفس الإنسانية وجميع الكائنات شىء واحد.

٢ — تناسخ الكائنات وتجوال الأرواح (الكارما). وتقرر العقيدة البرهمية أن أرواح الكائنات التى صدرت عن الموجود بذاته وهو الله متجولة متناسخة ينتقل بعضها إلى مواطن بعض و يتقمص بعضها أجسام بعض. وهذا هو ما يعبر عنه بالتناسخ أو تجوال الروح. فهم يعتقدون أن الروح جائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود، تنتقل من جسد إلى جسد، سواء أكان من الإنسان أم من الحيوان، فى طريقها إلى هدفها الأخير (الذى سنبينه فى الدعامة الثالثة). و يعتقدون أن كل ما يصيب الكائن فى أى مرحلة من مراحل تناسخه إنما هو نتيجة لمقدمات وأعمال حدثت فى مرحلة ما من مراحل وجوده. فما يصيب الإنسان مثلا من سعادة وآلام إنما يكون جزاء أو نتيجة لأعمال صالحة أو شريرة عملها فى وجوده الحالى أو فى وجود سابق، حينما كانت روحه متقمصة كائنا آخر. فكل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته ونتيجته حتما، وهذه الثمرة لابد أن تحدث فى دور من أدوار الميلاد المتكررة التى تنتقل فيها الروح. فإن لم تحدث فى الدور الذى حدث فيه العمل، فهى لابد حادثة فى دور من الأدوار التالية له. ويعبرون عن هذه الفكرة بكلمة «كارما».

---

(١) البيرونى، المرجع السابق، ص ٢٠ وتوابعها.

وإلى هذا يشير البيرونى إذ يقول : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والإسبات علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد فى جملتها » .

ويؤيد هذه القضية بنصوص من كتبهم فيقول : « حقيق علينا أن نورد من كتبهم شيئاً من صريح كلامهم فى هذا الباب . . . : قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال وهما بين الصفين : إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معاً بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ؛ فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة ، التى عقباها موت البدن ثم العود . وقال له : وكيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود ، لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة ، لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يُغِصُّها ، ولا ريح تُيَبِّسها ، لكنها تنتقل من بدنها إذا عتق (بمعنى قدم أى أصبح قديماً لا يصلح لاحتمال الروح) نحو آخر ليس كذلك ، كما يستبدل البدن اللباس إذا خَلُق (أى بَلِى) ، فما غمك لنفس لا تبيد؟ [1] » .

وأما الطريقة التى يجرى بها التناسخ فسنعرض لها عند كلامنا على اعتقادهم فى الجنة والنار .

٣ — رجوع الأرواح إلى مصدرها الأول وهو الله . تقرر العقيدة البرهمية أن روح كل كائن تعود فى نهاية مطافها إلى مصدرها الأول الذى نشأت منه وهو الله . والإنسان أحد هذه الكائنات ، فيعرض له ما يعرض لها ، وروحه قطرة من نور الله ، انفصلت عن الله إلى أجل محدود ، واتصلت به ، ثم تتصل بعده بكائن آخر وآخر وهكذا على طريق التناسخ وتجوال الروح ، ثم تعود فى النهاية إلى الله متى جاء

(١) البيرونى ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

الأجل، كالقطرة من الماء العذب، تصعد بخاراً من البحر ، وترقى فى السماء ، وتنتقل من جهة إلى جهة ، وقد تتحول إلى قطع من الثلج أو البرد أو غير ذلك ، ثم تسقط على قمم الجبال ، وتجرى فى الأنهار ، ثم ترجع فى نهاية مطافها إلى البحر الذى انفصلت عنه فى أول الأمر . أو كالهواء الحبيس فى قدح مقلوب — حسب تشبيه أسفارهم نفسها — يظل منفصلا عن الهواء الخارجى وإن كان منه ، حتى يتحطم القدح، وحينئذ يزول الفاصل بينهما ويتحدان .

* * *

فالديانة البرهمية كانت فى أصلها — على ما يبدو من نصوص أسفارها — ديانة توحيد، مشوبة بعقائد وحدة الوجود وتناسخ الأرواح ورجوع الكائنات إلى الخالق وما إلى ذلك من المعتقدات التى انتقل كثير منها إلى التصوف الإسلامى ونظريات بعض رجاله .

ولكنها تغيرت وحرفت على مر الأيام ، وحلت محلها عقيدة تثليث ؛ لأنهم زعموا أن براهما كان قبل الوجود فى فضاء لا نهاية له ، فرغب أن يكون كثيراً، فخلق العالم بقوة إرادته وبفيض من ذاته (نظرية وحدة الوجود) وسمى نفسه الخالق . ثم انبثق منه الإلاه المدمر ، وهو الإلاه سيفا Civa الموكل بالخراب والفناء ، فلا يذر من شىء أتى عليه إلا جعله كالرميم . ولو ترك هذا الإلاه وشأنه لفنيت السماوات والأرض ومن فيهن ولهذا انبثق من براهما إلاه ثالث حافظ مجدد وهو الإلاه فيشنو Vichnow .

وبذلك انمحت عقيدة التوحيد الأصلية فى الدين البرهمى ، واستبدل بها هذا الثالوث . — ويتجه البرهميون الآن بمعظم عباداتهم إلى الإلاه فيشنو، وهو الإلاه الحافظ المجدد . أما الإلاه سيفا فهو إلاه مدمر يتقى شره . وأما الإلاه براهما وهو أصلهم جميعاً فيزعمون أنه قد أدى وظيفته وهى الخلق ، وأنه ينعم الآن بالراحة المطلقة الكاملة .

وقد سرت صفة القداسة عندهم مع تقادم العهد إلى بعض الأنهار والجمادات وبعض الحيوانات ، وعلى الأخص فصيلة البقر ، التى ينزلونها منزلة كبيرة من القداسة تقرب من درجة العبادة ، ويحرمون ذبحها ، ويعتبرون التعرض لها بأذى من أكبر الجرائم .

وسرت إليهم كذلك عبادة الأصنام التى ترمز إلى الآلهة أو إلى الملائكة أو إلى الكواكب أو إلى القديسين ، وتفننوا فى صنعها ، ووضعوا لنحتها قواعد ومقاييس مضبوطة تختلف باختلاف ما ترمز إليه ، وأعطوا كلا منها اسما خاصا . وتقربوا إليها بالصدقات والقرابين[١] .

وذكر الشهرستانى أن من أهم عقائد البرهميين إنكار النبوة ، وأنهم يرون استحالتها فى العقول ، فيقولون « إن الذى يأتى به الرسول لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون معقولا ؛ وإما ألا يكون معقولا . فإن كان معقولا فقد كفانا العقل التام إدراكه والوصول إليه . فأى حاجة إلى الرسول ؟! . وإن لم يكن معقولا ؛ فلا يكون مقبولا ؛ إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول فى حريم البهيمية »[٢] .

* * *

ويعتقد البرهميون فى الجنة والنار ، ولكن فى صورة تختلف اختلافا كبيراً عن عقيدة المسلمين . ويشرح البيرونى عقيدة البرهميين فى الجنة والنار فيقول :

« المجمع يسمى « لوك » . والعالم ينقسم قسمة أولية إلى علو وسفل وواسطة : فيسمى العالم الأعلى « سفر لوك » وهو الجنة ؛ والعالم الأسفل « ناكلوك » أى مجمع الحيات وهو جهنم ، ويسمى أيضاً « نرلوك » ، وربما سموه « پاتال » أى

---

(١) انظر فى ذلك البيرونى ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ — ١١١ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، الجزء الثانى ص ٢٥١ (الطبعة السابقة) .

أسفل الأرضين ؛ وأما الأوسط الذى نحن فيه فيسمى « مادلوك » و « مانش لوك » أى مجمع الناس . والأوسط للاكتساب ، والأعلى للثـــواب ، والأسفل للعقاب . وفى هذين الأخيرين يستوفى جزاء العمل من استحقهما مدة مضروبة بحسب مدة العمل . والسكون فى كل واحدة منهما للروح مجردة عن البدن . وللقاصر عن السمو إلى الجنة أو الرسوب إلى جهنم « لوك » آخـــر ، يسمى « ترجكلوك » وهو النبات والحيوان غير الناطق : يتردد الروح فى أشخاصهما بالتناسخ إلى أن ينتقل إلى الإنس على تدريج من أدون المراتب النامية إلى عليا المراتب الحساسة . وكونها فيه على أحد وجهين : إما لقصور مقدار المكافأة عن محلى الثواب والعقاب ، وإما لرجوعها من جهنم . فعندهم أن العائد إلى الدنيا (من الجنة) متأنس فى أول حالته . والعائد إليها من جهنم متردد فى النبات والحيوان إلى أن يبلغ مرتبة الإنسان »[1] . أى أن أرواح الناس فى حياتهم الأولى تكون فى المنزلة الوسطى وهى منزلة العمل والكسب ، فإذا ماتوا انتقلت أرواح الخيرين منهم إلى الجنة (المنزلة العليا) تستوفى فيها جزاء العمل مدة مضروبة بحسب قدر العمل وكماله ، وانتقلت أرواح الخاطئين منهم إلى جهنم (المنزلة السفلى) تستوفى فيها جزاء عملها كذلك مدة مضروبة بحسب مبلغ جرمها . و بعد استيفاء جزاء عملها فى الجنة أو فى النار ، تنتقل الأرواح الخيرة من الجنة إلى آدميين آخرين فترجع إلى المنزلة الوسطى ، وأما الأرواح الخاطئة فتنتقل من النار إلى الحيوان والنبات . ومنزلة الحيوان والنبات منزلة رابعة غير المنازل الثلاث السابق ذكرها ، تستقر فيها فى بادىء الأمر الأرواح غير الآدمية لأنها قاصرة عن المنزلة الوسطى وعن السمو إلى الجنة وعن الرسوب إلى النار ، وتستقر فيها كذلك أرواح الآدميين العائدة من جهنم . وهاتان الطائفتان من الأرواح المستقرتان فى الحيوان والنبات تتجولان فى أشخاص الحيوان والنبات بالتناسخ إلى أن تنتقلا إلى الإنس على تدريج من أدنى المراتب النامية إلى عليا المراتب الحساسة ، فتصبحا فى المنزلة الوسطى ..

(٢) البيرونى : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

وهكذا دواليك . فالثواب والعقاب عندهم فى الجنة والنار إنما يكونان للروح وحدها مجردة عن البدن ويكونان مؤقتين لأجل محدد لا دائمين .

ويذكر البيرونى أنهم يكثرون من الجهنمات وصفاتها وأسمائها ، ويفردون لكل ذنب أو لكل مجموعة من الذنوب جهنم خاصة أو محلا خاصاً فى جهنم ، حتى إن عددها قد بلغ فى بعض أسفارهم إلى ثمانية وثمانين ألفا ، ذكر البيرونى منها ثلاث عشرة جهنم : « منها ما يسمى « رور » وهى مخصصة للكاذب وشاهد الزور والمعاون لهما وللمستهزئ بالناس ؛ ومنها ما يسمى « رودة » وهى مخصصة لسافك الدم بغير حق وغاصب حقوق الناس ، والمغير عليهم وقاتل البقر ؛ ومنها ما يسمى « كُنْب » وهى مخصصة لقاتل البرهمن (المنتمى إلى الطبقة العليا وهى طبقة رجال الدين) وسارق الذهب ومن يصحبهم والأمراء الذين لا يقومون بواجبهم نحو رعاياهم ومن يزنى بأهل أستاذه ومن يضاجع أم زوجته ؛ ومنها مايسمى «مها جال» وهى مخصصة لمن يغضى على فاحشة زوجته طمعاً فى منفعة ومن يزنى بابنته أو زوجة ابنه أو يبيع ولده أو يبخل على نفسه بما يملك ... »[١]

ويذكر البيرونى مذاهب أخرى للبرهميين فى الجنة والنار . منها ما يراه بعضهم من أن جهنم ليست شيئاً آخر غير الانحطاط عن البشرية وتردد روح الخاطىء فى الحيوان والنبات[٢] .

---

(١) البيرونى المرجع السابق ، ٥٩ — ٦١ : «وهم يكثرون من عدد الجهنمات وصفاتها وأساميها . ويفردون لكل ذنب منها محلا . وقيل فى « بشن بران » إنها ثمانية وثمانون ألفاً» .
(٢) المرجع السابق ص ٦١ وتوابعها .

— ٤ —

العبادات فى أسفار الدين البرهمى

تتجه العبادة فى الدين البرهمى إلى غاية واحدة وهى الفناء فى الله والاندماج فى الكائن الأسمى . ويساعد على الوصول إلى هذه الغاية الإنابة إلى الله والرجوع إليه والندم على ما فرط من المعاصى والآثام والورع والتقشف فى الحياة وإهمال مطالب الجسم لتصفو الروح التى هى قبس من الخالق . ومن ثم تحث البرهمية — على عكس الديانة الزرادشتية — على الإكثار من الصوم لما يؤدى إليه من إهمال المطالب الحيوانية للجسم وإضعاف القوى الجسمية وإضعاف تحكمها فى العبد ، بل إنها لتفرضه فرضا على جميع الطبقات أو على بعضها فى مناسبات كثيرة .

فمن ذلك أنها تفرض الصوم على طبقة رجال الدين ، الذين يطلق عليهم اسم البرهمنيين كما سيأتى بيان ذلك ، فى أيام الاعتدالين والانقلابين (أوائل فصول الخريف والربيع والشتاء والصيف) وفى اليومين الأول والرابع عشر من كل شهر قمرى (مبدأ ظهور الهلال وحينما يصير بدرا) وروى فى أسفارهم المقدسة كذلك أنه فى أثناء كسوف الشمس يجب الكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسى وهذا فيما يتعلق بالطبقات الدنيا . وأما الطبقات العليا (طبقة البرهمنيين رجال الدين وطبقة الكشتريين رجال الحرب) فلا يقتصر واجبهم على ما تقدم ، بل يحرم عليهم كذلك الانتفاع بشىء من الأطعمة التى تكون بمنازلهم وقت الكسوف ، ويجب عليهم التصدق بها على غير أفراد طبقتهم بعد تحطيم الآنية التى كانت بها . وتوجب قوانين مانو على طبقة السيناتا Sinata (وهم كبار رجال الدين من البرهمنيين) أن يكفوا عن الأكل والشرب والنوم والسفر من

غروب الشمس إلى غروب الشفق الأحمر كل يوم(١) .

وهذا فيما يختص بالصيام المفروض على بعض الطبقات والصيام الذى يؤدى بمناسبة كسوف الشمس. وأما الصيام العام فقد ذكر البيرونى أنه عندهم « تطوع ونوافل ، وليس شيء منه مفروضاً » . وذكر له أنواعا كثيرة . منها أن يعين الشخص اليوم المصوم ، ويضمر اسم من يتقرب إليه ويصوم لأجله، من الله أو أحد الملائكة أو غيرهم ، ثم يتقدم هذا الفاعل ويجعل طعامه فى اليوم الذى قبل يوم الصوم ، عند الظهيرة ويبنظف الأسنان بالتخليل والسواك ، وينوى صوم الغد ، ويمتنع من وقتئذ عن الطعام . فإذا أصبح يوم الصوم استاك ثانية ، واغتسل وأقام فرائض يومه ، وأخذ بيده ماء ورمى به فى جهاته ، وأظهر اسم من يصوم له بلسانه ، وبقى على حاله إلى غد يوم الصوم ، فإذا طلعت الشمس فهو بالخيار فى الإفطار ، إن شاءه فى ذلك الوقت ، وإن شاء أخره إلى الظهيرة ، فهذا النوع يسمى «أوب ياس » ... ومنه نوع آخر يسمى « كرْجر » وهو أن يطعم فى وقت ما وقت الظهيرة ، وفى اليوم الثانى وقت العتمة ، ولا يأكل فى اليوم الثالث إلا ما يدفع إليه غير مطلوب ، ثم يصوم اليوم الرابع. ومنه نوع يسمى « پَراكْ » وهو أن يجعل طعامه وقت الظهيرة ثلاثة أيام متوالية ، ثم يحوله إلى وقت العتمة ثلاثة أيام متوالية ، ثم يصوم ثلاثة أيام متتالية لا يفطر فيها ألبته .. ومنه نوع يسمى « جَنْدرايَنْ » وهو أن يصوم يوم الاستقبال ، ويتناول فى اليوم الذى يتلوه من الطعام قدر مضغة ملء الفم ، وبضعفها فى اليوم الذى بعده ، ويجعلها فى اليوم الثالث ثلاثة أضعافها، إلى أن يبلغ يوم الاجتماع على هذا التزايد فيصومه، ثم يتراجع من المقدار الذى بلغه طعامه بنقصان مضغة مضغة إلى أن يفنى عند استقبال بلوغ الاستقبال . ومنه نوع يسمى « ماسوَاس » وهو أن يصوم بالوصال أيام شهر

---

(١) Westermarck op. cit. T. 11. p. 296 . وانظر كذلك كتابنا فى « غرائب النظم والتقاليد والعادات » الجزء الأول ٦٧ ، وكتابنا فى « الصوم والأضحية » ٢٠ ، ٢١ .

متوالية لا يفطر فيها بتة »(١) . ثم ذكر الأيام التى يستحب فيها الصوم عندهم وهى كلها مرتبطة بمواقيت فلكية ، وخاصة بمنازل القمر . فمن ذلك « اليوم الثامن والحادى عشر من النصف الأبيض من كل شهر ويوم الاستقبال من شرابن (اسم شهر عندهم) ... وفى « أشوجج » (اسم شهر) إذا كان القمر فى السرطان والشمس فى السنبلة ... واليوم الثامن من هذا الشهر وفطره مع طلوع القمر ... واليوم الخامس من بها درو (اسم شهر) ويصام هذا اليوم باسم الشمس ؛ وفى السادس من « بوش »(اسم شهر) صوم للنساء دون الرجال... يكون تمام يوم بليلته ...(٢) » . وأشار إلى بعض طقوس غريبة ترتبط عندهم ببعض أنواع الصيام ، فذكر أنه فى بعض هذه الأنواع « يجتنب الصائم اللحم والسمك والحلوى واقتراب النساء ويجعل أكله مرة كل يوم ويجعل الأرض وطاءه من غير فرش ولا ارتفاع عنها بسرير ... » ، وفى بعض أنواع الصيام « يتلوث الصائم بأخثاء البقر ويفطر بلبنها وبولها وأخثائها ... »(٣) .

ويشتمل الدين البرهمى — بجانب الصوم — على عبادات أخرى تقسمها أسفارهم ثلاثة أقسام : منها ما يشبه الصوم فى تعلقه بالجسم ؛ ومنها ما يتعلق بالصوت ؛ ومنها ما يتعلق بالقلب .

أما العبادات المتعلقة بالجسم فمن أهمها « الصلاة ، وخدمة الملائكة وعلماء البراهمة ، وتنظيف البدن ، واحترام الحياة الإنسانية ، واحترام الأعراض » .

وأما العبادات المتعلقة بالصوت فمن أهمها « قراءة الأوراد والدعوات الدينية

---

(١) البيرونى ، المرجع السابق ١٣٠ — ١٣٢ . « ويوم الاجتماع » ، و« يوم الاستقبال » اللذان وردا فى عباراته يراد بهما مواقيت فلكية .

(٢) البيرونى : المرجع السابق ١٣٣ — ١٣٥ .

(٣) البيرونى : المرجع السابق ١٣٤ ، ١٣٥ .

والتسبيح ، ولزوم الصدق ، وملاينة الناس فى الحديث ، وإرشادهم ، وأمرهم بالمعروف » .

وأما العبادات المتعلقة بالقلب فمن أهمها « تقويم النية، وترك التعظم ، ولزوم التأنى ، وجمع الحواس مع انشراح الصدر »[١] .

— ٥ —

الشرائع فى أسفار الدين البرهمى

من أهم شرائع الدين البرهمى النظم المتعلقة بالتفرقة العنصرية ، وتقسيم المجتمع إلى طبقات، ووظائف كل طبقة منها واختصاصاتها، وانتقال هذه الوظائف والاختصاصات بطريق الوراثة .

وذلك أن أسفار الڤيدا وقوانين مانو لا تعترف بمبدأ المساواة بين الناس فى القيمة الإنسانية المشتركة، بل تقرر التفاضل بينهم بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى. فتزعم أن الإلاه براهما قد خلق أربع طبقات من الناس ، وخلق كل طبقة من هذه الطبقات من طبيعة خاصة ومن موضع خاص من جسمه . فخلق طبقة « البرهمنيين » Brahmans من فمه ؛ وطبقة الكشتريين » Kachtriyas من ذراعه؛ وطبقة «الڤيسائيين» Vaisyas من فخذه؛ وطبقة «الشودرا» أو المنبوذين Soudras من قدمه . ولما كان أشرف الأعضاء وأطهرها هو ما علا السرة ، وأشرفها وأطهرها جميعاً هو الفم ، ويليه فى ذلك الذراع ؛ ولما كان أحط الأعضاء هو ما كان أسفل السرة ، وأحطها جميعاً هو القدم ؛ لذلك كان أشرف الناس جميعاً وأطهرهم بحسب العنصر والنشأة الأولى هم الذين انحدروا من فم براهما وهم « البرهمنيون » ؛ ويليهم فى الفضل الذين انحدروا من ذراعه وهم « الكشتريون » ؛

---

(١) البيرونى ، المرجع السابق ٧٥ .

وكان أحط الطبقات الإنسانية الذين انحدروا من فخذه وقدمه وهم « الفيسائيون » « والشودرا » أو « المنبوذون »؛ وأكثرهم رجسا ونجسا هم «الشودرا» المنحدرون من قدم براهما.

وتقسم هذه الأسفار الوظائف الاجتماعية بين هذه الطبقات بحسب منزلة كل طبقة منها وبحسب شرف الوظيفة نفسها وأهميتها. فللبرهمنيين أرقى الوظائف، وهي الوظائف الدينية. فهم وحدهم الذين يعلمون الناس أسفار « الفيدا » ، ويشرفون على المذابح والضحايا ، وهم وحدهم الذين لهم الحق في «الإعطاء والمنع والقبول والرفض» . وللكشتريين الوظائف الحربية وحماية الشعب والذود عن حياض البلاد والعمل على استتباب الأمن . وللفيسائيين القيام على تربية الأنعام وفلح الأرض وشئون التجارة . وأما الشودرا أو المنبوذون فلم يعطهم السيد الأعلى إلا وظيفة واحدة ، وهي أن يكونوا خدما للطبقات السابق ذكرها. وهم فوق ذلك رجس ونجس، فلا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم ولا الارتباط بهم بأية رابطة غير رابطة السيد بالمسود(١) . وفي أحياء كثيرة من الهند يعتبر مجرد لمس المنبوذ دنسا ورجسا؛ وفي أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص إذا مرّ به المنبوذ على بعد بضعة أمتار . وديانة المنبوذين غير ديانة بقية الشعب . فهي تنحصر في عبادة الأرواح . وأعظم الآلهة عندهم يظهر في شكل كومة من الآجر أو في هيئة أخرى ساذجة .

وهذه الطبقات وهذه الوظائف طبقات . ووظائف وراثية : فأولاد البرهمن يولدون برهمنيين ويزاولون وظائف أبيهم ، وأولاد الكشترى يولدون كشتريين

(١) قوانين مانو الكتاب الأول مادة ٣١ وتوابعها ومادة ٩٣ وتوابعها والكتب السابع والثامن والتاسع والعاشر .

ويزاولون وظائف آبيهم ... وهكذا بقية الطبقات . ولا يصح لفرد من طبقة ما أن ينتسب إلى غير طبقته ولا أن يزاول غير الوظائف المخصصة لها .

وقد اجتهد غاندى فى القضاء على هذه الفوارق ورد الاعتبار إلى المنبوذين. ولكن جهوده لم تكلل بالنجاح ؛ وبقى نظام الطبقات على ما كان عليه من قبل.

وإلى هذا النظام يشير البيرونى إذ يقول : « وللهند فى أيامنا من ذلك (أى تقسيم الناس إلى طبقات) أوفر الحظوظ . حتى إن مخالفتنا إياهم ، وتسويتنا بين الكافة إلا بالتقوى، أعظم الحوائل بينهم بينهم وبين الإسلام . (أى إن سير المسلمين على مبدأ أن الناس سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى كان من أعظم الحوائل بين الهنود والدخول فى الإسلام لشدة تمسكهم بالتفرقة العنصرية)؛ وهم يسمون طبقاتهم « برن » أى الألوان ، ويسمونها من جهة النسب « جاتك » أى المواليد. — وهذه الطبقات فى أول الأمر أربع . علياها « البراهمة » قد ذكر فى كتبهم أن خلقتهم من رأس براهم وأن هذا الإسم كناية عن القوة المسماة طبيعة ، والرأس علاوة الحيوان ، فالبراهمة نقاوة الجنس ، وبذلك صاروا عندهم خيرة الإنس . والطبقة التى تتلوهم « كشتر » خلقوا بزعمهم من منا كب براهم ويديه، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً . ودونهم « بيش » (القيسائيون) خلقوا من فخذ براهم و « شودرا » خلقوا من رجلى براهم . وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان » [(١)] .

ويضيف البيرونى إلى ذلك أنه بجانب هذه الطبقات الأربع توجد طبقتان أخريان تشتمل كل طبقة منهما على عدة فروع : إحداهما طبقة الصناع ؛ والأخرى طبقة المشتغلين برذالات الأعمال .

ويقول فى صدد الطبقة الأولى : « ثم (أرباب) المهن غير هؤلاء (أى غير الطبقات الأربع السابق ذكرها) . . . ويسمون « أنتز » وهم ثمانية أصناف

(١) البيرونى المرجع السابق ٩١ .

بالحِرَف ... وهم القصار والإسكاف واللعاب ونساج الزنابيل والأترسة ، والسفان ، وصياد السمك ، وقناص الوحوش والطيور ، والحائك . وهؤلاء لا يساكنهم الطبقات الأربع فى بلدة ، وإنما يأوون إلى مساكن تقربها وتكون خارجها» . وذكر ما يفهم منه أنه يلحق بكل مهنة من هذه المهن ما يشبهها من المهن الأخرى التى لا تدخل تحت هذه المهن الثمان ، ما عدا القصار والإسكاف والحائك فإنه لا ينحط إلى حرفتهم ولا تلحق بها أية حرفة أخرى .

ويقول فى صدد الطبقة الثانية : « وأما « هادى » و « دوم » و « جندال » و « بَذْهَتَوْا » فليسوا معدودين فى شىء ، وإنما يشتغلون برذالات الأعمال ، من تنظيف القرى وخدمتها ، وكلهم جنس واحد ، يميزون بالعمل .. وقد ذُكِر أنهم يرجعون إلى أب (شودر) وأم (برهمن) خرجوا منها بالسفاح فهم منفيّون منحطون »[١] .

ومن أهم ما تعنى به شريعتهم كذلك النظم المتعلقة بالزواج وشئون الأسرة . وهى تعتبر الزواج واجباً على كل قادر عليه . ومن ثم ينظر البرهميون إلى الأعزب نظرتهم إلى عنصر فاسد ضار ، أو إلى مخلوق عجيب ومسخ وغير طبيعى ، ويعتقدون أن من يموت بدون عقب تتخبط روحه كمن يتخبطه الشيطان من المس ، أو كمن وقع تحت عبء دين ثقيل لا يستطيع الوفاء به[٢] . ولكن نظم الزواج والأسرة فى الشريعة البرهمية تختلف اختلافاً كبيراً فى كثير من الوجوه عن نظائرها فى اليهودية والنصرانية والإسلام .

فمن ذلك أنها تعتبر الاستيلاء على المرأة بالقوة وسيلة مشروعة لاتخاذها زوجة

---

(١) البيرونى ، المرجع السابق ٩١ ، ٩٢ .
(٢) انظر كتابنا فى « قصة الزواج والعزوبة فى العالم ٩ ، ١٠ » ، وكتاب وسترمارك Westermarck, op. cit. II, 386.

تفى طبقة الكشتريين أى رجال الحرب . فقد ورد فى المادة الثالثة والثلاثين من الكتاب الثالث من قوانين مانو أنه « إذا استولى رجل على امرأة بالقوة وسباها من منزل أهلها وهى تبكى وتصرخ فى طلب النجدة وانتصر على من حاولوا مقاومته فقتلهم أو جرحهم . . . فإن طريقته هذه تسمى طريقة الجبابرة Mode de Géant

وتنص المواد الثالثة والعشرون والخامسة والعشرون والسادسة والعشرن من هذه القوانين على أن « طريقة الجبابرة » طريقة مشروعة للزواج فى طبقة الكشتريين (رجال الحرب) [١] .

• ومن ذلك أنها تبيح أن يلحق نسب الولد بجـده لأمه إذا اشترط ذلك فى العقد .. وإلى هذا النظام يشير البيرونى إذ يقول : « وقد يـكون النسب من صلب الختن فى بطن الابنة المزفوفة إذا شورط على أن يـكون الولد لأبيها . فيكون حينئذ ولد الابنة للجد المشارط دون الأب الزارع » [٢] . (أى الذى وضع النطفة) . ومن ذلك أنها تبيح للمرأة أن تتصل بزوج أختها إذا كان زوجها هى عقيما لتأتى بأولاد يلحق نسبهم بزوجها من الناحية الشرعية [٣] . ومن ذلك أنها تبيح « نـكاح الاستبضاع » وهو أن يتصل بالزوجة، برضا زوجها ، رجل آخر قوى نجيب لتأتى لزوجها بأولاد نجباء، فيعتبر الزوج هو الأب من الناحية الشرعية، ويعتبر الرجل الآخر مجرد أداة استخدمت لإنجاب الأولاد . وإلى هذا النظام يشير البيرونى إذ يقول : « وقد يكون النسب من صلب الأجنبى فى بطن الزوجة ، لأن الأرض للزوج ، فيـكون أولاد المرأة لزوجهـا إذا كانت الزراعة برضا منه » [٤] .

---

(١) أنظر كتابنا فى « الأسرة والمجتمع » الطبعة الخامسة ص ١٢٤ .

(٢) البيرونى : المرجع السابق ص ٩٧ ، والختن بفتحتين يطلق أحياناً على زوج الابنة وهو المراد هنا .

(٣) الأسرة والمجتمع ٧٦ .

(٤) البيرونى : ٩٧ ، هذا ونـكاح الاستبضاع كان جائزاً عند شعوب كثيرة منها العرب فى الجاهلية ، انظر كتابنا فى « الأسرة والمجتمع » ٧٥ ، ٧٦ .

ويؤخذ من بعض أسفارهم وقصصهم أنه كان يباح فى شريعتهم أن يشترك في المرأة الواحدة عدة أزواج وخاصة إذا كانوا إخوة[١]. فقد جاء فى «المهابهاراتا» Mahàbharata (وهى ملحمة شعرية شهيرة عند الهنود تشبه الإلياذه والأوديسيا عند قدماء اليونان) أن أرجونا ثالث أبناء الملك باندو الخمسة فاز بدوبادى، ابنة ملك بانشالا بأن أطلق خمسة أسهم داخل حلقة ضيقة ومعلقة فى الهواء[٢]. ولكن أمه قالت له إن كل شيء يجب أن يكون مشاعا، وهكذا اقترن الاخوة الخمسة بالفتاة وعاشوا جميعا فى قصر واحد[٣]. ويروى البيرونى هذه القصة على وجه آخر يختلف قليلا عن الوجه السابق إذ يقول: «وقد كان لأولاد باندو الأربعة زوجة مشتركة فيما بينهم تقيم عند كل واحد شهراً»[٤]. ولا يزال نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة، وخاصة إذا كانوا إخوة، متبعاً إلى الوقت الحاضر فى عدة مناطق من الهند، و بخاصة لدى القبائل الجبلية على حدود الهند الشمالية. ومن أشهر القبائل التى لا تزال تسير على هذا النظام فى الوقت الحاضر قبائل «جوانسواريس»[٥]. ويذكر البيرونى أن كثيرا من هذه الأنواع الغريبة من النكاح قد ورد لديهم فيما بعد الأمر بتحريمها، وأن هذا دليل على أنهم يجيزون النسخ فى الأحكام[٦]. — وأما تعدد الزوجات للزوج الواحد فقد أباحته جميع كتبهم المقدسة ولم يرد أى نص بتحريمه ولا بكراهته.

وتضع كتبهم المقدسة قيودا كثيرة فيما يتعلق بالطبقات التى يحل بينها

---

(١) انظر البيرونى، المرجع السابق، ٩٨، وكتابنا فى «الأسرة والمجتمع» ص ٧١ — ٧٣.

(٢) يشبه هذا ما تنسبه الاوديسيا إلى أوليس، انظر كتابنا فى الأدب اليونانى القديم، صفحة ٨٣.

(٣) الأسرة والمجتمع ٧٢.

(٤) البيرونى: المرجع السابق، ٩٨.

(٥) الأسرة والمجتمع ٧١ — ٧٣.

(٦) البيرونى: المرجع السابق ٩٨.

التزاوج والطبقات التى يحرم أو يكره بينها التزاوج ، فلا يجوز للرجل من طبقة ما أن يتزوج إلا من امرأة تنتمى إلى طبقة أو طبقات معينة ؛ وقد تختلف هذه القيود فى الزواج الثانى وما يليه (أى حينما يريد الرجل مثلا أن يجمع بين زوجتين فأكثر) عن قيود الزواج الأول . وفى الكتاب الثالث من « قوانين مانو » تفصيل كبير لهذه القيود .

وعلى الرغم مما كان للزواج فى نفوس البرهميين من منزلة كبيرة، فإنهم كانوا يرون العزوبة واجبة على كل من يصل إلى منزلة القديسين من رجال الدين . وكان يجب لديهم كذلك على البراهما كارين Brahmacarine وهو التلميذ فى أدوار دراسته الدينية قبل أن يصل إلى مرتبة القسيس ، أن يظل أعزب وألا يقرب النساء حتى يفرغ من دراسته .

ومن غريب ما تذهب إليه الشريعة البرهمية فى شئون المسئولية والجزاء أنها تأخذ بنظام المسئولية الجماعية فى بعض الجرائم وتجيز أن ينتقل الجرم وتبعته إلى غير مقترفه ، وقد نصت قوانين مانو على أمور كثيرة من هذا القبيل. فمن ذلك أنها تقرر أن نكاح السفاح أو النكاح المحرم يقع إثمه على جميع الأولاد الذين يجيئون منه كما يقع على الزوجين نفسيهما ؛ وأنه إذا عقد شخص زواجا لا كفاءة فيه بين الزوجين ، أو أهمل رسما من رسوم الدين، أو لم يدرس أسفار « الفيدا »،أو أهان أحد أفراد البرهمنيين (طبقة رجال الدين) ، فإن جرم هذه الأعمال يقع على المجرم، وينتقل منه إلى جميع أفراد أسرته ؛ وأن شاهد الزور يعاقب بجرمه فى جهنم خمسة أو عشرة أو مائة أو ألف من أقربائه تبعا لخطورة شهادته ومبلغ ما يترتب عليها من الإضرار بالغير؛ وأن الرجل الخليع exclut de son caste (وهو الذى تتبرأ منه طبقته وتخلعه من ذمتها لعمل ارتكبه) إذا عاشره رجل آخر أو قدم ضحية عنه أو علمه أو صاهره أو شاركه فى ركوب عربته أو فى مقعده أو فى طعامه . . فإن

هذا الرجل الآخر يصبح هو نفسه خليعا ؛ وأن من يقتل برهمنيا (أحد رجال الدين) ينتقل جرمه إلى من يؤاكله ؛ وأن المرأة التى تخون زوجها ينتقل جرمها إلى زوجها نفسه ؛ وأنه إذا قرب رجل من طبقة راقية امرأة من طبقة الشودرا (المنبوذين) ثم دعى إلى مأدبة انتقل إليه ما ارتكبه أصحاب هذه المأدبة من معاص وسيئات ؛ وأن الحاكم إذا لم يعاقب سارقا معترفا بالسرقة ينتقل إليه جرمه كاملا ؛ وأن الملك الذى لا يحمى أفراد شعبه ينتقل إليه سدس خطاياهم جميعا ، والذى يحميه ينتقل إليه سدس حسناتهم جميعا[1] .

— ٦ —

الأخلاق فى أسفار الدين البرهمى

تدعو الديانة البرهمية إلى كثير من الفضائل التى يدعو إليها الإسلام ، وتنهى عن كثير مما ينهى عنه من مظاهر الرذائل والفحشاء والمنكر والبغى .

وتقوم أخلاقها الإيجابية على عشر دعائم أساسية هى الوصايا العشر للدين البرهمى ، وهى : مراعاة الكائن الإلاهى ؛ ومقابلة الإساءة بالإحسان ؛ والقناعة؛ والاستقامة ؛ والطهارة ؛ وكبح جماح الحواس؛ ودراسة الفيدا ؛ والصبر؛ والصدق؛ واجتناب الغضب .

ويذكر البيرونى فى صدد هذه الدعائم رواية أخرى لا تختلف كثيرا عن هذه الرواية إذ يقول : « والسيرة الفاضلة وهى التى يفرضها الدين وأصوله ، بعد كثرة الفروع عندهم، راجعة إلى جوامع عدة هى: ألا يقتل؛ ولا يكذب؛ ولا يسرق ؛ ولا يزنى ؛ ولا يدخر ؛ ثم يلزم القدس والطهارة ؛ ويديم الصوم والتقشف؛ ويعتصم

---

(١) انظر كتابنا فى المسئولية والجزاء ، الطبعة الثالثة ، ١١٢ ، ١١٣ و
Fauconnet : La Responsabilité

بعبادة الله تسبيحاً وتمجيداً ؛ ويديم إخطار « أوم » ، التى هى كلمة التكوين والخلق ، على قلبه بدون التكلم به[١] » .

ومن أهم الرذائل التى تخصها أسفارهم بالذكر وتحدد مكان مرتكبيها فى جهنم ، الكذب ، وشهادة الزور وسفك الدم بغير حق والاستهزاء بالناس وغصب حقوقهم والسرقة وخاصة سرقة الذهب وقتل البقر والزنا وخاصة الزنا بالابنة وزوجة الابن وأم الزوجة واتصال التلميذ بزوجة أستاذه وجماع المرأة فى الأيام المعظمة وإتيان البهائم والإغضاء على فاحشة الزوجة طمعاً فى منفعة والاحتيال والغدر وعقوق الآباء والأجداد والشح والبخل على النفس وإخفاء المال طمعا فى صلات الأمراء وإحراق بيوت الناس وقطع الأشجار وتقصير الأمراء فى واجباتهم نحو رعاياهم[٢] .

وقد عنى بتوضيح نظامهم الخلقى والعمل على تهذيبهم وحضهم على التمسك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل كثير من فلاسفتهم ، من أشهرهم « كرشنا » الذى ولد حوالى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد . وقد أثرت عنه حكم ونصائح كثيرة : منها قوله : « إن الجسد الذى تهبط إليه النفس شىء زائل ، أما النفس التى لاتدركها العين فهى أبدية » ، وقوله « إذا انحل جسد الشخص بالموت . فإن كانت شهواته متغلبة عليه فى حياته فإن روحه ترجع مرة ثانية إلى الأرض ولا يكون لها مكان فى السماء ، وإن كانت الحكمة متغلبة عليه فى حياته فإن روحه تطير إلى الطبقات العليا حيث ترى وجه الله وتدرك كماله » .

انتهى

---

(١) البيرونى : المرجع السابق ٧١ .

(٢) انظر أواخر الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

استدراك وتصويب

فى السطر الثالث قبل الأخير من صفحة ١٢ اقرأ : فقد كان المصريون من عهد البطالسة...

فى السطر الخامس قبل الأخير من صفحة ٣٢ اقرأ : Seconde loi

فى السطر السابع قبل الأخير من صفحة ٥٠ اقرأ : وحقوقها وواجباتها

فى السطر الثانى من التعليق الأول من صفحة ٦٥ اقرأ : يوحنا بن زبدى

فى السطر السابع من صفحة ٧٢ اقرأ : لم يكن واحد منهم مبرءاً ...

فى السطر التاسع من صفحة ٧٦ اقرأ : ابن الله أن يكفر بدمه ...

فى السطر الثامن من صفحة ٨٢ اقرأ : لاختلافها اختلافاً جوهرياً

فى السطر الحادى عشر من صفحة ٩١ اقرأ : Apocryphe

فى السطر السابع قبل الأخير من صفحة ٩٤ اقرأ : وصحة نسبتها إلى أصحابها

فى السطر الثانى عشر من صفحة ٩٩ اقرأ : وتقرر أنه ابن الله وتصور حقيقته

فى السطر الحادى عشر من صفحة ١٠٢ اقرأ : Concile de Nicée

فى السطر الثانى عشر من صفحة ١٠٩ اقرأ : يعقوب البرادعى Jacob Barados

فى السطر الثالث عشر من صفحة ١١٠ اقرأ : Nestorius

يضاف إلى السطر الأخير من التعليق بصفحة ١١٠ ما يلى : وانظر تعليقنا بصفحة ٧٥٢ فى الجزء الثانى من مقدمة ابن خلدون طبعة لجنة البيان العربى

فى السطر الثانى عشر من صفحة ١١١ اقرأ : مجمع القسطنطينية

فى السطرين ١٢ ، ١٣ من صفحة ١١٦ اقرأ : أصغر أجزاء ... وجميع أجزائه

فى السطر الأول من صفحة ١١٧ اقرأ : ٣ — ويحرم المذهب الكاثوليكى

فى السطر الثانى عشر من صفحة ١٤١ اقرأ : البازند Pa-Zend

فى السطر الثانى من صفحة ١٤٢ اقرأ : كليهما نزلا من السماء

فى السطرين ١١ ، ١٤ من صفحة ١٤٤ اقرأ : سينتامينو

فى السطر السابع قبل الأخير من صفحة ١٤٧ اقرأ : فيخاطبه قائلا

فى السطر الرابع قبل الأخير من صفحة ١٤٧ اقرأ : وإنما ينتقل

فى السطر الثالث قبل الأخير من صفحة ١٤٩ اقرأ : وتلتقى روح الميت

فى السطر الخامس قبل الأخير من صفحة ١٥٩ اقرأ : Pourana

الفهرس

الموضوع | صفحة

(من مؤلفات الدكتور على عبد الواحد وافى)

باللغة الفرنسية :

١ — نظرية اجتماعية فى الرق .
٢ — الفرق بين الرجل ورق المرأة (طبعا باللغة الفرنسية وحصل بها المؤلف على شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الأولى من جامعة باريس) .
٣ — نظرية جديدة فى وأد البنات عند العرب فى الجاهلية (نشر باللغة الفرنسية فى مطبوعات « المجمع الدولى لعلم الاجتماع ») .

مؤلفات باللغة العربية :

٤ — علم اللغة (الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة)
٥ — فقه اللغة (الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة)
٦ — نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
٧ — اللغة والمجتمع (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة) .
٨ — الأسرة والمجتمع (الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة)
٩ — المسئولية والجزاء (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
١٠ — قصة الملكية فى العالم (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
١١ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم
١٢ — ابن خلدون منشىء علم الاجتماع
١٣ — عبد الرحمن بن خلدون : حياته وآثاره ومظاهر عبقريته (العدد الرابع من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان « أعلام العرب ») .
١٤ — مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى وعلاجها فى ضوء العلم والدين
١٥، ١٦ — غرائب النظم والتقاليد والعادات (جزءان)
١٧ — الهنود الحمر
١٨ — الطوطمية
١٩ — الأدب اليونانى القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعى (الكتاب السادس عشر من السلسلة التى تصدرها « دار المعارف » بعنوان « مكتبة الدراسات الأدبية »)
٢٠ — الاقتصاد السياسى (الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة)
٢١ — البطالة ووسائل علاجها والتعليم الإقليمى وأثره فى علاج البطالة (نال جائزة المباراة الأدبية سنة ١٩٢٥) .
٢٢ — فى التربية (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
٢٣ — عوامل التربية
٢٤ — أصول التربية ونظام التعليم (مع آخرين)

٢٥ — الوراثة والبيئة
٢٦ — اللعب والعمل
٢٧ — مواد الدراسة
٢٨ — حقوق الإنسان فى الإسلام (الطبعة الثالثة).
٢٩ — بيت الطاعة والطلاق وتعدد الزوجات فى الإسلام (الكتاب السابع من سلسلة « من الإسلام » (تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة)
٣٠ — المساواة فى الإسلام
٣١ — الصيام والأضحية ، بين الإسلام والأديان السابقة (الكتاب السادس والعشرون من السلسلة التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية تحت عنوان « دراسات فى الإسلام »)
٣٢ — الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام
٣٣ — ٣٦ «مقدمة ابن خلدون» مع تمهيد وتكملة وتصحيح وتحقيق وشرح وتعليق وفهارس (أربعة أجزاء ، ١٣٧٢ صفحة ، بها نحو ثلاثة آلاف تعليق، طبعة لجنة البيان العربى).
٣٧ — فصول من « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى، مع مقدمة وتصحيح وشرح وتعليق

بحوث باللغة العربية طبعت على حدة وفصول من كتب :

٣٨ — النظم الدينية عند قدماء اليونان
٣٩ — أقدم البحوث الاجتماعية عند قدماء اليونان
٤٠ — الشعر الحماسى عند قدماء اليونان
٤١ — النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان
٤٢ — الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجيست كونت.
ظهرت هذه البحوث الخمسة فى مؤلفات « الجمعية المصرية لعلم الاجتماع ».
٤٣ — الحرية والإخاء والمساواة فى الإسلام (ألقى فى مؤتمر « الإسلام والاصلاح الاجتماعى » سنة ١٩٤١ ، وقامت بطبعه ونشره « جماعة التعريف الدولى بالإسلام »).
٤٤ — الصوم (فصلة من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة عدد مايو ١٩٥٠).
٤٥ — الرد على الشيوعيين العراقيين (الكتاب رقم ٣٢ من « كتب قومية »).
٤٦ — الإسلام فى المجتمع العربى (من مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر).
٤٧ — نظام الأسرة فى الإسلام (فصل من كتاب « الإسلام اليوم وغداً »).
٤٨ — مقدمة ابن خلدون (فصل من العدد الرابع من المجلد الأول من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان « تراث الإنسانية »).
٤٩ — ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع (فصل من أعمال مهرجان ابن خلدون المنعقد فى القاهرة من ٢ إلى ٦ يناير سنة ١٩٦٢ — وقد نشر هذه البحوث «المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية »
٥٠ — رغبات المؤتمر الدولى الخامس للتربية الأسرية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات).